إهداء

To the little penguin with his short skirt and flowing, fragrant hair

to the paradise that becomes hell if she gets angry, and a volcano if she gets jealous and explodes, my dedication to that little villain .

« ضربك للأنثى ليس إثباتاً لرجولتك ..

بل هو إعلان واضح و صريح عن تخلّيك عن الصفات الإنسانية و تحلّيك بالاندفاعات الحيوانية العدوانية »

- مهيار كريدة

الفصل الأول

أوليمبا

بين الجدران الطويلة المحمرّة أسفل شعاع من الحرارة يهبط على جسد (أوليمبا) الراكع على ركبتيه بيدين مرفوعتين تقيّدهما سلاسل حديدة صدئة تتصل بالحائطين ..

فاليد اليسرى تقيّدها السلسلة المتّصلة بأعلى الحائط الأيسر و اليد اليمنى بسلسلة من أعلى الحائط الأيمن ..

يتلوى و يتلوى ألماً بجسده الذي راح يحترق جلده ببطء و يتقشّر .. الشعر أحمر طويل منكوش يتدلى على ظهره و بضع خصلات متفرّقة تتسدل على وجهه النحيل .. نظر بعينيه الحمراء متأمّلاً جذعه العلوي العاري من اللباس و بنطاله الفضفاض الأسود الذي يستر ساقيه .. لم يعد يحتمل و هو الذي احتمل و صبر كثيراً ، هو في مكانه هذا منذ سنوات ..

غرفة لا تحوي سقفاً ، خالية قديمة تحيطه جدران كانت بيضاء حين تشييدها و قد غدت أقرب إلى الحمرة من أثر الحرارة التي تنبعث من الأعلى ..

الحرارة مجهولة المصدر حارقة ، لا تغيب و لا تخفت بل يبقى لهيبها متسرّباً طوال اليوم و طوال الأسبوع و الشهر و السنة .

لا وقت هنا و لا زمن فلا أهمية له .. الغاية العظمى من تواجدك هنا هي التعذيب و التعذيب .. العقاب العقاب .. فلتُشوى و تحترق كدجاجة تتقلّب في آلة شواء سوقية ، لا أمل و لا فرج .. أنت هنا نطعمك و نشربك قدراً يسيراً تبقى به حيّاً لتتعذب ..

أنت هنا تبول و تتغوّط مكانك .. رائحة برازك و بولك المحترق ستتسلل إلى أنفك لتنسيك كل الروائح الجميلة التي تنشّقتها طوال سنواتك . ستنسى الجمال ستنسى الراحة .. أنت في الجحيم ..

أنت زائر دائم لنارك هذه .. لا ترفع رأسك في حضرتي فأنا الكائن الأعلى و الأعظم في الوجود و أنت تنال عقابك في ناري .. أنت لي أصنع بك ما أشاء و ليس لك رأي و لا قرار

أنت عبد فلا تتكلم .. لا تنظر .. اخضع .. و لا تتنفس

نوح

- هل أنت جاهز يا نوح ؟

قالتها أمي و قد أطلّت برأسها من الباب

- نعم تقريباً .. هل انتهى جدّي من كتابه ؟

تبسَّمَت و قالت مخفضة صوتها :

- أخيراً انتهى منه .. أنا لا أفهمه و لا أفهم طريقة تفكيره : كيف لرجل في عمر الثمانين أن يقرأ كتاباً من ألفيّ صفحة في أربعة أيام .. ثم ما سرّ ذلك الكتاب أصلاً ؟ فلا أراه يشتري من مكتبة أو متجر بل يجلب كتبه جميعها من مكتبته الخاصة في الأسفل التي يمنعنا من الاقتراب منها

قلت و أنا أشدّ ربطة عنقي الحمراء ناظراً لنفسي أمام المرآة الطويلة ذات الإطار الخشبي :

- أنا حقاً أتحرّق فضولاً لمعرفة شكل هذه المكتبة و حجمها و كمِّ الكتب التي تحويها .. بالتأكيد هي قديمة جداً لأنني في

صغري قبل أن يختفي والدي حدّثني عن كون المكتبة تلك ترجع إلى جدّ جدّ جدّي و ربما أكثر بجدّين آخرين

- معك حق .. ثم ما قصتهم مع توارثها ؟ كان من المفترض أن يرثها والدك عن جدك لكنه كما تعلم اختفى منذ عشر سنوات في ليلة و ضحاها و لم يعد له أثر ولا وجود .. كأنه لم يكن

أيّ أنك الوريث الوحيد لجدّك لترث هذه المكتبة .. آمل أن ترثها قبل موتي لأرى ما فيها

كنت على وشك الردّ حينما سمعت جدّي يصيح من الطابق الأسفل منادياً عليّ

- حسناً مع السلامة

- مع السلامة

قلتها و أنا أجري هابطاً الدرجات الخشبية إلى الطابق الأول حيث كان جدّي يقف ببدلته الرسمية السوداء و قميصه الأبيض بربطة عنقه الحمراء .. له شعر أشيب خفيف يغطّي رأسه .. طول قامته لا يتجاوز المتر و السبعين سنتي ..

- هيّا بنا و خذ مفتاح السيارة

أومأت له برأسي و مشينا .. وصلنا إلى منزل كبير

هو قصر بالأحرى ، مضينا إلى حديقته الأمامية و التي كانت تغطّي جانبيها أشجار مختلفة الأشكال و أزهار و ورود متباينة الألوان تتناثر هنا و هناك ، الطريق مغطّى بالحصى ليعطي جوّاً و مظهراً يليق بحديقة فعلية

خلال سيرنا لفتت انتباهي تماثيل كثيرة بمختلف أحجامها تسود المكان : تمثال لرجل يحمل سيفاً يوجّهه إلى أمامه و كأنه فارس من القرن الثالث قبل الميلاد ، تمثال آخر حجريّ لحصان يركض بشعر رأسه المتطاير .. و تمثال لطفل بجناحين و تاج صغير يعتلي رأسه ممسكاً بقوس يتوسطه سهم بين كفّيه ..

كان المكان بارع الجمال و لا سيما بركة الماء التي تتوسط الجانب الأيمن بتمثال لحورية بحر فاتنة تطلّ برأسها من الماء تستقبل بوجهها الفتّان الزوّار

وصلنا إلى باب القصر الضخم و الذي كان خشبياً سميكاً يفتحه لنا حارس مفتول العضلات ضخم الجثة ببدلة سوداء ..

دلفنا و قد عبرنا ممراً مليئاً بلوحات تعود للمدرسة التشكيلية فن هذه المدرسة بالذات لا أفهمه مهما حاولت .. مرة زرت متحفاً كان مليئاً بهذا النوع من الرسومات و وجدت لوحة يناظرها حشد من الناس بتمعّن .. أراهم مندمجين باهتمام كأنهم

يشاهدون فلماً .. و عندما التفت إلى اللوحة رأيت ألواناً متفاوتة لا تعرف فيها شكلاً و لا صورة ، أحمر يتداخل بالأزرق

و أخضر يمتزج بأبيض و بقع صفراء تتناثر بشكل نقاط على اللوحة .. ما هذا ؟ هل أنا غبي لدرجة عدم فهم و تقدير الفن أم أن الفنان قام بصببِّ ألوان مختلفة فوق بعضها البعض ليسمّي هذه لوحة ؟ أقسم أن أخي الصغير يرسم كهذه كل يوم في خمس دقائق

عبرنا الممر و من ثم دلفنا إلى قاعة كبيرة بيضاء تتلألأ فيها ثريّات معلّقة بالسقف المرتفع و كريستال يتموّج ضوؤه من إحدى المزهريات المنتشرة في القاعة .. أرائك زرقاء تزيّنها لمعة ذهبية على جنباتها و طاولة طويلة تقبع في المنتصف .. سبع ستائر بنيّة كبيرة تغطّي أجزاءاً متفرّقة من النوافذ الزجاجية التي يتسرب الضوء منها

تقدّم منّا رجل متوسط القامة في السبعينيات من عمره ببدلته الحمراء ليصافح جدّي و يتبادلان الأخبار عن بعضهما ..

نظر صديق جدّي نحوي و رحّب بي

- المكان كأنّه آتٍ من العصر الفكتوري
- ردَّ عليّ صديق جدّي ضاحكاً :

- نعم معك حق .. فأنا أعشق ذاك العصر كما أحب التحف الثمينة و الفنون و الأشياء القديمة .. فهي تشعرني كأنها ذكرى من لحظة كان بها للعالم شكل مختلف عن شكله الحاضر

- هل تجمع التحف ؟

- بالطبع .. لدي صالة كاملة مليئة بهذه الأشياء ، هل ترغب في رؤيتها ؟

أومأت له إيجاباً .. فاصطحبنا ماضياً للقاعة ، المكان كبير بحق و لو تُركت بمفردي لخمس دقائق لضعت و تهت

وصلنا و توقفنا في بداية قاعة شبه دائرية بجدران بيضاء مليئة باللوحات و التحف و التماثيل و الآثار و كل ما يخطر ببالك

راح يحدّثنا عن كتاب قديم مُسوَد الغلاف .. غلافه _ على ما أظن _ من جلد حيوان ما .. موضوع على عمود حجري مخصص له :

- هذا الكتاب هو إنجيل يوحنا نسخة و الذي يعود للقرن السادس عشر .. وُجد داخل دير مهجور في الغابات الاستوائية

- هل لديك إنجيل رادوسلاف ؟

- لا .. هذا الإنجيل لم يعد موجوداً و اندثر منذ زمن

تحرّكنا نحو تمثال لثلاثة أشخاص يقفون متجاورين ..

جميعهم يجلسون متربّعين .. الأول يرفع يده اليمنى كأنه يلقي التحية و بجانبه عصا و يسند يده اليسرى على شيء خشبي مصنوع خصيصاً لليد .. و يمسك بها بوقاً صغيراً أخضر اللون

كان لون بشرته أزرقاً عاري الصدر لا يغطّيه سوى سروال أسود يرتديه ليستر عورته .. يلتحف بقطعة من فراء النمور ..

تجلس حيّة كوبرا على كتفه الأيمن بجانب شعره الطويل المنسدل على ظهره .. يديه و قدميه يحيطهما أساور ذهبية و الكثير من العقود تحيط جِيده

أما الشخص التالي فكان يجلس ذات الجلسة لكن بأكثر من وجه أيّ أن له رقبة واحدة و لكن بعدّة وجوه : فوجه يتجه نحو اليمين و وجه لليسار و وجه للأمام و عدة وجوه أخرى

و له أكثر من يدين اثنتين يقوم بها بحركات معيّنة تشبه حركات التأمّل

أما الشخص الثالث فكان يشبه الغوريلا .. له جسم بدين بلون أبيض بشكل غريب و حركات غريبة أصعب من أن أصفها لك بكلمات

سألت صديق جدّي : من هؤلاء ؟

نظر إليهم و صمت قليلاً مستجمعاً كلماته و قال :

هؤلاء يشكلون الثالوث الهندوسي المقدس (أيّ ثلاثة آلهة أساسيين) و طبعاً هذا على اعتقاد الديانة الهندوسية .. فالأول هو الإله شيفا و يُعرف بـ«المدمر» في عقيدة تريمورتي

شيفا واحد من الكيانات العليا التي تخلق و تحمي و تقلّب الكون في الهندوسية .. أما في الإسلام فطبعاً إلهنا الله وحده _ _

أما الثاني فهو الإله براهما و هو إله الخلق في الهندوسية

و مُوجد الكون و روحه العليا و جوهره .. يُعرف بـ«الخالق» و هو المعبود الأعلى في الثالوث الهندوسي .. كما أنه يُمثّل الحقيقة المطلقة الوحيدة

الثالث هو الإله فشنو .. و هو معروف بـ«الحافظ»

- أشكالهم تبدو هندية

ضحك جدّي و قال :

- يا لهم من حمقى .. أيعتقدون أن آلهتهم تحمل الجنسية الهندية أيضاً

قال صديق جدّي :

- الديانة الهندوسية غريبة فعلاً .. أو نستطيع القول مضحكة بعض الشيء ، ففيها قصص و معتقدات تثير السخرية

قلت بفضول :

- مثل ماذا ؟

- مثل قصة خلق الكون و بدايته .. فقصتهم تقول أنه في البداية لم يكن هناك سوى محيط عظيم يمتد للانهاية ..

كان هناك ثعبان يدعى (الثعبان العظيم أنانتا شيشا) يطفو على سطح هذا المحيط و كان فوق تلافيف ذيله يقبع الإله فشنو نائماً

و فجأة نبتت و انبثقت من سرّة فشنو زهرة لوتس .. و وُجد فوقها نصف إله و الذي كان الإله براهما

في البداية لم يكن يعلم براهما من هو و ماذا عليه أن يفعل فأقنعه فشنو أن يبدأ بخلق العالم بالمواد التي أعطاه إياها و التي هي زهرة اللوتس .. فطار براهما بعد جلسة تأمل و مزّق الزهرة إلى ثلاث أوراق .. الورقة الأولى جعل منها السماوات

العُلى و الورقة الثانية جعلها السماء الدنيا و أما الثالثة فالأرض و خلق عليها عشباً و وروداً و أنهاراً و أشجاراً و بحار ..

لكنه شعر أن المكان يحتاج لشيء أخير .. فقسم نفسه إلى قسمين ، قسم ذكري و قسم أنثوي .. فانبثق من قسمه الأنثوي بقرة أنثى و انبثق من قسمه الذكوري الثور لينجبا بقراً .. و من ثم انبثق الفرس و الحصان لينجبا مهراً ..و هكذا .. إلخ

استمر بهذه العملية و خلق الإنسان .. القصة غريبة و مضحكة في ذات الوقت

قال جدّي :

- مؤلف هذه القصة قد كتبها في الحمّام على ما يبدو ، فقصة كهذه لا تخرج سوى من هناك

أردف صديق جدّي :

- كما أنهم يعتقدون أن براهما حينما كان يخلق الكون سقطت من يده عن غير قصد صخرة و ارتطمت بالأرض و من ثم ارتدّت و شكّلَت القمر .. و يعتقدون أيضاً أن الشمس تتحرك بواسطة سبعة من الخيول النارية التي تجرّ الشمس بحبال وراءها

قلت باستغراب :

- هل هم إلى الآن يؤمنون بهذه الأشياء ؟

أومئ إيجاباً قائلاً :

- نعم بالتأكيد

انتقلنا إلى لوحة كانت معلّقة على الجدار .. كانت لوحة بأسلوب غريب بعض الشيء تُظهر مدينة أو مجموعة بيوت صغيرة يعتليها هلال أصفر اللون في ليلة ليلاء جميلة

- هذه لوحة (ليلة النجوم) للفنان الهولندي المعروف « فينسنت ڤان غوخ » عُرِف ڤان غوخ بأسلوبه الغريب في الرسم و مع أنّه كان شديد الفقر لم يبع سوى لوحة واحدة طوال حياته إلا أن أعماله قد صارت عالمية بعد وفاته

قال جدّي : أظن أنني سمعت بكونه مريضاً نفسياً

أجابه بإيماءة بينما يحدّق باللوحة :

- نعم هذا صحيح ، كان مريضاً نفسياً يُعاني من

« ثنائي القطب » و هو اضطراب ينجم عنه هوس أو اكتئاب

من أسباب اكتئاب "ڤان غوخ" هو أن أمه في صغره أخبرته أنّه وُلد بنفس تاريخ وفاة أخيه و أنّها أسمته باسمه .. فشعر أنّه ليس سوى كائن بديل

و في فترات حياته الأخيرة نُقل إلى مشفى للأمراض العقلية

و رسم من غرفته هناك هذه اللوحة و التي كانت تمثل المدينة الصغيرة التي يراها أمامه

هل تعلم أنّه أهدى حبيبته هدية غريبة ؟

- و ما هي ؟

- في إحدى المرّات كان يرسم نفسه و عندما وصل عند جزء الأذن صَعُب رسمها .. و عانى من الأمر فقطع أذنه ليضعها أمامه و يرسمها بالشكل الصحيح و من ثم وضعها داخل ظرف و أرسلها إلى حبيبته

لا تعليق .. تعبيرات وجهي تكفي

أردف بعدها :

- حينما كان في المصحة النفسية أرسل رسالة إلى أخيه ثيو تنتهي بالكلمات الشهيرة « لن ينتهي البؤس أبداً ، وداعاً يا ثيو ، سأغادر نحو الربيع » و من ثم هرع أخيه إليه

لغرفته ليجده قد أطلق النار على صدره فنُقل إلى المشفى و مات هناك

- لقد عانى كثيراً

أومئ صديق جدّي بنعم و من ثم راح يُحدّث جدّي عن طب الأعشاب

رحت أتجول في القاعة و أتمعّن التحف باهتمام إلى أن لفت انتباهي خريطة كبيرة نوعاً ما دائرية و معلّقة على الحائط مكتوبٌ أسفلها « خريطة عبد الله اللورداني » اقتربت منها

و رحت أتفحّصها بفضول ، كانت الخريطة للعالم بكامل قارّاته و دوله لكن كانت الخريطة دائرية الشكل و ما لفت انتباهي هو وجود شيء أشبه بالجدار يحيط بالعالم ..

جاء صديق جدّي من خلفي و قال :

- يبدو أنها قد لفتت انتباهك

- نعم .. نعم و بشدّة

- هذه ليست الخريطة الأصلية ، بل هي خريطة منسوخة عن خريطة عبد الله اللورداني الأصلية

- و من هو عبد الله اللورداني ؟

- لا معلومات كثيرة عنه ، فقط أعرف أنّه كان رحّالة و مستكشفاً عربيّ منذ قرون مضت

نظرت للخريطة مرّة أخرى و من ثم قلت :

- و لماذا تظهر الأرض بهذا الشكل الغريب ؟

- أتقصد الجدار المحيط بها ؟

- نعم

- في الحقيقة أنا أيضاً لا أدري .. لكن هذا ما رسمه عبد الله

كدت على وشك الردّ لكن جدّي سحبني و قال هامساً :

- كفاك أسئلة يا ولد

أوليمبا

القلب يخفق بشدّة و يتسارع نبضه ، العرق يسيل من جسدي كنهر تفجّر من نبع في إحدى الجبال . سألت نفسي مراراً : إلى متى ؟ ، إلى متى سيستمر العذاب هذا و ما مصيري

كان ذاك الصوت يردّد دائماً

" هنا بقيّة عمرك و موتك "

" أنت مخلّد يا أولمبا و خلودك في جحيمي "

" عذابك لن ينتهي مهما صرخت و صدح صوتك "

لا أستطيع النوم ، بل أغفو و يُغمى عليّ أحياناً كثيرة من الإرهاق و التعب ...

يدخل عليّ بين الفينة و الأخرى شخص يسكب على جسدي البائس ماء مغليّ لأشمّ رائحة احتراق جلدي

يضربني بسوط لم أجرّب مثل قوته في حياتي كلّها

و يستمر هكذا لساعات و أحياناً لأيام حيث يتناوب عليّ أكثر من شخص

يصدح صوتي و يعلو إلى أن يخفت و يخرس ، مبلّل بعرقي الذي يتصبّب مني تحت أشعّة اللهب الحارق المتوهّج من الأعلى

لا أعلم مصدره ، أشعر أحياناً أنني في فرن عملاق ، و لا أتعجب لو كان كذلك

تمنيت راحة ليوم واحد فقط ، ساعة واحدة ، دقيقة واحدة . لكن الصوت يردّد : لا راحة و لا أمل

حقاً ما أصعب عدم وجود الأمل في الحياة ، لو كنت أعرف أنني سأبقى لخمس سنين أو عشر سنين أو حتى مئة سنة

و من بعدها سأنعم براحتي لتحمّلت و صبرت ، لكن كل ما أسمعه يومياً " لا أمل "

الأمل هو الأهم و من دونه سنندثر منذ زمن و نموت

انتظر ، ها أنا أسمع خطواته .. إنها تقترب شيئاً فشيئاً

إنه معذّبي . ها هو آتٍ

سيحرقني و يجلدني لساعات .. صوت خشخشة عند الباب

و من ثم مفاتيح ، أسمع صوت صرير الباب و هو يُفتح

شخص خلفي راح يقترب و أسمع صوت الماء المغليّ في دلوه بين كفّيه .. ها نحن نبدأ ...

نوح

بعد أن عدنا من منزل صديق جدّي مهووس التحف

استحوذ على جلّ تفكيري أمر خريطة عبدالله اللورداني

من هو ؟ ألا يفترض وجوده في كتب التاريخ ؟

أومأت برأسي و قلت في نفسي : لن أعرف إلا إذا بحثت

و من هنا بدأت رحلتي في البحث . بدأت بالإنترنت و بحثت عن اسمه على أغلب المواقع و يا لأسفي الشديد لم أجد له أدنى وجود ، لا أحد يعرف عنه شيئاً إطلاقاً ..

أمضيت ساعات وراء الحاسوب أتصفح الانترنت بحثاً عن أيّ خيط يدلّني عليه ، لكن محاولاتي باءت بالفشل ..

كأنّه مجرد أسطورة غير موجود و لم يكن

اضطجعت على سريري بعد أن لم أعد أشعر بظهري

و رحت أغرق في التفكير ، أين والدي الآن ؟ هل هو حيٌّ أم ميت ؟ هل هرب من المنزل و تزوّج امرأة غير أمي و أنجب أطفالاً غيري ؟ هل لي إخوة في هذا الكون أم أنا الوحيد من نسل أبي ؟

كان أبي استاذاً في التاريخ يعمل في مدرسة خاصّة قريبة من هنا كما أنّ جدّي _ و الذي هو والد والدي _ دكتوراً في التاريخ و يلقي محاضرات في جامعة بدخل متوسط تبعد عن هنا مسافة شارعين

هم محبّون للتاريخ كثيراً و شغوفون به و بقراءته لذا لا يتأخر أحدهما عن عمله و لا يقصّر في أداء وظيفته ..

أما أنا فكرهت الدراسة و المدرسة منذ صغري و هربت من المدرسة مرّات لا تحصى و لا تعدّ ، حتى تم فصلي منها

و لم أعد إليها أبداً منذ سنّ الرابعة عشر .. تقبّل جدّي الوضع و تفهّم كرهي للدراسة و فشلي الذريع بها و افتتح لي مكاناً فيه سيارات خاصة بنا أؤجّرها لمن يريد

و تابعت في هذه الوظيفة حتى يومي هذا

بينما كنت غارقاً في فوضى أفكاري رنّ منبه الحاسوب لاستلامه رسالة ما

اعتدلت في جلستي و تفقدّت سجل الرسائل ، لأجد إحدى المكتبات التي قمت بإرسال رسالة لها أسألهم فيها عن كتاب حول شخصية عبد الله اللورداني :

- أهلاً بك في مكتبتنا " أبواب النور " .. نعم . طلبك موجود

قمت بسؤاله عن موقع المكتبة ليجيبني بموقع يبعد عن مدينتي بثلاث مدن .. هذا بعيد و سأحتاج وقتاً لأصل إليه

- هل لديكم خدمة توصيل ؟

- لا ، للأسف

زفرت بضيق ، حسناً ، لا حلّ أمامي سوى الذهاب

فالكتاب مهم و لم أجد شيئاً في المكتبات التي بحثت فيها سابقاً .. لكن المصيبة هي إقناع جدّي و أمي ، فلم أبتعد عن المنزل بهذا القدر من قبل

هبطت الدرج إلى الطابق الأول لأجد جدّي يقرأ في كتاب مهترئ الغلاف و تبدو عليه بصمات الماضي

فور أن رآني وضع الكتاب جانباً و لم يدعني أقرأ منه حرفاً تجاهلت موقفه المعتاد و جلست على الأريكة بجانبه و بدأت الحديث :

- جدّي

نظر إليّ بوجه يقول « نعم ؟ »

فأردفت :

- أريد أن أذهب إلى مكتبة لأجلب كتاباً يعني لي الكثير

- حسناً ؟ اذهب و ما المشكلة

- المشكلة هي أن هذه المكتبة تبعد عنا بثلاث مدن

- ما هو الكتاب الذي ستذهب لأجله كل هذه المسافة ؟

- كتاب عن تاريخ شخصية لا أريد الإفصاح عنها ، لكن هذه الشخصية لم أجد أحداً تكلّم عنها سوى هذا الكتاب

مضَت دقائق جرى فيها صمت قاتل ، كان فيها جدّي شارداً في عالم آخر ، و من ثم قال بحنين :

- ذكّرتني بأيام شبابي حينما كنت أتشاجر مع والديّ كي أذهب إلى مدينة بعيدة فأزور مكتبة معيّنة فيها ..
- حتى أنني اضطررت مرّة للهروب لأن المكان الذي اخترته كان بعيداً جداً

سكَت قليلاً و أردف بعد أن زفر بضيق واضح يحاول إخفاءه :

- أأنت متأكد من مرادك ؟

أومأت له برأسي :

- حسناً ، فاذهب يا بنيّ

بعدما قال جدّي عبارته تلك دلفَت أمي للغرفة تحمل صينية تعتليها أكواب شاي يتصاعد البخار منها متلاشياً ، نظر لي جدّي بنظرة يسألني فيها « هل ستستطيع إقناعها ؟ » فأومأت برأسي

و ما أن استقرّت أمي على الأريكة حتى فاتحتها بالأمر :

- ماذا !! ، بالطبع لن أسمح لك ، ليس لي ابن غيرك

- من قال أنني سأقوم بعملية استشهادية ؟

- لم تبتعد عني بهذا الشكل من قبل و لن أسمح لك ، ثم ما زلت صغيراً

قلت بتعجّب :

- ما زلت صغيراً !! أنا في الثانية و العشرين !

- مهما كبرت ستظلّ في عيني طفلاً في العاشرة

- لكن ..

- قلت لا و انتهى الموضوع

تدخّل جدّي بالحديث قائلاً :

- دعيه يذهب ، لم يعد صغيراً و بعد سنوات قلائل سيتزوج و سيكون من المحرج له و لنا ألّا يكون يستطيع الذهاب لأبعد من حدود الحيّ

صمتَت أمي قليلاً و قالت بهدوء :

- حسناً اذهب ، جدّك معه حق عليك أن تتعلم الابتعاد عن المنزل و استكشاف المدينة

عانقت أمي و قبّلت رأسها و أنا أقول بسعادة : أعدكِ ألا يحصل لي مكروه .

أوليمبا

لا أدري كم بقيت هنا ، لكنّي متأكد أنها سنوات طوال فالفصول تتابع و الضوء الحراري المسلّط عليّ من الأعلى يُعمي نوره الأنظار كما أنني أغلب الوقت أكون غائباً عن الوعي

رأسي يؤلمني بشكل دائم مشتكياً من الحرّ و دمي في ساقيّ و أقدامي يريد أن يتخذ مجرىً غير مجراه الذي اعتاد أن يسلكه طوال سنين .. فحركة جسدي لم تتغير أبداً فعانيت كثيراً من آلام كثيرة و ركبتيّ احمرتا من كثرة الجثوّ عليهما

الصوت يردّد كثيراً كلمات مخيبة لأملي بحصولي على راحتي ، دائماً ما يقول أنني في الجحيم مخلّداً لا مهرب و لا منفذ

الموت ليتني ألقاه أو يلقاني ، ليتني آتيه أو يأتيني ، ليتني أعانقه أو يعانقني .. سؤالي المتكرّر لم يلقى إجابات إطلاقاً حتى تاريخ هذه اللحظة .. و لا حتى بصيص أمل : كم سأبقى هنا أيضاً ؟

نوح

بعد أن خرجت من المنزل مشيت مهرولاً خارجاً من الحيّ

و عبرت شارعاً رئيسيّاً لم يزدحم بعد بحكم كوننا ما نزال في الصباح الباكر

و بعد عشر دقائق كنت قد انتهيت إلى موقف الحافلات

و جلست أنتظر إحداها لكيّ تقلّني إلى وجهتي ، نظرت إلى عقرب ساعة يدي اليمنى و الذي كان يشير إلى الثامنة صباحاً و النصف .. أظنني إن انطلقت الآن سأصل في الثانية عشرة

لم أنتظر كثيراً حتى جاءت الحافلة الزرقاء اللون و التي فتحَت بابها ما أن رأتني

دلفت إليها و جلست على أحد مقاعدها السوداء و أجلت نظري في المكان لأرى السائق و هو رجل بدين بصلعة بقيت عليها شعرات قليلة ، قصير القامة و محمرّ البشرة

و الوجه ذو ملامح حادّة و جادّة و صوت أشبه بمحرك معطّل

في الجهة اليمنى كانت هناك فتاة صغيرة تجلس في حضن أمها قصيرة الشعر الأسود ببنطال ضيّق و صدر مكشوف

و وراءها جلس رجل ريفيّ كبير السن في الستين من عمره و يبدو عليه الوقار و الحكمة بعكّازه الخشبي و شعره القصير مشتعل الشيب و ملابسه الريفية البسيطة ..

و كان هناك خمسة أشخاص يجلسون في الخلف بشكل متفرّق بين الجهة اليمنى و اليسرى و كانوا شابّين و امرأة في الأربعين بجانب زوجها الخمسيني و رجل في الثلاثين

كان المكان هادئاً ، فلا صراخ و لا إزعاج يذكر على الرغم من الحرّ الشديد بسبب عدم تشغيل المكيّف من قبل السائق . قال الرجل الثلاثيني من الخلف منادياً على السائق في المقدمة :

- لو سمحت

ردّ السائق بامتعاض :

- نعم ؟

قال الرجل و هو يشدّ على رقبته و يمسح عرقه عن جبينه :

- هل تستطيع تشغيل المكيف رجاءاً ؟

تململ السائق و ردّ عليه :

- و لمَ الإسراف ؟ وظيفتي هنا هي إيصالك لوجهتك و ليس لأقدّم لك الراحة

قال الرجل بغيظ يصدح في صوته :

- أتهزئ بي يا رجل ؟ لقد اغرورقت ملابسي من العرق و ما عاد عندي مزيد من الصبر

السائق بلهجة ساخرة :

- إذاً انزل من الحافلة ، من قال لك أن تبقى ؟

تدخّل الرجل الخمسيني :

- أنا أتفق معه ، الحرّ شديد فعلاً و نحتاج للمكيف كي لا نصاب بضربة شمس

المرأة التي تضع فتاتها في حجرها :

- و أنا أيضاً أتفق معهم ، ابنتي سريعة المرض و لن تحتمل حرّ هذا المكان

كتم السائق شتائماً في سرّه و ضغط على زر تشغيل المكيّف بغيظ ، بعد دقائق كان الجوّ قد تحسّن و الحرارة انخفضت

و خفَّت شدتها

توقفَت الحافلة ليصعد زوجَين شابّين في مبتدأ العمر يبدو عليهما زواجاً حديثاً ، تقدّما و جلسا في المعقد المقابل للعجوز الريفيّ ...

كان الزوج بشعر خفيف بنيّ و طول متوسط بجسد نحيف ببنطال أسود و قميص أبيض اللون ، أما زوجته و التي تجلس بجانبه فهي شابّة بشعر طويل أشقر و صدر مكشوف و يدين مكشوفتين بشكل كامل تقريباً ترتدي كنزتاً وردية رقيقة تصل إلى سرّتها و يظهر جزء من بطنها مع بنطال أبيض ضيّق بشقوق متناثرة مظهرة بعض من ركبتها و من فخذها و قليلاً من ساقها .. يبدوان في العشرينيات من العمر

نظر العجوز الريفيّ الذي يجلس قبالتهما للشاب لحظات قليلة

و من ثم وجّه نظره للشابة ، و بعد لحظات وضع كوعه على ركبة الشاب مسنداً ذقنه على يده و محدّقاً بإمعان بزوجة الشاب لحظات و نهره الزوج بغيظ و قال مزمجراً :

- أبعد يدك عنّي ، و كفّ نظرك عن زوجتي أيها العجوز !! اخجل من نفسك و اخجل من شيبك هذا

صمت العجوز لثوانٍ و هزّ رأسه ناظراً للزوج ، فأردف الشاب بغضب :

- لا تستطيع الرد ، لأنك بذيء منحرف أيها المسن !!

خرج العجوز الريفيّ عن صمته و قال بهدوء :

- لن أقول لك اخجل أنت من نفسك

و أردف بصوت أعلى :

- بل سأقول لك أن الأجزاء المكشوفة من زوجتك من حق الجميع النظر إليها أما الأجزاء المستورة فمن حقك أنت وحدك رؤيتها .. و إن غضبت لإسنادي كوعي على ركبتك فهذا لأن بصري ضعيف و كنت أحاول استوضاح الأجزاء التي من حقي أن أراها من زوجتك

بُهت الشاب و صمت بدهشة و تعالَت أصوات الإعجاب من بقية الركّاب للدرس الذي لقّنه إياه ، و احمرّ وجها الزوجين خجلاً و احمرّ وجه المرأة التي تصطحب ابنتها لسبب أجله

و لم تمر دقائق حتى وصلنا للمحطة التالية فاستوقف الزوجين السائق و نزلا خارجين من الحافلة .

في الحقيقة أثار هذا العجوز إعجابي ، فغدا العرب يقلّدون الغرب تقليداً أعمى للمفاخرة بتطورهم .

و الواقع أن التعرّي ليس دليلاً على التقدّم أبداً .. فمنذ عقود عندما تم صنع أوّل فستان مكشوف الصدر في بريطانيا

تم عرضه أمام النساء لأخذ رأيهن .. و المفاجأة أنهن استقبحنه جداً !! فقالت إحداهن « يستحيل عليَّ ارتداء شيء كهذا »

و قالت أخرى « مقرف !! »

و ها نحن ذا بعد عشرات السنين قد غدونا في عصر يرى أهله التطور بالتعرّي و تقليد الغرب و التخلي عن مبادئهم .

فحتى نساء التسعينيات في بريطانيا عندما كانوا على الفطرة السليمة من ناحية الملبس و الستر استقبحوا الفستان مكشوف الصدر و استقرفوه .. فإلى أين نحن نمضي و إلى أيّ عصر و قيم سنؤول .

كانت الساعة تقترب من العاشرة ، فأسندت رأسي إلى الخلف و أخذت غفوة ، و استيقظت على صوت العجوز الريفيّ ينكزني و يقول : هيّا يا بني لقد وصلنا

شكرته بإيماءة و نزلت من الحافلة و أنا أتمطّط رافعاً كلتا يديّ للأعلى ، زفرت بتململ و أشحت بنظري حولي لأراني على رصيف أمام مبانٍ متوسطة الطول و خلفي طريق مدنيّ عاديّ ، استذكرت عنوان المكتبة و تقدّمت إلى رجل كان يقف ممسكاً هاتفه على الرصيف :

- مرحباً

التفت إليّ و قد كان يرتدي قميصاً أزرقاً و بنطالاً أسوداً بطول يقترب من المتر و ثمانين سنتي :

- أهلاً

- هل تعرف كم تبعد مكتبة نور الأبواب ؟

- نور الأبواب ؟

- عـ... عفواً أقصد أبواب النور

قال كأنما يحاول استذكار الموقع :

- أظن نعم ، تبعد عن هنا شارعين لا أكثر

- حسناً شكراً لك

و دلّني على الاتجاه الذي يجب عليّ سلكه

بعد أن قطعت شارعين عبر الأحياء متوسطة الطبقة

انتهيت إلى مكتبة تعلوها لافتة كبيرة كُتب عليها « أبواب النور » بحجم لا بأس به فهي واسعة حقاً و من الخارج تبدو مليئة بالكتب بمختلف أنواعها

دلفت إليها و ألقيت التحية على موظف الاستقبال و من ثم أردفت :

- أنا نوح الذي تواصل معكم البارحة و سألتكم عن كتاب يتناول شخصية أو مسيرة عبدالله اللورداني

قال موظف الاستقبال و هو يفتح حاسوبه الفضيّ أمامه :

- لحظة سيدي .. سأبحث عن اسمك

و بعد دقائق قال :

- وجدت اسمك و لكن ..

- و لكن ماذا ؟

- للأسف ، الكتاب الذي تبحث عنه غير موجود

- و لكنّكم أخبرتموني بوجوده

- نعتذر ، لقد أخطأنا بينه و بين كتاب آخر يحمل اسم شخصية مشابهة لاسم عبدالله اللورداني

أخفضت رأسي بخيبة كبيرة و زفرت بحنق .. أردف موظف الاستقبال :

- لو أردت .. ألقِ نظرة على الكتب لعلّ فيها ما يجذب انتباهك

أومأت برأسي و رحت أمشي و أجول بين الرفوف التي حوَت عشرات الكتب بقديمها و حديثها ، نظرت لأحد الكتب و الذي كان يحمل عنوان « تاريخ رحّالة العرب »

و التقطته مقلّباً بين صفحاته باحثاً عن عبدالله اللورداني

كان عدد صفحاته ما يقارب الألف صفحة !

و كما هو المتوقع ، لم أجد شيئاً يعيد أملي ، أرجعت الكتاب لمكانه و أكملت مشيي ، حتى انتهيت إلى طاولات خشبية دائرية الشكل بكراسٍ تحيط بها ، كان هناك زوجان في مبتدأ العمر يجلسان جنباً إلى جنب على إحدى الطاولات

ممسكَين بكتابين و على ما يبدو أنهما في وسط نقاش عن مضمون كتابيهما ، تقدّمت نحوهما و قلت :

- هل أستطيع الجلوس ؟

ردّ الزوج :

- بالطبع .. تفضل

كان الزوج طويل القامة بقميص أخضر و بنطال أسود و شعر قصير أشقر غامق اللون و بشرة بيضاء ..

أما زوجته فكانت قصيرة ببشرة بيضاء ، ترتدي نظارات طبيّة

- في الحقيقة ، كنت أبحث عن معلومات شخصية أحد الرحّالة ، و لكن الحظ لم يحالفني .. هل لديكما مكتبة قد أستطيع زيارتها لأجد طلبي ؟

قال الزوج :

- هناك مكتبة اسمها « اقرأ » لديها كمّ هائل من الكتب و من المعقول أن تجد طلبك

أردف بعد لحظات :

- ما اسم الشخصية التي تبحث عن معلوماتها ؟

- عبدالله اللورداني

- لم أسمع باسمه من قبل

- بحثت عنه على الانترنت و لم أجد عنه شيئاً

- أتريد الحقيقة ؟

- نعم بالطبع

- أنا أتراجع عن كلامي ، لن تجد عنه شيئاً في مكتبة (اقرأ) ، من الواضح أنه شخصية غير معروفة و لا أظن أن أحداً قد دوّن عنه معلومات ، و لو كان لذكره وجود لرأيت اسمه على الانترنت

أومأت برأسي يائساً :

- نعم ، معك حق

و من ثم حاولت تغيير الموضوع ، فسألتهما :

- ماذا تقرآن ؟

قال الزوج مديراً كتابه لي :

- رواية « سنترال بارك » لغيوم ميسّو ، و هي تقرأ رواية « بعد سبع سنوات » لنفس الكاتب

- أتحبان القراءة ؟

- نعم كثيراً ، زوجتي و أنا نحب الروايات كثيراً و الحديث عنها

- من الرائع أن تملكا اهتماماً مشتركاً

و من ثم نظرت لساعتي ، لأجد العقرب يقف على الواحدة تماماً

قلت و أنا أهمّ بالنهوض :

- أعتذر ، و لكن عليّ الذهاب

- انتظر ، خذ رقمي .. لعلني أجد أيّ معلومة عن عبدالله اللورداني ذاك ، كي تتصل بي إذا احتجت مساعدة

أومأت له برأسي شاكراً و مشيت خارجاً من المكتبة و منها إلى الحافلة عائداً إلى مدينتي .

الفصل الثاني

أوليمبا

خطوات غليظة تقترب من ورائي ، صوت مفاتيح معدنية

و خشخشة ثياب قماشية مع صوت أنفاس تشي عن كون صاحبها تيساً يسير على قدمين .. أمسكت يده ظهري و قال بلهجة مهدّدة :

- **أين هم ؟**

صمت و لم أتكلم .. فأخذ يشدّ على ظهري بيده و يؤلمني بها:

- **أين هم ؟**

لم أتكلم أيضاً و التزمت الصمت ، راح يخدشني بأظافر يده الخشنة و من ثم سمعته يرفع شيئاً و ...

- لاااااااا

تردد صوت صراخي ألماً في الغرفة ، بعد أن صبَّ عليّ ماءاً ساخناً من دلوٍ حديديّ

و من ثم ردّد يقول :

- **أين هم ؟**

قلت له صارخاً :

- اتركوني أيّها الخنازير **!!**

راح يركلني بركبته على ظهري قائلاً :

- سأقتلك يوماً ما عندما يأتيني الأمر أيها الحقير

بصقت على الأرض استحقاراً له ، و فُتح الباب و أُغلق .

أنا على هذا الحال كلّ يوم ، أسفل هذا الشعاع الحارق الدائم رائحة الفضلات و البول تكاد تُفقدني الوعي ، و الطعام هنا مقرف بكل ما تعنيه الكلمة .

نوح

شهور مرَّت على ذهابي للمكتبة ، كما أني بحثت كثيراً عن عبدالله اللورداني في الكثير من المكتبات و سافرت أكثر من مرة دون جدوى ، اليأس يزداد يوماً بعد يوم حتى أنني أكاد أجزم بعدم وجود هذه الشخصية و أنها محض خيال لا أكثر

جلست مع جدّي الذي _ كعادته _ ينغمس بأحد الكتب رثّة الغلاف و التي يخبّئ عنوانها عن ناظري دوماً

كتب ضخمة تبدو كمجلدات متشابهة لا أدري مصدرها و لا محتواها . لكنه يقرأ منها منذ سنوات و لم أعرف مكتبة يذهب إليها إطلاقاً ..

حلّ الليل و نامت أمي و اتجهت لغرفتي على تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، اندسست في فراشي و تكوّرت أسفل لحافي ناعم الملمس ، وسط غرفتي المظلمة ، بشعاع من الضوء الخافت يتسلل عبر طرف الباب من نور الممر نظرت إلى السقف و استغرقت في أفكاري :

يا ترى ، متى آخر مرة أحببت فيها ؟ أظنّها كانت قبل اسبوعين ، و لكن كالعادة لم تدم علاقتي بها سوى يومين لا أكثر .

لا أعرف في الحقيقة ، أهذا هو الحب ؟ أن يعجبك شكل فتاة فترتبطا و من ثم تتبادلان بعض عبارات الغزل و بعدها تنفصلان بعد كومة من الوعود التافهة الكاذبة ؟

قاطع حبل أفكاري صوت خطوات تصعد على الدرج

راحت الخطوات تقترب أكثر فأكثر حتى وصلت إلى غرفتي و فتح أحدهم الباب . قال همساً :

- نوح ؟ هل نمت ؟

- لا يا جدّي ، ليس بعد

- إذاً تعال و لا تصدر صوتاً

- إلى أين في هذا الوقت ؟

- اتبعني و لا تناقش

نهضت من سريري و مشيت وراءه على أصابع قدميّ كما رأيته يفعل ، لا أدري لمَ لا يريد إصدار صوت و لمَ أصلاً

يريدني في هذا الوقت المتأخر من الليل ، نزلنا الدرج و وصلنا إلى باب القبو .. أخرج مفاتيحه و فتح الباب و هبط درجاً ، كنت خلفه تماماً ...

وصلنا إلى القبو و ضغط جدّي على قابس توضّع على الجدار و أُنير المكان الذي كان عبارة عن غرفة أرضية صغيرة فيها بعض الخردة و أدوات النجارة و أشياء مكسورة هنا و هناك .. نزلت إلى القبو كثيراً قبل هذه المرة و لكنّي لم ألحظ به أيّ شيء غريب أو يستحق أن يستدعيني جدّي بعد منتصف الليل لأجله ، فجأة ، تقدّم جدّي إلى صخرة كبيرة

و قديمة كانت على الأرض ، فقال لي :

- تعال يا نوح و ساعدني على إزاحتها

أومأت له برأسي و رحت أدفعها معه ، و هنا كانت صدمتي فبعد أن تحركَت من مكانها ، وجدت حفرة كانت تقبع أسفلها قال جدّي و هو يُنزل نفسه في الحفرة بهدوء :

- بعد أن أنزل ، عليك اللحاق بي

نفّذت أمره و نزلت بعده ، كان المكان مظلماً حتى أشعل جدّي فانوساً أنار المكان ، لأجدني أسفل الحفرة و أمامي درج حجريّ قديم يقود للأسفل و ينتهي بباب حجريّ ثخين ..

نزلنا و دفع جدّي الباب لألحق به ، دلفنا إلى غرفة متوسطة الحجم ، مليئة بالكتب على رفوف حجرية قديمة .. جميع الكتب كانت رثّة و تعود لعقود ، بل لقرون . صُدمت عندما رأيتها

أشعل جدّي أحد المشاعل الموجودة على الجدار الأيمن

و قال :

- أعلم أنك مصدوم ، لكن حان الوقت لتعرف الحقيقة

- أيّ حقيقة ؟

- هذه هي المكتبة التي توارثَتها عائلتنا لأجيال كثيرة

- على حد علمي ، توارثناها عن جدّ جدّ جدّي _ أيّ أنت –

- لا ، بل هي أقدم من ذلك بكثير

- أقدم ؟

مشينا متعمّقين في المكتبة و مررنا على الكثير من الرفوف التي تعلوها الكتب ، حتى وصلنا إلى حائط عليه خريطة :

- خــ .. خريطة عبدالله اللورداني!!

أومأ جدّي برأسه إيجاباً و قال :

- هذه هي النسخة الأصلية

- لكن ، كيف !!

- قبل ما يقارب الألف عام ، عاش عبدالله اللورداني في إحدى القرى و الذي كان مهتماً بكل ما هو غامض

كان له عيب وحيد ألا و هو فضوله القاتل ، لا يستطيع مقاومته منذ صغره

قضى شبابه يبحث عن أمور لا يلقي لها أحد بالاً ، و أمضى سنيناً بين صفحات كتبه ، حتى جاء يوم اختفى فيه و لم يسمع عنه أحد لشهور ، و امتدّ الأمر لسنين حتى قال الناس أنه مات في أحد الوديان ...

و لكن و فجأة بعد تسع سنوات ظهر من العدم بخريطة رسمها بيده و ادّعى أنه اكتشف في الخرائط القديمة أراضٍ

و قارّات مختلفة عن التي نعرفها و سافر إليها و أمضى هناك تسع سنوات يجولها و يستكشفها حتى رسم ستة خرائط و أوّلها هذه

و أشار إلى الخريطة المعلّقة أمامنا ، و من ثم أردف :

- قال أن العالم أكبر مما نظن و أعمق و أعظم ، و أن الكون ليس مثلما نتصوره

- ليس مثلما نتصوره ؟

مشى و اتجه لكتاب من الكتب و فتحه و أراني صورة :

- الأرض ليست كروية ، بل مسطحة

- مسطحة ؟؟

- لقد كذبوا علينا ، و صنعوا شكلاً جديداً بعيداً كل البعد عن شكل الكون الحق

- و كيف هو الكون ؟

- لن أشرح كثيراً و لن أفصّل ، لكن الأرض مسطحة

و كبيرة جداً و تحيط بها سبع أراضٍ ، و تعلوها سبع سماوات على شكل قبب ، و الشمس بحجم القمر و القمر بحجم الشمس و يدوران فوق الأرض مع الكواكب و النجوم

صمتُ ، لم أعرف كيف أردّ أو ماذا أقول

فأردف قائلاً :

- عندما رأى عبدالله استهزاء الناس بحكايته و أقواله

بنى مكتبة و عاش فيها يدوّن جميع علومه و الاكتشافات التي اكتشفها ، و من ثم ورّث ابنه « نادر بن عبدالله » جميع كتبه و مكتبته و أوصاه بتوريثها لأبنه ، و من ثم توريث ابنه لابنه ، و هكذا .. حتى وصلت المكتبة إلينا

- انتظر ، أتقصد أن عبدالله اللورداني ..

- نعم ، هو جدك

- لكن ، لم تخبرني أنه تزوج ، فكيف ورّث ابنه المكتبة

- بل تزوج ، تزوج قبل أن يختفي بشهور و ترك زوجته حاملاً و اختفى ، و عندما عاد وجد زوجته قد تزوجت برجل آخر و تركت أبناءه في بيت جدَّيهم _ أبوَيه _ ليعتنيا بهم

- قلت أنه رسم ست خرائط

- نعم

- فهل الخرائط الخمس المتبقية موجودة هنا ؟

- مع الأسف ، لا . لم نجد سوى هذه الخريطة قد تركها هنا كما أنه لم يذكر شيئاً في كتبه عن الخرائط المتبقية

_ و هل قبره هنا أم في مقبرة ؟

- لا هنا و لا هناك ، فلم يُعرف قبره أبداً و لا عُرفت وفاته

- و كيف ذلك ؟

- لقد عاود اختفاءه و لم يعد هذه المرة إطلاقاً

- عجيب أمره ، هل عاد إلى تلك الأراضي ؟

- لا أعلم ، ربما ..

تركني جدّي في المكتبة بعد أن أخبرني أنني سأرثها منه

تفحّصت الكتب الموجودة لأفاجئ بكون أغلب صفحاتها ممحية بسبب قِدمها .. لكن هناك ما أستطيع قراءته و فيه شيء من التفصيل عن الأرض و شكلها ، كما ذُكر في هذه الكتب أن الأرض محاطة بجدار جليديّ يفصل بينها و بين الأرض الثانية

و أن هناك رحّالة ذهبوا و لم يعودوا لسبب مجهول

لم يكن هناك الكثير من الصفحات التي أستطيع قراءتها

و لكن و بينما أتفحص أحد الكتب ، وجدت صفحات مكتوبة بخط يبدو عليه الحداثة ، كما أنه مختلف عن خط عبدالله اللورداني بشكل كبير و واضح .. و نوع الحبر المستخدم يشي عن كون كاتب هذه الصفحات ، هو شخص آخر غير عبدالله اللورداني

جلست على أحد الكراسي الخشبية القديمة أمام طاولة كانت موجودة هنا منذ أجيال ، و رحت أقرأ الصفحات بشيء من الفضول :

" الحقيقة اتضحَت أمامي ، و كذبة العالم اتضحت ...

لسنا على كوكب بل نحن على " أرض " و شتّان ما بين هذه و ذاك .. الآن علمت لمَ تحرس الدول القطب الجنوبي لدرجة إعطاء مجنّديها الأمر بإطلاق النار على أيّ إنسان يقترب من تلك المناطق دون إذن مخصوص يسمح له بالدخول ..

الآن عرفت سرّ الاهتمام المستميت منهم بهذه الأراضي الجليدية الفارغة .. صحراء ثلجية لا أكثر ، و لكنها تفصلنا عن عالم آخر و قوم آخرين و حضارات أخرى ..

ورّث جدّي عبدالله هذه الحقيقة لأبناءه و أحفاده و لم يجرؤ أحدهم من بعده على الذهاب إلى تلك الأراضي ..

و لكن ، حان الوقت ليعود أحد أحفاده إلى هناك ..

عليّ أن أعرف أكثر ، لن أكتفي بهذا القدر البسيط من الحقيقة ، فأنا متعطّش للمزيد و المزيد و لم أرتوِ بعد .. لديّ زوجة و ولد صغير ، لكن الجميع يملك هذا ، و لا أحد يملك الحقيقة و فرصة الذهاب لرؤيتها سواي ..

سأذهب ، نعم لقد قررت .. و سأعود بعلم أكبر من الذي جاء به جدّي و سأظهر للعالم الحقيقة و أريهم كيف أن جدّي

لم يكن مجنوناً .. سآخذ آلة تصوير و أخلّد كل ما سأراه هناك .. سأفضح زيف الكون الذي يدرّسوننا إياه و أفضح كذبهم "

سقط الكتاب من يدي و أنا كالمصعوق . لا أدري ما أفعل

و لا ما أقول ، لقد كان والدي .. أهذا سرّ اختفاءه ؟ هل رحل إلى هناك ؟ هل وصل ؟ و السؤال الأهم

" هل ما يزال على قيد الحياة ؟ "

استدعاء

في منزل جميل و كبير الحجم ، بطراز غريب يشي بالجهد المبذول عليه و على تصميمه .. جلس شاب على أريكة جلدية سوداء أمام مدفأة حجرية تتراقص ذيول نيرانها

يرتدي بيجامة شتوية زيتية اللون و فيها بعض الأجزاء السوداء .. كان الليل قد خيّم على المدينة و دقّت ساعة منتصف الليل يتردد صوتها في الغرفة

دلفَت إلى الغرفة شابّة في مقتبل العمر تحمل كأسيّ عصير بطعم الليمون ، ناولته أحد الكأسين و جلست على الأريكة بجانبه و قالت بعد أن أسندَت رأسها إلى ذراعه :

- المكان هادئ

هزّ رأسه ناظراً لنار المدفأة و من ثم وجّه نظره إليها و قال مبتسماً :

- لماذا تبدين جميلة اليوم ؟

رفعَت رأسها بسرعة :

- ماذا قلت ؟؟ لماذا أبدو جميلة اليوم ؟ أتعني أنني بشعة في العادة ؟

- لا لا ، لم اقصد هذا أبداً

قرّبَت وجهها من وجهه و قالت بملامح طفولية غاضبة :

- ماذا تقصد إذن ؟؟

- أقصد أنّك تبدين أجمل من العادة

تراجعت و هدأَت و قالت بهدوء :

- عليك أن تتعلم استوضاح كلامك

- لماذا ؟

- لأنك في المرة القادمة قد لا تسرع بالتبرير ، حتى تجد نفسك تُسأل ثلاثة أسئلة

- و ما هي ؟

- من ربك ، ما دينك ، من نبيك

ضحك و ضمّها إليه و قبّل رأسها و قال بعد لحظات :

- أتعلمين أنني أهوى كل كلمة تخرج من هذا الثغر الجميل

و أمسك ثغرها و راح يداعبه كمداعبته لطفل ، احمرّ خداها خجلاً و أنزلت رأسها ، فقال واضعاً يده على رأسها و صرخ :

- أووه !! ما هذا !!

استدارت إليه فزِعة :

- ماذا ؟ ما الذي حصل ؟؟

قال لها و بصره مشدوه موجّه خلفها بعينين مرعوبتين :

- التفتي ببطء ، إني أشاهد الآن مخلوقاً غريباً قد ظهر من العدم

- مــ ، ماذا ؟

- لا أعلم ، يبدو أشبه ..

التفتَت ببطء و حذر و من ثم نظرَت ، لترى نفسها في المرآة المعلّقة على الجدار

فأردفَ و تابع كلامه :

- يبدو أشبه بملاك

ضربته على فخذه و صاحَت بحياء :

- لقد أفزعتني !!

كان على وشك أن يرد ، لكن هاتفه راح يرنّ :

- انتظري قليلاً

رفعه إلى أذنه :

- مرحباً

أجابه صوت نوح على الجانب الآخر :

- أنا نوح ، هل تذكرتني . قابلتك في المكتبة منذ شهور مضت

- أوه ، نعم لقد تذكرت ، كيف حالك

- جيّد جيّد ، لكن هناك ما هو أهم

- لم أفهم ؟ هل حدث مكروه ؟

- اسمع ، لن أستطيع إخبارك كل شيء هنا ، هل تستطيع أن تأتي غداً إلى منزلي ؟

- حسناً ، و لكن أين يقع منزلك ؟

- يقع في (...)

- مدينتك بعيدة عن مدينتي ، لكن لا تقلق سأكون عندك غداً مساءاً ..

نوح

فتحتُ الباب بعد أن طُرق مرتين متتاليتين ، فتلاقى وجهي بوجه الزوجين الذين رأيتهما في المكتبة و الذَين اتصلت بهما للمجيء ، رحّبت بهما و دلفا المنزل

و قُدتهما مباشرة دون أيّ مقدّمات إلى مكتبة عبدالله اللورداني و دُهشا بعد أن رآها و من ثم أخبرتهما بكلّ ما عرفته من جدّي و بكلّ ما قرأته هنا و ختمت حديثي بمعرفتي رحيل أبي إلى الأرض الثانية :

- عليّ أن أذهب للبحث عن والدي

ردّ الزوج :

- هل تتكلم بجدّية ؟؟

قلت له :

- نعم ، بالتأكيد

و من ثم أردفت :

- صحيح ، قبل أن أنسى . ما اسميكما ؟ فلم تخبراني بهما حتى الآن

أجاب الزوج :

- أنا يونس ، طبيب مختص بالقلب ، و هذه زوجتي أسيل ، طبيبة أطفال

- أوه ، كليكما من الأطباء ، تشرفت بمعرفتكما

قالت أسيل مشيرة إلى يونس :

- هو أيضاً منذ سنوات يعتقد بسطحية الأرض و يكذّب كرويتها ، و أقنعني بذلك في مرحلة ما

قال يونس :

- بالطبع هي مسطحة ، و هذه من أكثر الأشياء المتأكّد منها في حياتي ، لو اجتمع العالَم كلّه على إقناعي بكرويتها ، فلن يستطيع

ردَّت أسيل ضاحكة و هي تنكز يونس بكوعها :

- زوجي العنيد

علّقت قائلاً :

- في الحقيقة من الجيّد أنّ لديك علم بهذا الشكل للأرض ، لأنك ستفيدني كثيراً

شرد يونس لثوانٍ و من ثم استأذنني و أخذ بزوجته بعيداً و راحا يتكلمان ، و عادا بعد دقائق :

- خطر لي خاطر ، و ناقشته مع أسيل و وافقتني

- و ما هو ؟

- سنذهب معك إلى الأرض الثانية

- حقاً !! لكن ، هل لديك أحد تريد البحث عنه ؟

- لا ، ليس لديّ .. و لكنني أمضيت غالب سنواتي الماضية في مناقشة الآخرين و الجدال معهم بشأن هذه الحقيقة ، و أعتقد أنّه من حقي رؤية ما دافعت عنه سنيناً

أومأت برأسي مبتسماً :

- لقد فهمتك ، حجّتك منطقية

ثم صمتنا للحظات و أردفت :

- حسناً ، سنذهب جميعاً ..

-

بدأنا نعدّ خطة الذهاب ، و أوّل ما اتفقنا عليه هو قدر المؤونة المأخوذة معنا ، واجهتنا بعد ذلك مشكلة كبيرة :

- انتظر يا يونس

قالت أسيل و تابعت :

- أليست الدول تحرس الجدار الجليدي و معها أمر بإطلاق النار على كل من يقترب ؟

أجابها :

- نعم، بالتأكيد

ردّت :

- إذاً كيف سنذهب ، و كيف سنصل إلى الجدار أصلاً ؟؟

قلت معلّقاً :

- هذا صحيح ، لم أفكر بهذا

جلس يونس على كرسي كان بجانب الطاولة التي تجاور الحائط الذي عُلّقَت عليه خريطة عبدالله اللورداني للأرض الأولى ، أي أرضنا ، و يظهر فيها الجدار الجليدي المحيط بالأرض :

- هذا أمر بغاية البساطة ، نستطيع أن ندفع لهم لنذهب برحلة تحت إشرافهم ، هذه الرحلة يقوم بها أي شخص لديه فضول للذهاب إلى هناك ، سيأخذنا أحدهم بالطائرة المروحية و سيحلّق بنا إلى أقصى المناطق المسموح لنا رؤيتها أو الذهاب إليها ، و بعدها سأهتم بالأمر

قالت أسيل بنظرة متشككة :

- تهتم بالأمر ؟؟

أومأ يونس و قال :

- بكلّ بساطة ، نضرب الطيّار على رأسه ليُغمى عليه و من ثم أستلم أنا دفّة قيادة الطائرة

نهضت أسيل و راحَت تصرخ عليه :

- هل أنت مجنون !! ماذا لو مات الطيّار ؟؟ ماذا لو أدانوك و دخلت السجن ؟ ماذا سأفعل أنا ؟

ردّ عليها بعد أن نهض و عانقها :

- لا تقلقي ، لن نفعل شيئاً دون تدريب و دون نتائج محسوبة مسبقاً

تدخّلتُ بالحديث قائلاً :

- هل تُحسن قيادة الطائرات ؟؟

رفعَت أسيل رأسها متذكرة :

- انتظر !! أنت لا تعرف قيادة الطائرات !

عاود يونس جلوسه و حدّق بالخريطة الرثّة متآكلة الجوانب و الأطراف و مصفرّة اللون :

- سأتعلم و أتدرب و من ثم ننفّذ خطتنا

قلت له بعد لحظات من الصمت :

- و ماذا سنفعل بعد أن نأخذ مكان الطيّار ؟

- سنتّجه إلى الجدار مباشرة ، و سيكون بعيداً عنّا قليلاً .. سنواجه بعض الحرّاس و لكن لن يشكّ أحد بنا ، بما أننا نقود طائرة تنتمي لهم

أجبته :

- و ماذا لو أوقفونا ؟ و أمرونا بإخراج التصريح الذي يثبت سماح الدول لنا بالمرور ؟

- سأتواصل مع شخص أعرفه يستطيع تزوير تصريح مطابق للأصلي باحترافية تامّة ، هذه الخطوة ستكون فقط للاحتياط بحال تم إيقافنا

- و ماذا سنفعل لو استطعنا المرور و الوصول إلى الجدار ؟

- عندما نصل إلى تلك النقطة سنفكر ..

أسيل

بعد اتفاقنا على بعض النقاط في الخطة ، غادرت مع يونس منزل نوح ، كدت أفتح باب السيارة و لكن يونس أسرع إليّ و فتحه لي ، و أمسك بيدي و أركبني ، اعتاد على فعل هذه الحركة منذ بداية زواجنا قائلاً أنه وعدني بمعاملتي كأميرة له

في الواقع لم يرفض لي طلباً مهما كان صعباً ، و لم يأكل في حياته خارج المنزل بدوني ، حتى عندما أكون في نزهة مع والديّ أو صديقاتي ، فإنني عندما أعود إلى المنزل أجده لم يأكل بعد ، على الرغم من تأخر الوقت و الساعة ، حينما أسأله يجيبني :

" لا أستطيع الأكل دونكِ "

بعد أن انطلقنا قال و عيناه على الطريق :

- ما رأيكِ بالأمر ؟

- أتقصد الذهاب ؟

- نعم

- أشعر بالغرابة قليلاً ، أيّ في العادة يسافر المرء إلى دولة أخرى أو مدينة مجاورة ، لكننا سنسافر إلى أرض أخرى

و عالم مختلف عن عالمنا هنا ، و بشر مختلفين هذا لو كان هنالك بشر

- أوافقكِ الرأي ، حين التفكر بالأمر أشعر كأنني أتحدث عن شيء خياليّ أو مستحيل

أومأت برأسي و ساد صمت قاتل ، فكرت فيما نفعله

و ما نقرر على فعله .. هل هذا صواب ؟ كان السؤال يجول بخلدي و من بعدها أصبح أحرفاً خرجت من فمي :

- هل هذا صواب ؟

- لو أردتِ الحقيقة ، لا أدري

- ماذا إن لم نستطع العودة ؟

- حينها الأكثر أهمية هو كوننا بقرب بعضنا ، ما تبقى غير مهم

وافقته الرأي ، و من ثم تساءلت بصوت مسموع :

- كيف ستتعلم قيادة الطائرات ؟

- هناك مدرسة أمر من أمامها كثيراً حينما أذهب إلى العمل و أعود ، و أعتقد أنّها لتعليم قيادة هذه المركبات بأنواعها الأساسية و المشهورة

- و هل الأمر بهذه السهولة ؟ أيّ أهو كتعلم قيادة السيارة ؟

- بالطبع لا ، الأمر أصعب بكثير و يستغرق وقتاً .. نحن نتلكم عن لوحة مليئة بالأزرار و الكثير من الأشياء التي عليّ تعلّمها ، و عدد كبير من القواعد و الأنظمة ، إضافة إلى احتياطات في حال حدوث خطر أو خطأ

- أتدري يا يونس ؟

نظر إليّ بنظرة متسائلة ، فوضعت رأسي على ذراعه و أردفت:

- لأعوام ، كانت هذه المسألة عبارة عن جدال و نقاش

أيّ كانت كلاماً لا أكثر .. أما الآن فأصبحت حقيقة

- معكِ حق ، و الأهم ، هل تتذكرين عندما كان زواجنا عبارة عن كلام و وعود و من ثم أضحى حقيقة لا خيال ؟ فبينما كنّا نقترب من بعضناً بعض سرّاً و نتقابل بصعوبة ..

ها أنتِ الآن تسندين رأسكِ إلى ذراعي دون خوف و لا خشية و لا أحد يستطيع منعكِ

لم يتلقى جواباً ، فالتفت إليها و وجدها تغطّ في نوم عميق ، قال ضاحكاً :

- لقد اتخذَتني المشاكسة كوسادة ..

يونس

بعد أن وصلنا إلى البيت ، لم أرد إيقاظ أسيل ، فكانت تنام نوماً عميقاً كطفلة بعد يوم حافل باللعب و اللهو ، و هذا لأننا استيقظنا في السابعة صباحاً لنأكل و نقرأ قليلاً و من ثم نشاهد حلقتين من مسلسل كنّا نتابعه لأسبوع مضى ..

و بعدها ذهبنا باتجاه مدينة نوح حتى وصلنا في المساء ، لازلت أجلس في السيارة و الليل قد توغّل في السماء ، حتى شعرت ببعض البرودة ، فخفت على أسيل من المرض و ما كان أمامي سوى أن حملتها بذراعيّ و دلفت المنزل

حتى وضعتها على سريرنا و غطّيتها باللحاف .. اشتدّ البرد و راحَت الأمطار تهطل مدراراً ، فشغّلت جهاز التدفئة في الغرفة . و جلست قرب جانب أسيل من السرير و الذي كان يقابل رفوف مكتبة صغيرة مليئة بالكتب بمختلف أنواعها ..

لدينا غرفة كاملة كمكتبة و لكنّنا نحب الجلوس على السرير للقراءة ، بالأخص في الشتاء . لذا اشترينا هذه المكتبة

الصغيرة و وضعناها هنا .. كنت أقرأ رواية لنجيب محفوظ حينما ضربَت صاعقة قوية سكون الليل ، أضاءت الغرفة لثانية من قوتها ، و كان صوتها كصاروخ قد ضرب منزلك

نهضَت أسيل فزعة فأمسكت بها و عانقتها .. كنت أشعر بأنفاسها الخائفة و ضربات قلبها المتسارعة .. شدَّت عليّ العناق و دفنَت رأسها في صدري .. و بعد أن هدأَت قليلاً

عاودَت تمدّدها على السرير ، فغطّيتها و قبّلت جبينها

و عندما هممت بالابتعاد أمسكَت يدي ، فنظرت إلى عينيها المتلألئة و فهمت مرادها ..

رميت بنفسي إلى جانبها تحت الغطاء و ضممتها إليّ

و أسندت ذقني إلى رأسها بينما شعرت بأنفاسها المضطربة الدافئة تداعب عنقي بهدوء و انتظام .. أدخلت أناملي بين خصلات شعرها الطويل و رحت أعبث به ، رويداً رويداً

لا أدري كم بقيَت الأمطار تتدافع هاطلة على الأرض

لكنّني حينما فتحت عينيّ لم أجد أسيل في السرير ..

أشحت ببصري إلى النافذة لأرى الأمطار قد توقفت

و صفَت السماء من الغيوم و تحلَّت بزرقة جميلة ، يتخلّلها شعاع الشمس الدافئ الذي تسلّل عبر زجاج النافذة و انطبع على أرضية الغرفة و جزء من السرير ..

على إفريز النافذة في الجانب الأيمن ، حوض بنيّ صغير تتوسطه ورود حمراء و وردية مع وردتين زرقاء اللون قد تنابتَت من تربته ..

قطرات من الندى العذب تتقطّر من أوراق الورد ، علّقتُ عينيّ على روايتي المرمية على الأرض ..

حدث هذا حينما أفاقت أسيل على صوت الصاعقة ، فوقعَت من بين يديّ و لا زالت قابعة بجانب الكرسيّ حتى الآن ..

مكان أسيل لا يزال دافئاً ، متشبّعاً برائحة عطرها الأخّاذ

و الذي حينما أستغرق في شمّه ، أجدني في حديقة من الورود الوردية .. أو هذا ما أشعر .. وسادتها تحمل ذات الرائحة الفردوسية ، يا إلهي ! لا أزال مهووساً بهذه المجنونة الصغيرة ، حتى بعد زواجنا . ألم تشبع يا يونس ؟ ألم تشبع بعد ؟

سمعت صوت خطوات رنّانة ، تصدرها قدمين تعانقهما الملاحة و تلتفّ حولهما ، متخلّلة الأصابع و الكعب و المشط

أغمضت عينيّ بسرعة ، ممثلاً نومي . سمعت صرير الباب يُصدَر ببطء ، و من ثم تتابعت حركة في الغرفة راحَت تقترب منّي شيئاً فشيئاً .. شعرت بأنفاس تتابع في الهواء و من ثم :

- بوووووم

قمت على أثر جفلة لم أتوقعها ، حينما وجدت أسيل قد قفزت فوقي و أطبقَت بيديها على وجهي :

- ماذا تفعلين !!

قالت و هي لا تزال تلمس وجهي بشيء لم يدركه بصري :

- انتظر انتظر ، لحظات و ننتهي

بعد أن قاومتها و هي تجلس عليّ مستغلّة التفافي بالغطاء الذي منع حركتي و إخراج يديّ ، رفعَت يديها عنّي

و أخرجَت مرآة أدارَتها إليّ :

- ما ، ماذا فعلتِ أيتها الحمقاء !!

- لا شيء ، أضفتُ على وجهك بضع لمسات من يدي

- لقد وضعتي لي مساحيق تجميل !

- نعم ، بعض من أحمر الشفاه و قليل من البودرا و شيء من الكحلة مع أشياء أخرى لا تعرفها

- كم سأستغرق بإزالتها ؟

نظَرت بنظرة مهدّدة :

- و من قال أنّك ستزيلها ؟

- أتمزحين معي ؟

- لقد أخذ منّي هذا العمل الفنيّ لحظات من وقتي الثمين

و الآن ستزيله يا معدوم الضمير !!

قلت زافراً بتأفّف :

_ بدأ النكد

و راحت تتكلم و تتكلم ، و تعاتب و تعاتب .. حتى امتلأ رأسي و قارب على الانفجار و من ثم :

- كفاكِ كلاماً ، حان وقت إسكاتكِ

- و من قال أنّك ستستطيع إسكا..

لم تكمل جملتها حتى قاطعتها و دفعتها للأمام نحوي باتجاه وجهي ، بجسدي الكامن أسفلها ، و اصطدم الفاه بالفيه

و تلاقى الثغر بالثغر . أبعدَت شفتيها و نظرت في عينيّ

قالت همساً :

- لقد انتصرتَ يا رجل مساحيق التجميل

الفصل الثالث

نوح

مرّ اسبوعان على لقائي بيونس ، و لم يردني منه خبر حتى الآن بشأن التصريح المزوّر . و مع أنني لا أدري إن كنّا سنفعل ما نخطط له ، أم أنّه محض كلام و حديث ..

إلا أنّني متخوّف من القصة برمّتها ، ففي نهاية الأمر مهما كانت نيّاتنا حسنة خالية من شوائب السوء ، فإننا نتدخّل في أمر أضخم منّا .. أيّ إننا نتحدّى دولاً و جيوشاً لا ترحم ، فأين نحن من هؤلاء ؟

كنت أمشي في المكتبة و أتجول فيها كعادتي ، فقد أصبحت أمضي هنا ساعات طوال متأمّلاً بهذا المكان البالغ عمره الألف عام ، خطر لي خاطر :

" لو نجحنا في الذهاب و اجتياز جميع العقبات ، هل سنستطيع العودة ؟ و هل ستمرّ الحكاية دون عقاب ؟ أشكّ في هذا "

قاطع ثورة فكري رنين هاتفي .. التقطته من على الطاولة و أجبت :

- مرحباً ؟

- كيف حالك ، لم أسمع صوتك منذ أيام

- يونس ؟ آه .. مرحباً بك .. و أنا أيضاً

- معي بشارة لك ستسرّك كما سرّتني

- حصلت على التصريح المزوّر ؟

- ألا تستطيع تركي أقولها بدلاً من تخريب الأمر !!

- آسف ، لكنني تحمست

- حسناً ، لا تعتذر ، نعم لقد حصلت على التصريح

- و ماذا بالنسبة لدروسك في القيادة ؟

- بدأت بها منذ أن ذهبت من عندك

- كم تبقى حتى تكتمل خبرتك

- اسبوعين آخرَين على ما أعتقد

- لا بأس ، ليست مدة طويلة

- صحيح ، بما أنني تذكرت ، سأتقدم بطلب رحلة للقطب الجنوبي

- متى سيتم الرد على طلبك ؟ و ما اليوم الذي ستحجزه للذهاب؟

- سيتم الرد على طلبي بعد أيام ، و أعتقد أننا يجب أن نحجز أحد أيام الشهر القادم ، فنحن الآن في بداية الشهر الخامس لنوفّر شهراً نعدّ فيه خطتنا على أكمل وجه ، و نعدّ عدّتنا و نشتري حاجياتنا

- نعم ، لقد فهمتك ، معك حق .. لكن السؤال الذي يجول بخلدي: ماذا لو تم رفض الرحلة ؟؟

- حينها لن نذهب ، لأنّها إشارة من الله لنا بعدم الذهاب

- حسناً ، و متى سنقوم بشراء الأغراض و الحاجيات ؟

- علينا البدء من الآن ، أنت اشتري مستلزمات التخييم و إشعال النار و أكياس النوم ، و أنا سأشتري مع أسيل الطعام

- اتفقنا ، هذا جيّد .. و سأتصفح الإنترنت لأتعرّف على أهم حاجات التخييم ، كي لا أنقص أو أنسى شيئاً قد نحتاجه

يونس

دلفت مع أسيل إلى السوبر ماركت لنشتري ما نحتاج من الطعام للرحلة ، مشينا بين الرفوف و احترنا :

- يونس ، ماذا سنشتري ؟

- في الحقيقة ، لا أدري يا أسيل

- اممم ، ما رأيك باللحوم ؟

- لا ، هذا خيار سيء ، ماذا لو لم نستطع إشعال نار

و ماذا لو وصلنا إلى مكان مرتفع الحرارة ، حينها ستفسد

- ماذا عن الدجاج ؟

- حالها كحال اللحوم

- الفواكه ؟

- لا ، قد تفسد و قد ...

- الخضراوات ؟

- أيضاً لا، قد تـ..

- الوجبات الخفيفة ؟؟

- خيار سيء أيضاً ، فهي غير مغذّيـ..

صرخت أسيل بتذمّر طفوليّ :

- يووونس !!

- ماذا ؟

- لا تصعّب الأمر عليّ

التفتَت بعبوس وسط ضحكاتي بعد أن ضربتني على يدي

و راحت تجول بنظرها في المكان ، حينها لمعَت عيونها

و برقَت ، ارتسمَت على وجهها ابتسامة شريرة و من ثم قالت :

" لقد وجدتها !! "

و ركضَت تجرّني وراءها ممسكة بيدي ، وصلنا إلى رفوف مليئة بعلب الإيندومي بمختلف أنواعها ، التفتَت إليّ تنظر بنظرة مرحة تقول فيها " ما رأيك ؟ "

قلت لها :

- لا ، فالـ

قاطعَتني و هي تدفعني :

- اخرج و أنا سأهتم بالأمر ، هيا بسرعة

أجبت بعناد رجل لا تُكسر له كلمة و لا يعيد كلامه مرتين :

- لن أذهب ، هذا مستحيل ، لن أدع زوجتي تتحكم بي و سأبـ..

لم أكمل كلامي حتى وجدتني خارج السوبر ماركت واقفاً أمام الباب .. زفرت بتأفّف " يا لها من مجنونة " و أخرجت هاتفي..

تصفّحت موقع تقديم طلب الرحلة و طلب منّي بعض المعلومات :

" اسمك الكامل "

" عدد الأشخاص "

" أسماء جميع الأشخاص "

" صورة للبطاقة الشخصية "

" موقعك "

" يوم الحجز "

و بعد أن قمت بإدخال جميع البيانات و المعلومات المطلوبة

ظهرَت لي التكلفة الواجب عليّ دفعها ، و ... كانت 12 ألف دولار عن كل شخص .. أتمزحون معي ؟؟ هل سأدفع هذا المبلغ لكي أرى صحراء ثلجية تتمشّى فيها مخلوقات غريبة تشبه البيضة تُدعى البطاريق ؟؟ ما المميز في ذلك المكان أنا لا أفهم ، فلو كانت الرحلة إلى الأرض الثانية لكان السعر أرخص

التفت لأجد أسيل قد خرجَت و معها عربة التسوّق :

- أنتِ ، انتظري .. ماذا تفعلين يا مجنونة ، لا يُسمح لكِ أخذ عربة التسوّق

قالت و هي تخلّص عجلة العربة بعد أن التفّ حولها خيط منع حركتها :

- لقد أخبرتهم بأنّك ستدفع ثمنها ، ادخل و ادفع ثمنها و ثمن الطعام ، المحاسِب ينتظرك

- ماذا !! ألا تعلمين بأن سيارتنا معنا ؟؟ من السهل وضع الطعام في أكياس و أخذهم بالسيارة

- لقد أعجبني شكل العربة و أريدها !!

ضربت وجهي بكفّ يدي ، و من ثم نظرت إلى محتويات العربة لأفاجئ :

- هل اشتريتِ جميع رفوف الإيندومي !!

- بالطبع لا ، فقط أربعون علبة

- ما خطبك يا هذه ، أأنتِ مخبولة ؟؟

- لا تقلق ، لا تقلق ، لقد اشتريت أيضاً الكثير من الطعام المعلَّب ، هو أفضل خيار لهذه الرحلة

- حسناً ، هذا أول شيء منطقي تفعلينه

نظرَت بتشكّك :

- أتقصد أنني لست منطقية ؟ بالتالي أنا مجنونة أليس كذلك؟؟؟

اندفعتُ بسرعة للسوبر ماركت قائلاً :

- عندما نعود للمنزل ابدئي ساعة نكدكِ اليومية ، سأدفع الحساب

قالت بصوت عالٍ مقلدة كلامي بسخرية :

- عندما نعود للمنزل ابدئي ساعة نكدكِ اليومية ..

نوح

دلفت إلى أحد المتاجر المختصّة ببيع مستلزمات التخييم ، بعد أن تصفّحت الانترنت و عرفت أساسيات التخييم

أولاً بالطبع ، مررت على قسم الخيام

و اخترت خيمتين : واحدة زرقاء متوسطة تكفيني ، و أخرى صفراء كبيرة قليلاً تكفي نوح و أسيل ، أصرّ يونس على أن تكون خيمتهما باللون الأصفر ، لا أعلم لماذا .. لكنّني نفّذت رغبته ..

اشتريت بعض المصابيح الصغيرة ذات الإضاءة القوية ، و من ثم مررت على قسم موقد النار المتنقل و الذي سنستخدمه للطبخ

و أخذت ولّاعات ذات جودة ممتازة لإشعال نار التخييم لنستدفئ عليها عند الحاجة ، و من ثم اشتريت أكياس نوم : واحد أزرق لي و اثنين أصفرَين ، ماذا تبقّى ؟

بينما كنت أفكر ، رنّ هاتفي فأجبت :

- يونس ؟

- نعم ، كيف حالك ، هناك شيء ضروري سنتحدث بشأنه

- كلّي آذان صاغية

- تكلفة الرحلة على كلّ واحد منّا هي 12 ألف دولار

اصفرّ لوني و لكنّني تماسكت نفسي و رددت :

- أتمزح ؟

- لا ، صُدمت أيضاً حينما رأيت السعر

- ألا توجد تخفيضات أو عروض ؟

- أتريدهم أن يقولوا : احجز رحلة لاثنين و الثالث مجاناً ؟

- نعم ، هذا جيد

- اسمع ، نحن أمام خيارين ، إما إلغاء الفكرة ، أو التضحية بهذا المبلغ الكبير في سبيل رحلة لا نعرف إن كانت ستنجح

- حسناً ، لو افترضنا أننا قمنا بإلغاء الرحلة ، ماذا سنفعل بالطعام و أدوات التخييم ؟

- هذا بسيط ، نذهب و نخيّم في إحدى الغابات

- فكرة جميلة ، لكن يجب عليّ البحث عن والدي

- هل معك 12 ألف دولار ؟

- في الواقع ، عليّ مفاتحة جدّي بالأمر ، لن أستطيع الحصول على مبلغ كهذا من سواه

- أتفق معك ، سأناقش أمر النقود مع أسيل ، فلا أستطيع اتّخاذ قرار يخصنا دونها

أغلقت الاتصال ، و عدت للمنزل بأقصى سرعة ، فتحت الباب و دلفت ، كان جدّي يجلس على الأريكة يشاهد التلفاز :

- جدّي ، أين أمي ؟

قال و هو يقلّب بين القنوات بجهاز التحكم عن بعد :

- ذهبَت إلى إحدى جاراتها منذ نصف ساعة

تقدّمت إليه و جلست على أريكة منفردة :

- هناك أمر أريد الحديث عنه

رأى جدّي توتري ، فأطفأ التلفاز و نظر إليّ بتساؤل :

- لقد علمت بأمر والدي

أخفض رأسه و بدَت عليه علامات الفهم ، و قال بعد لحظات :

- كان عليك أن تعرف في النهاية ، و لم يكن الأمر بيدي

و لا بيد أمك ، لقد تسلّل في إحدى الليالي إلى المكتبة بعدما سرق منّي المفتاح بطريقة ما
لم يكن يعلم أيّ شيء عنها سوى أننا نتوارثها جيلاً بعد جيل ، و بعدم سماحي لأحد من الاطّلاع عليها أو الاقتراب منها ..
سيطر عليه فضوله ، فبقي أسابيع يتسلّل إليها دون علمي حتى قرأ جميع كتبها و عرف الحقيقة ، لكنّه لم يتمالك نفسه و أخذ يبحث في الأمر أكثر و أكثر ..
حتى قرأ جميع كتب التاريخ و العلم التي تحدّثت عن سطحية الأرض و وصل لحالة من الجنون أنّه قرّر الذهاب إليها و العيش فيها ، لكنّني منعته ، و بعد مناقشات احتدَّت مع الوقت استطعت إقناعه بالبقاء ، أو هذا ما ظننته ،
ففي إحدى الأيام استيقظنا على صدمتنا باختفائه من المنزل ، بل من المدينة و الدولة ، و العالم بأسره
لم يترك أثراً واحداً خلفه سوى تلك الصفحات في ذلك الكتاب التي رأيتها فيما بعد ، لم أعرف ما حدث معه ربما نجح في الوصول إلى الأرض الثانية و ربما مات أو ضاع .. أخبرت والدتك أنّني لا أعرف شيئاً عنه أو عن

المكان الذي رحل إليه ، فمحرّم علينا إفشاء سر مكتبتنا لغير وريثنا من سلالتنا

فكرّت حينها في نفسي : ماذا لو علمتَ أنّني أفشيت سرّنا هذا إلى زوجين لا تمتّ بهما أيّ صلة بنا ؟

تابع جدّي قائلاً بأسف :

- خشيت عليك في الواقع أن تحذو حذو والدك ، و أن تفكر في الذهاب مثله .. لن يبقى وريثاً حينها للمكتبة و سينقطع نسلنا

- جدّي

نظر إليّ :

- في الحقيقة أعلم أنّك تخشى من هذا الأمر و لكنني أريد البحث عن والدي ، و قد قرّرت فعلها و حسمت أمر

أردفت بعد لحظات :

- قد تكون الرحلة بعد شهر

حدّق بي قليلاً و أدار وجهه ناحية الأرض ، شرد هنيهة

و قال بصوت مسموع :

- ماذا لو لم تعد؟

- أعدك سأحاول العودة بكلّ طاقتي

- تذكر ، لو لم تعد .. ستترك والدتك وحيدة ، و سينقطع نسلنا لأنّك الحفيد الوحيد المتبقي

أومأت برأسي ، و رأيت مسحات الحزن على ملامحه :

- أتعلم يا نوح ، لا أدري لمَ اختصّ الله نسلي أنا بدافعهم للذهاب إلى هناك ، أيّ أنّه على مدار ألف عام ، لم يقرّر أحد أجدادي الذهاب و لم يفكروا بالموضوع أصلاً
لكن لماذا حينما وصل الدور عندي .. ذهب ولدي الوحيد و سيتبعه الآن حفيدي الوحيد ؟

أمسكت بيد جدّي و قلت له :

- أقسم لك أنني سأعود ، و سأعود برفقة والدي ..
و أنا متأكد أن الله اختصّ نسلك بهذا لحكمة ما
ربما نحن أفضل مَن سيذهب إلى هناك أو أنّنا الوحيدون الذين سينجحون بالعبور

يونس

- يووووونس

صرخت مجيباً عليها :

- نعم !

- لقد احترق المطبخ !!

رميت الكتاب من يدي و جريت بأقصى ما عندي إلى المطبخ دلفت إليه لأجد أسيل تجلس على كرسي أمام مائدة الطعام و قد حضَّرَت الغداء ، جلت بنظري في المكان ، و لم أجد أيّ خطر أو دخان أو نار :

- أين الحريق ؟؟

قالت بهدوء و هي تأخذ صحناً و تسكب فيه من الطعام الذي يتصاعد منه البخار :

- ليس هناك حريق ، لقد استخدمت هذه الحيلة لتأتي للغداء بسرعة ، ففي العادة تبقى منغمساً بكتابك حتى يبرد الغداء و نتشاجر

- يااااا إلهيييي ، أكاد أن أشدّ شعري من أفعالك المجنونة هذه .. إلى متى ستفعلين هذا !!

- أيّ أفعال ؟ لم أفعل شيئاً ، أنا بريئة

- بريئة ؟ لم تفعلي شيئاً ؟ .. أنسيتِ عربة التسوق التي اشتريتها أو التي أجبرتني على شراءها ؟ هل نسيتِ تحطيمك للوحة تبلغ قيمتها عشرون ألف دولار ، لأن عليها صورة فتاة غيركِ ؟

أم نسيتِ خريطة العالم الضخمة التي أمضيتُ شهوراً أصمّمها و أعمل عليها لكي نعلّقها على حائط الممر الطويل و في النهاية استيقظتُ صباحاً لأجد صورة وجهكِ مطبوعة فوقها ؟؟

- ألم تقل أنني العالم في عينيك ؟ و قد طبّقتُ مقولتك و جعلت وجهي مطبوعاً على خريطة العالم ، لأنني العالم هنا

- لم أنتهي بعد ، المجسم الكونيّ للأرض المسطحة الذي عملتُ عليه لسنين ، حتى أنجزته .. غبتُ عن المنزل ساعة واحدة لأجد الأرض حين عودتي قد اختفَت و استُبدِلَت بمجسم لكِ

- ألم تقلي أنني محور الكون ؟؟ أم أنك كنت كاذباً ؟

- بلى ، لقد قلت

- و الأرض على هذا النموذج هي محور الكون ، لذا ما فعلته هو أنني استبدلتها بي ، و تركت الشمس و القمر و السماء

و النجوم و الكواكب تدور حولي .. أنا محور الكون يا عزيزي

- ألا تذكرين كتاب الـ...

قاطعَتني بتذمّر :

- صه **!!** لقد جئت بك بسرعة لكي لا يبرد الطعام ، اجلس و ابدأ بالأكل **!!**

جلست و أنا ألتهم الطعام بغيظ ، و من ثم تذكرت أمر المال ففاتحتها بالموضوع :

- ماذا لو قلت لكِ أن تكلفة الرحلة إلى القطب الجنوبي هي 12 ألف دولار على كلّ شخص ؟

- حينها سأضربك بالملعقة على رأسك

- إذاً ، أسيل

- نعم ؟

- تكلفة الرحلة إلى القطب الجنوبي هي 12 ألف دولار

- بصقَت الطعام من فمها ، و رفعَت ملعقتها رامية بها على رأسي

- انتظري ، ما الذي فعلتهِ يا هذه

قلتها و أنا أمسك رأسي ألماً

- لقد أخبرتكَ مسبقاً

- حسناً ، ما رأيكِ ؟

- أتريد أن تأخذنا إلى رحلة مجهولة العواقب بهذا المبلغ !!

أيّ أن علينا دفع 24 ألف لأجلنا نحن الاثنين !!

- على الرغم من ضخامة المبلغ ، لكن مدخولنا جيّد ..

و نستطيع دفعها

- أتريد جعلي أجنّ !!

- أنتِ مجنونة أصلاً

قامَت من مكانها و راحَت تلحق بي ، بعد أن جريت هرباً منها و انتهى الأمر بنا بالشجار في الحمام ، حتى انتهى النقاش بموافقتها

خرجتُ من الحمّام ببسمة الانتصار قائلاً :

- لقد انتصرت

مرَّت أسيل من جانبي بطولها القصير و مشيتها اللطيفة قائلة :

- انظر إلى شعرك المنكوش و ثيابك الممزقة و آثار اللكمات على وجهك ..

نوح

بعد مرور شهر

أجلس وحدي في المكتبة الأرضية ، أناظر تشقّق جدرانها القديمة التي شهدَت جدودي و عرفتهم و آنستهم

نار المشعل المعلّق على الحائط ، تتراقص جاعلة شعاعها يتوهّج ، و ظلالها تتضارب يميناً و شمالاً ..

تنثر نورها الخفيف الأقرب للبرتقالي بين جنبات الكتب

و أحجار الرفوف .. أرضية فضيّة اللون تشي بكمية صلابة أحجارها .. تعانق أسفل الجدران و تلتصق بأحجارها و حصاها لحظات من الصمت و الشرود ، أودّع ببصري جميع تفاصيل المكان كأنّني لن أراه ثانية .. أحتفظ بذاكرتي بأكبر كمٍّ من ذكريات هذا البيت ، لعلّني أنفق مخزوني منها دون تبذير و لا تقتير ، فبدونها سأجنّ حتماً .. غداً اليوم الموعود ، نعم ، أنا لا أصدق ما أنا بمقدم عليه ، لكنّه الواقع ..

بعد شهر من التخطيط ، جاء اليوم و حان الوقت .. تمت الموافقة على الرحلة منذ اسبوعين و تمّ دفع المبلغ ذاك

36 ألف دولار .. أعطاني جدّي 12 ألف دون شجار و لا صدمة .. كأنّه كان يعلم مقدار التكلفة ، أو أنّه ما عادت تهمّه النقود ..

في العادة كبار السن ، يصبحون فجأة لا يأبهون بالأمور التي كانت تهمّهم ، كأنّهم وصلوا لمرحلة من النضج تكسبهم وعياً ليس كوعينا ، فيصبح كل ما تراه مهماً ، سخيفاً في أعينهم ..

لا ينتظرون سوى الموت ، لأنّهم قد باتوا يعرفون أن وقتهم انتهى ، و لا سبيل لهم إلا رحيلهم

تواصلت مع يونس البارحة و أخبرني عن انتهاءه من تعلّم قيادة الطائرات و أنّنا بتنا مستعدين للتنفيذ

غداً ، سأستيقظ في السابعة صباحاً لأودّع جدّي و أمي

أمي التي أقنعها جدّي بكوني ذاهباً لقضاء شهر في بيت قريب له .. سأخرج من البيت و أستقلّ سيارة أجرة تقلّني إلى المطار و من هناك ألتقي بيونس و زوجته ، بعدها نذهب بالطائرة إلى الأرجنتين ، من هناك ستقلع بنا طائرة مروحية تذهب بنا إلى القطب الجنوبي .

و تبقى الأسئلة دوماً تجول في خلدي :

" هل سننجح ؟ "

" هل الأرض مسطحة حقاً ؟"

" هل توجد أرض أخرى ؟ "

" هل كان جدّي عبدالله صادقاً أم مجنوناً ؟ "

" هل سنعود ؟ "

أسيل

فتحت عينيّ على نور خافت في الغرفة ، كان يونس يجلس في الفراش بجانبي شارداً ، ترتسم على ملامحه الحيرة و الخوف

ضوء يُصدر من مصباح صغيرعلى كومود بجانب سريرنا .. وضعت يدي على يده و سألته :

- هل هنالك خطب ما ؟

نظر إليّ و حدّق في عينيّ ، حتى نطق :

- لا أدري ، و لكنّني أشعر بالذنب لتوريطكِ معي في هذا الأمر

- تورّطني ؟ أتعلم أنّني حتى و إن لم ترضى منذ البداية بأخذي ؛ لكنت سأذهب مهما حصل .. يستحيل أن أتركك ترحل عنّي فلو ستموت ، سأموت معك .. و لو ستعيش ، سأعيش معك .. أنا قدرك منذ البداية ، أنسيت ؟

أرحت رأسي على كتفه ، بينما راح يقبّل خدّي ببطء .. و من ثم وضع خدّه على خدّي ، و أمسك بيدي :

- حسناً ، سنبقى سوياً مهما حدث ..

الفصل الرابع

نوح

وصلت إلى المطار ، و دلفت إليه .. كان مليئاً بالمسافرين

و لم أرى في البداية يونس و زوجته .. و لكن حينما تقدّمت رأيتهما .. لم يكن يصل لمسمعي صوتهما و لكنهما كانا على ما يبدو يتشاجران .. حينما اقتربت أكثر ، بدأَت الكلمات تتدفق إلى أذني :

- لمَ لم تبدئي هذه المشاجرة في البيت ؟؟ لمَ الآن !!

- حاولت كتمان غصّتي التي تحرقني الآن في معدتي ، لكن لم أستطع

- في معدتكِ !؟

- أقصد في حلقومي ، أرأيت كيف أنّك لا تفهمني !!

- أتردينني أن أنفجر عليكِ الآن ؟؟

- أرني كيف ستفعلها يا أيها الرجل !!

وصلت إليهما ، و نظرت بتساؤل .. حينها قالت أسيل :

- لقد خانني هذا الكاذب !!

قال يونس متذمّراً بنفاد صبر :

- في الحلم !!

- و ما الفرق ؟؟ الفعل هناك ، فعل هنا

- لو سرنا على هذا المنوال ، فأنا رأيت نفسي أعتلي ضفدعاً أحمراً ، له أذنيّ حمار و يسير عليهما وسط حساء دجاج و خضار .. هل هذا يعني أنني فعلتها في الواقع ؟؟

صمتَت ، و من ثم ردَّت :

- هذا شيء و ذاك شيء آخر

تدخّلت قائلاً :

- الطائرة ستقلع بعد قليل ، دعوا مشاكلكم جانباً و حينما تعودان من رحلتكما أكملاها

قال يونس و هو يجرّ حقيبته :

- هذا لو عدنا

بعد لحظات ، صعدنا الطائرة و جلست في مقعد على الجانب الأيمن بجانب سيد يبدو على مشارف الخمسين ، و أما يونس فجلس مع أسيل في مقعدين متجاورين خلفي ، لم أقصد التنصّت ، لكنّني سمعت حديثهم :

- أتعلمين أنني مرتاح لأنّك موجودة ، على الرغم من كوننا ذاهبين في مغامرة قد تودي بحياتنا

- أنا أيضاً ، أشعر بالاطمئنان لأننا سوية

قلت في نفسي ، ما بال هذَين الاثنين ؟ منذ خمسة دقائق كانا يتشاجران وسط المطار و الناس تنظر إليهم ، و الآن يتغازلان.

أوليمبا

بينما أسمع صوت شهيقي و زفيري المتردّد ، و عَرقي الذي راح يسيل كنهر على جبهتي و يتفجّر من جسدي تفجّراً ، فُتح الباب ...

ظننت أنّه وقت دلو الماء الساخن كالعادة ، لكنّ الغريب أن الحارس فكّ قيودي و جرّني معه هابطاً الدرجات الطويلة ، لم أستطع المشي ، فجسدي لم يكن قد مشى منذ سنوات

و عظامي ما عادت تستطيع الوقوف من العذاب .. ما دفع الحارس لشدّي من شعري ، تاركاً جسدي يتخبّط على الدرج

للحارس صوت أجشّ و بدنه مفتول العضلات و ضخم ، من الطراز الذي تشعر بعضلاته تكاد تنفجر من الضخامة ، حتى بانت شرايينه أسفل جلده كأنها حبال أو أنابيب ..

في الحقيقة هذا الشكل مقرف و ليس جميلاً على الإطلاق

كان حليق الشعر ، أحمر البشرة تقريباً ، كان وجهي يرتطم بأرض الدرجات مع كل خطوة ، لم أستطع الصراخ ألماً لأن حبالي الصوتية قد تعبَت من كثرة الصراخ في السنين السابقة

أنا بالفعل مصدوم ، هذه هي المرة الأولى التي أخرج فيها من هذا المكان بعد دخوله ، هل سيطلق سراحي ؟

أم سيقومون بإعدامي بعد فشلهم في استجوابي

وصلنا إلى باب حديديّ ، دفعه الحارس و دلفنا ممرّاً مستقيماً طويلاً ، أمسك الحارس بيدي و راح يجرّني ، أشعر كأنّهم يعاملونني على كوني مخلوق غير بشري ، لا أدري ما بال قلوبهم التي أحتار بوجودها أصلاً ، كأن الإله قد وضع لهم قلباً ، عمله هو النبض و ضخّ الدم فقط ، و لم يضع فيهم مشاعراً تتدفّق في أجسادهم

انتهينا إلى قاعة كبيرة بعد أن فتح بابها حارس آخر كان واقفاً هناك ، تقدّم الحارس الذي يجرّني بضع أمتار في القاعة ، و من ثم جذبني بقوة ، و رماني أمام عرش يجلس عليه الملك المتواري في الظلال ، لم أرَ وجهه ، لكنّه كان ذا جسد عاديّ ، يرتدي ما يشبه البدلة الحديدية

قال بصوت هادئ يدلّ على صرامته :

- ألن تخبرنا بمكانهم ؟

صمتُ ، و لم أجب . فضربني الحارس بقدمه على ظهري حتى أوجعني ألماً ، فقال الملك :

- **أنا لا أمزح معك ، إن لم تخبرنا بمكانهم ، سيتم تعذيبك بدرجة فظيعة من العذاب .. حينها لن تأتيك فرصة مقابلتي لتتراجع**

قلت له بصوت مبحوح مع بعض التأوّه :

- لـ .. لن ، أخبركم أبداً

- ماذا لو أخبرتني مقابل العفوّ عنك ، و تركك و شأنك ؟

- مستحيل ، لن أفعل

- إذاً لا أمل منك

أشار إلى الحارس ، الذي جرّني من قدمي و أخذني إلى ما يشبه حوض الاستحمام ، وضعني فيه و أمر الحرّاس بإتيانه بالشمع ..

قيّدني جيداً ، و جاء بلوح من الحديد تم تثبيت عليه شموع مقلوبة ، بحيث أن خيط اشتعالها يغدو إلى الأسفل .. غطّى الحوض باللوح ، أيّ أصبحت بداخل الحوض ، و فوقي مباشرة شموع مقلوبة ..

تم تكميم فمي بقماشة سميكة ، و أُشعِلَت الشموع ، بعد لحظات ، راح الشمع المُذاب بتأثير الحرارة يتقطّر على جسدي ، و يحرقه ..

بعد دقائق راح صوتي يصدح في المكان ، الشمع الملتهب يحرق جسدي ببطء ، و تترسّب كل قطرة منه على جلدي بعد أن تبرد . هنا أدركت فائدة وضع لوح من حديد

لقد جعل الحرارة تُحبس و لا تخرج .. بل و زادها

تركوا فتحة لدخول الهواء ، ليبقوا على نار الشموع مشتعلة و ليدعونني أتنفس عذاباً .. طريقة للتعذيب لم أسمع بها و لم تخطر على بالي ، أرجعوني إلى قيودي في الأعلى ، أنا أموت .. أنا أحترق ..

يونس

هبطَت الطائرة بعد ساعات عدة ، و غادرناها متجهين نحو الطائرة الأخرى ، أقلّتنا سيارة أجرة ، حتى انتهينا إلى مركز كبير ، استقبلنا به أحد المشرفين ، و الذي شرح لنا عن الرحلة و عن المناطق المقصود زيارتها و عن مدة الجولة ، و من ثم اصطحبنا إلى الطائرة المروحية التي كان طيّارها يجلس داخلها مستعداً ، صعدنا إليها ، و بدأ العد حتى أقلعَت بنا نحو السماء ..

كنّا متوترين كل التوتر ، حتى أنني بدأت أتصبّب عرقاً ، نظرت إلى أسيل و التي كانت ترتجف يداها ، فأمسكتهما

و رحت أطمئنها ، أما نوح فكان يعبث برباط حذاءه ، قلت متذمراً بصوت خفيض:

- أهذا وقت الرباط ؟؟

قال بينما هو منهمك :

- انتظر ، هذا الرباط قصير جداً

ضربت كفّي بوجهي ، بينما كتمَت أسيل ضحكتها و عادَت لتوترها ، أشحت بوجهي ناظراً إلى موقعنا ، لأرانا قد غدونا فوق محيط ، سنحتاج وقتاً حتى نصل إلى القطب الجنوبي

في هذه الفترة استقرّت حالتنا و بدأنا نشعر بالراحة ، ما دفعني لأدير بصري هنا و هناك ، معدّاً الخطة في رأسي

كانت هناك عصاً حديدية راقدة على الأرض ، هذه هي .. سأضرب بها رأس الطيّار و أفقده وعيه ، و من ثم أقود الطائرة مكانه ، لم يحن الوقت بعد ، لذا وضعت رأسي على كتف أسيل و حاوطتها بذراعي ، كانت تجلس جانبي على اليمين ، و أما نوح فكان على المقعد الثاني خلفنا ، قالت

و هي تمسك يدي اليسرى و تعبث بأصابعها :

- أتظن أننا سننجح يا يونس ؟

- لا أدري يا أسيل ، لا أدري

- حسناً ، لعلّنا نستطيع رؤية الأرض الثانية ، و نكون من البشر القلائل الذين رأوها

- هذا صحيح ، أوّل ما سأفعله حينما نصل إلى هناك ، هو كتابة اسمي و اسمكِ على الأرض

- و أنا أوّل ما سأقوم به ، هو تقبيلكَ هناك

- سنسمّيها " قبلة الأرض الثانية "

- أو " قبلة النجاح "

_ أو " قبلة السلامة "

- أو " قبلة الخلود "

- أو " القبلة النارية "

- القبلة النارية ؟؟

- نعم ، لأنني سأقبّلكِ قبلة نارية من قوّتها

- إذاً ، و أنا سأسمّيها " قبلة النكد "

- انتظري ، لا تقولي لي أنكِ سـ..

- نعم نعم ، هذا صحيح ، سأقبّلكَ قبلة النكد و أبدأ نكدي هناك

رفعت رأسي عن كتفها و نظرت إليها متوسلاً :

- أسيل ، أسّولتي .. أتوسل إليكِ دعي نكدكِ هنا ، و اعتبرينا في شهر عطلة من الشجار

قالت بطفولية مرحة :

- امممم ، حسناً سأفكّر بالأمر

قال نوح :

- آسف لمقاطعة حديثكما ، و لكنّنا وصلنا

نظرنا بسرعة من النافذة ، فشاهدنا بداية القارة الجليدية ، المليئة بالثلوج .. و لا شيء غيرها .. كأنّها قطعة ثلج كبيرة

قالت أسيل :

- بدأت أشعر بالبرد

التقطت حقيبة كانت بين قدميّ ، و أخرجت منها معطفاً وردياً داخله مبطّن بالفرو ، و ألبستها إياه .. رحت أنتظر حتى نصل إلى أقرب منطقة من الجدار الجليدي ، قال نوح هامساً :

- أأنت جاهز يا يونس ؟

- نعم ، ماذا عنك ؟

- أنا على أتمّ الاستعداد

قالت أسيل :

- ماذا أفعل أنا ؟

أجبتها :

- شاهدي و حسب ، ليس هنالك ما تقومين به

- لكنّني أخاف أن يحدث لك مكروه

- لا تقلقي ، لن يحدث شيء نحن ثلاثة ضد واحد

- و ماذا إن ضغط الطيّار شيئاً دون قصده ، فتسقط بنا الطائرة ؟

- من الممكن أن يحدث ، يكون عندها قد جاء أجلنا

- و ماذا لو ضغط زرّاً يتصل مع برج المراقبة ليبلغهم عنّا ؟

- أسيل ، أرجوكِ كفى مبالغة

- حسناً ، سأصمت

قال نوح و هو ينكزني :

- يونس !! لقد وصلنا إلى أقرب نقطة

قلت له باستجابة :

- هيّا بنا

ارتميت على العصا الحديدية و أمسكت بها ، و حينما جئت أرفعها كانت الصدمة

- ماذا!!

لم ترتفع ، بل كانت ملتصقة بالأرض ، كان الطيّار حينها يتعارك مع نوح و هو يحاول تثبيت الطائرة و عدم اختلال توازنها ، نظرت بسرعة حولي لعلّني أجد شيئاً غيرها فقالت أسيل و هي ترمي شيئاً :

- يونس خذ هذا المشط

التقطته من يدها و لم أفكر أبداً بالأمر ، فأسرعت و ضربت الحارس على قفاه فسقط مغميّاً عليه ، أبعد نوح جسد الطيّار و أخذت مكانه خلف المقود

أمسكت به و حاولت توجيهه ، لكن المركبة كانت تسقط نزولاً :

- لا أستطيع تحريك المقود !!

صاح نوح :

- حاول توجيه المقود للأعلى

فعلت مثلما قال و نجحت بذلك بصعوبة بالغة ، ما أعاد للطائرة توازنها .. قالت أسيل :

- لقد نجحنا !!

قلت لها :

- أمامنا عقبات كثيرة ، انتظري و حسب

و من ثم خطر لي سؤال منطقيّ :

- أسيل

- نعم

- هل أفقدتُ وعي الطيّار بمشط ؟

- مشط حديدي

- مشط حديدي !! و لماذا تحملين شيئاً غريباً كهذا

- للطوارئ

قال نوح متعجباً :

- طوارئ ؟؟

أجبته ببرود :

- لقد فهمت عليها ، أحياناً أزعجها في الطريق ، فتخرج شيئاً لا أنتبه إليه و تضربني به على رأسي ، لأصرخ ألماً الآن عرفت هوية هذا السلاح السرّي

قال نوح :

- أنتما زوجان غريبان حقاً

رددت بينما أناظر المساحات الثلجية الممتدة على مرأى البصر :

- لم ترَ شيئاً بعد ..

أوليمبا

يكاد صدري لا يستطيع التنفس

يكاد نبض الحياة يموت في عينيّ

يكاد صوت الذكرى يتقطّع عن أذنيّ

الشمع المذاب البارد يحيط بجسدي .. أصبح عليّ كزيّ تغطيني طبقة كاملة منه ، حتى الرقبة و بعض الوجه ..

أجد صعوبة في التنفس ، خاصة و أن الحرارة لا تزال بسبب اللوح الحديديّ المثبّت فوقي .. أشعر بالاختناق ، بالحروق ، بعجزي عن الحركة بسبب القيد الشمعي الذي يأسرني ، بقع منه راقدة على جفني و بعض منه على شفتيّ و قرب أنفي .. كلما انطفأت الشموع و خمدَت نارها ، أشعلوها مرة أخرى ، و هي لا تزال حتى لحظتي هذه تضيء و تلقي بشمعها المتناثر فوقي هنا و هناك ، لا تزال الحرارة تزداد

ليتني أستطيع قتل نفسي ، فالانتحار شرف كبير لي ..

يريدونني الإفصاح عن موقعهم ، لكنّي لن أفعل ، هذا مستحيل .. لن أطفأ أملنا الوحيد ، سأنتظر و أصبر فقط و ليحصل ما سيحصل ..

نوح

قاد بنا يونس فترة طويلة ، حتى وصلنا إلى ما يشبه المعسكر أمرونا بالتوقف و النزول .. هبط يونس بالطائرة و نزل منها متحدثاً مع أحد رجال الجيش المسلّح ، و من ثم عاد إلى الطائرة و أخذ من أسيل تصريح الدخول ، و لحسن حظنا لم يشكّ بنا الحارس و لم يلاحظ زور التصريح

عاد يونس و جلس مكانه مقلعاً متابعاً طريقه .. و أطلق صرخة الانتصار ، قالت أسيل التي كانت تجلس بجانبه :

- لو قام بتفتيش الطائرة و رأى الطيّار فاقد الوعي ، لكنّا في مصيبة الآن

وافقها يونس الرأي ، و من ثم قال لي :

- بالمناسبة ، أين الطيّار يا نوح ؟

- وضعته في المقاعد الخلفية

- قيّده ، قد يستيقظ و يقوم بتسبيب بعض المشاكل

أومأت برأسي إيجاباً ، و استدرت أنظر إلى جسد الطيّار

و من ثم جلبت حبلاً و رحت أقيده .. و عندما وضعت يدي على معصمه ، توقفت قليلاً ، وضعت يدي على رقبته و من بعدها على صدره ، قرب فمه و أنفه.. و صحت بصوت مرتعش :

- يونس !!

- ماذا ؟ هل هناك خطب ؟

- الطيّار !!

- ما خطبه ، هل استفاق ؟

- **إنّه ميت**

التفت الزوجين إليّ بسرعة ، و قالت أسيل بقلق :

- هل تمزح ؟

- لا ، لقد تأكدت

قال يونس بوجه شاحب :

- هل قمتُ **بقتله** ؟

أدارت أسيل بصرها إليه و بصراخ قالت :

- بالطبع لا **!!!** أنا رأيته بعدما قمت بضربه ، ارتطم رأسه بقوة بلوحة التحكم

- و ما الفرق ؟ لقد تسبّبت بوفاة إنسان بريء ، ربما لديه عائلة و أطفال و زوجة ينتظرونه في المنزل

قلت مواسياً :

- كفى ، لقد حدث ما حدث .. علينا إكمال ما بدأناه

صمت الجميع ، ببنما رحت أعدّل من وضع جثة الطيّار **الميت** ، الذي بدأ يتخشّب جسده و يشحب لونه ، كنّا لا نزال بعيدين عن الجدار ..

نظرت إلى يونس أتأمّله متسائلاً في نفسي ، ما شعور المرء حينما يقتل عن غير قصد ؟ أو حينما يقتل إنساناً بشكل عام ، ما شعوره و هو قد أفنى وعياً من الوجود ؟ و أخرج روحاً من جسدها ، كانت تعيش مثله ، و لها أحلام و آمال

و ذكريات .. شعور قاسٍ على الأرجح أو من المؤكد ..

يا ترى ، ماذا يفكر الآن ؟ ما الذي يجول بخلده و ما الإحساس المعتلي مشاعره ؟

الإنسان الذي لم يتجرّد من إنسانيته ، بالتأكيد لا ينام مرتاحاً و قد أزهق نفس شخص ما .. و لا يهنأ بطعامه و لا بشرابه فقد لوّث يديه و روحه بالإثم العظيم ، و أجرم في حق بني الإنسان

كانت أسيل تكلّمه بصوت غير مسموع ، كأن ذرّات الهواء خجلَت من حملها كلمات عليّ أن لا أسمعها .. ففي هكذا موقف و حادث ، لن يكون للكلمات الأثر البالغ و الشافي ، لكنّني أراها تربّت على كتفه و يده . بدا حزيناً أو مصدوماً بشكل أدق ، لربما يتمنى لو لم يأتِ و لم يخطّط لهذه المغامرة من الأساس ، لجرَت الحياة كما هي بهدوء و سلام و ما كان ذلك الطيّار المسكين **جثة** هامدة الآن

قال أخيراً بعد فترة طويلة من الصمت :

- لقد وصلنا

نظرنا نحو الخارج ، و صدمنا بمنظر شهقَت له أفواهنا الفاغرة ، و تخبّطَت أنفاسنا و ازدادت نبضات قلوبنا من عظمته . شعرت بشعر جسدي يقف مهابة لما أراه

كان أمامنا **جدار** ضخم ، بل عملاق يمتدّ على مرأى العين من الجانبين .. بارتفاع شاهق **كأنّه يحمل السماء** ..

كان من جليد كما هو واضح ، و اتضحَ سبب تسميته بـ**«الجدار الجليديّ»**

مرّت دقائق و نحن نتأمّل هذا الجدار العملاق ، و الذي لم نسمع عنه إطلاقاً .. لا في الأخبار و لا في المدرسة و لا الجرائد

هبط يونس بالطائرة و خرجنا منها بسرعة ، كنّا كالنمل أمام هذا الشيء .. من المستحيل أن يكون جداراً عادياً .. فكما لخلقته عظمة كهذه ، يجب أن يكون له دور عظيم كذلك .. قال يونس بعينين مدهوشتين :

- أمضيت حياتي أحدّث الخَلق عن الأرض و جدارها المحيط بها و عظمته .. لكن هذه مرّتي الأولى التي أراه فيها متجلٍّ أمامي ، الحديث عن الشيء ، ليس كرؤيته حقاً

قالت أسيل و هي تجيل بنظرها متأمّلةً :

- حقاً إنّه أكبر مما تصورت ، كيف لم يدرّسونا عنه أبداً

قلت آخذاً نفساً منعشاً من المكان :

- لابد أننا محظوظون جداً لرؤية **نهاية الأرض**

يونس و هو يقترب منه رويداً رويداً :

- و محظوظون أكثر إن عبرنا إلى الأرض الثانية

وصل إلى الجدار و وضع يده عليه يلتمسه :

- بارد جداً

لحقَت به أسيل و شاركته الفعل :

- كما أنّه صلب ، كما يبدو من الخارج

قلت لهما بشرود :

- انتظروا قليلاً **!!**

يونس و هو يستدير و ينظر نحوي :

- ماذا ؟

قلت و أنا أدرك الأمر :

- **كيف سنعبر هذا الجدار !!**

صُدم يونس كأّنه تذكّر شيئاً قد نسيه ، و نظر إلى أسيل قائلاً:

- لقد نسيت التفكير بشأنه

- ماذا **!!**

قلت له بعد لحظات :

- ماذا لو ارتفعنا بالطائرة و عبرنا من فوقه ؟

- و من قال لك أن الأمر بهذه السهولة

- لم أفهم ؟

- الجدار يمتدّ إلى مساحة هائلة ، أيّ أنّنا لو ارتفعنا بالطائرة و مشينا فوقه ، فلن نصل إلى نهايته مهما مشينا

- و كيف سنعبر بهذه الحالة ؟

- لا أدري

- لا تدري !؟ أتمزح معي

الفصل الخامس

أوليمبا

أنا بأسوأ حال ، أكاد أموت .. رحت أحاول الصراخ

و الصراخ .. لكن فمي كان مكمّماً .. الشمع غطّاني حتى بقي أنفي فقط ، لأتنفس به ، أنا مكفّن بكفن شمعيّ ..

الشموع قد خمدَت نارها و انطفأَت لكن الحرارة لا تزال كما هي بسبب اللوح الحديديّ ، أشعر كأنّني أختنق و لا أموت ، هذا صعب حقاً !!

أن تبقى على حالك هذا دون أن ينقضي أجلك فترتاح ، يبدو أن روحي عالقة و متشبّثة بجسدي هذا .. لا تريد فراقه أبداً

لا أرى شيئاً سوى ظلام جفنيّ ، فعينيّ مغطاة بالشمع كسائر جسدي ، لو أشعلوا الشمع مرة أخرى فلن أبقى حياً هذا مؤكد ستغطّيني طبقات أخرى و سأختنق لا محالة

ليت الرب ينقذني ، ليته يمدّ لي يد المساعدة و ينتشلني من وسط آلامي أيها **الرب !!** أين أنت ، إن كنت تسمعني فقدّم لي الاستجابة

و ساعدني .. فلا يعلم أحد بعذابي غيرك .. أشفق عليّ !!

سمعت صوت خطوات تقترب منّي حتى توقفت بجانب الحوض ، انتُزع اللوح من فوقي و باغتتني كميّات و كميّات من الهواء المنعش ، كأن تكون داخل قبرك و تقوم إلى الحياة من جديد .. عادَت لي روحي على الرغم من جسدي المقيّد بهذه المادة المقيتة

ضرب الحارس بيده على الشمع ، فتكسّر و تناثر عنّي هنا

و هناك ، بقيَت بعض القطع الملتصقة بجسدي ، ما أعطى للحارس فقرة تسلية و ترفيه ، فراح ينزع تلك القطع بقوة عن جلدي فأصرخ مع كل قطعة ، كأنّه يقتلع شعري من مكانه ..

بقيَ على حاله حتى انتهى و فرغ من عمله ، فجرّني _ كالعادة _ حتى ذهبنا إلى غرفة أخرى بعد عبورنا ممرات كثيرة بجدران متفحّمة ضيّقة مهترئة ، وضعني على الحائط

و قيّدني بسلاسل تشدّ على أطرافي الأربعة ، و أخذ سوطاً بيده و قال لي مع ابتسامة قبيحة :

- **سأريك الجحيم**

أغمضت عينيّ ببطء مستعدّاً للضربات القاتلة التي سيطبعها السوط على جلدي ، كنت متيقناً من أن صراخي سيجول أرجاء القصر

لم تمرّ سوى لحظات معدودة حتى شعرت بالسوط يشقّ لحمي ، صدح صوت صرختي في الأرجاء و راح يتردّد صداه ، و جرَت الضربة الثانية مع صوت السوط المميز

و الذي كان كصاعقة رعدية تضرب عظامي ، و استمرّ على حاله ينهش بجلدي .. كانت روحي مع كل ضربة تصعد إلى حلقومي تكاد تغادر و تعود مرة أخرى ، طوال جَلدي كان الحارس يرمي السِباب و الشتائم ، و يزيد من قوة الضربة ، ليتني أعود لغرفة الحرارة ، ليتني ليتني

أسيل

أجلس على الثلج أناظر يونس يروح و يجيء منذ ساعات

فكرة عدم اجتيازنا هذا الجدار أحبطتنا ..

كان نوح في الطائرة منذ ساعة يفعل شيئاً ما ، و الشمس راحت تقترب من المغيب .. شعاع الشمس هنا لا فائدة منه سوى الضوء .. فالبرد يطغى على كل شيء حتى لتغدو حرارة الشمس غير موجودة

قمت واقفة بعد أن شعرت بجسدي يؤلمني من برد الثلوج جاء يونس نحوي و ركع على ركبتيه ينفض عن ملابسي حبّات الثلج العالقة بها ، قلت و أنا أعبث بشعره بأناملي :

- ألم تصل إلى حل ؟

- أعرف معلومات كثيرة عن هذا الجدار ، لكن كلّها تفيد باستحالة العبور من فوقه أو الحفر فيه

- أنا حقاً محبطة ، و أظن أننا لن نستطيع العبور أبداً

نظر إليّ بسرعة ، و نهض قائلاً كأنه تذكر شيئاً :

- انتظري !! بل يمكننا ، بالتأكيد هناك سر في هذا الجدار

- و كيف استنتجت ذلك ؟

- ألم تسألي نفسكِ ، كيف عبر عبدالله اللورداني إلى الأرض الثانية ؟؟

- أوه ، نعم ، لقد نسيت .. بما أنّه عبر إلى هناك فهذا يعني اجتيازه للجدار بطريقة ما

نظر يونس بحماسة إلى الطائرة ، و اتجه إليها مهرولاً .. دلف إليها لبضع ثوان و من ثم خرج حاملاً لفافة بيده ، وصل إليّ و فرد اللفافة على قطعة قماش وضعها على الثلج كي لا يبلّلها .. كانت خريطة عبدالله اللورداني ، و من ثم طالعها لدقائق و أشار إلى مكان فيها و قال بصيحة :

- ها هو !!

قلت و أنا أنظر إلى موضع إصبعه :

- ما هذا ؟

- رسم عبدالله اللورداني شيئاً هنا عند الجدار ، و الواضح من الرسم أنّه نفق ما

- أتعني أن عبدالله عبر من هنا من خلال نفق ؟

- لا إجابة سوى تلك

- لكن ، أليس امتداد الجدار من الجليد لكبير جداً ، و قلتَ مهما مشينا فوقه لن نصل نهايته .. هذا يعني و إن مشينا داخله فلن نصل

نظر إليّ بتفكّر ، و عاود النظر إلى الخريطة :

- هذا صحيح ، كيف لذلك أن يحصل !

نوح

فتحت عينيّ لأجد نفسي في الطائرة ، يبدو أنني غفوت بسبب التعب عن غير قصد .. لقد كانت رحلتنا طويلة من مدينتنا إلى هنا .. بالأخص أننا لم ننم في الطائرة ، نظرت إلى الخارج لأرى الزوجين يتحاوران أمام خريطة عبدالله ، لا أدري ما الخطب .. فيبدوين محتارين و منهمكين بالحديث و التفكير

كدت أن أخرج لولا تذكري لجثة الطيّار ، يجب علينا دفنه سريعاً كيلا تتنشأ له رائحة نتنة .. انتقلت برشاقة إلى المقاعد الخلفية و نقلت جثته إلى أمام المقاعد ، كان جسده قد شحب لونه و بانَ على بدنه خلوّه من الحياة و توقف أعضاءه

و جريان دمه .. فتحت باب الطائرة و حملته على ظهري خارجاً ، كان ثقيلاً بعض الشيء ، كم وزنه بحق الجحيم !!

ابتعدت قليلاً عن مكاننا و ألقيت بجثته بالقرب منّي ، و بدأت بعدها الحفر في الثلج .. حتى بلغ عمقها قرابة المتر .. كان من الصعب الحفر هنا ، فالثلج قاسٍ و البرد ينهش بأصابع يدي ، فغدَت حمراء كالدم .. توقفت هنا و ارتأيت دفنه بهذا العمق ، فأنزلته فيها و غطّيته بالثلج .. كانت قد ناسبَت جسده قليلاً طولاً و عرضاً ..

مشيت إلى الزوج المخبول ، كانا لا يزالان يتناقشان ، سألتهما:

- ما الخطب ؟؟

التفت يونس إليّ و قال بانزعاج :

- جدك عبر هذا الجدار ، و رسم شيئاً في الخريطة يشبه النفق ، لكن كيف سنعبر خلال هذا النفق و الجدار أصلاً له امتداد ضخم

أومأت برأسي متفهّماً ، و فكرت بالأمر هنيهة و من ثم أجبت :

- قد يكون النفق بوابة للانتقال الآني

- لو كانت موجودة لحدّثنا عنها جدّك في كتبه ، فستكون شيئاً مذهلاً بالنسبة له

- معك حق ، لكن تذكر يا يونس أن الكتب التي تركها ، أغلبها بصفحات محاها الزمن

- لو سلّمنا لكلامك و افترضنا وجود بوابة للانتقال اللحظي أو الآني ، فكيف سنجدها ؟

تدخّلت أسيل متسائلة :

- ما هو الانتقال الآني أو اللحظي ؟

أجابها يونس :

- مجرد نظرية علمية ، و هي أنّ الجسم قد نستطيع تفكيك ذرّاته و نقلها إلى مكان آخر عبر جهاز معيّن ، و من ثم يقوم الجهاز على الجهة المقابلة بتجميع الذرّات و إعادة الجسم إلى شكله الأصلي ، و هناك من قال بوجود « الثقب الدودي » و هو ثقب صغير جداً جداً إذا دخله الكترون مثلاً ، فإنه سيعبر إلى مكان آخر بسرعة هائلة ، لدرجة أنّه قد يكون في مكانه أمام الثقب و في ذات الوقت في المكان الآخر

نظرَت أسيل إليه باهتمام و قالت له بتساؤل طفوليّ :

- أهي موجودة ؟ الثقوب الدودية ؟

- ليس حقاً ، فلم تُرصد و لم تُرى ، هي فقط مجرّد نظريات تخيّلية ، و أنا في الحقيقة لست مؤمناً بوجود شيء من وحيّ خيال البشر

أنا بنفاد صبر :

- دعونا من حكاية الثقب الدودي هذا و التي لم أفهم شيئاً منها ، السؤال الأجدر بالبحث عن إجابة له هو : كيف

سنجد نفقاً بجدار **يحيط بالأرض** ؟؟ في أيّ جزء منه سنبحث ؟؟

تقدّم يونس نحو الخريطة و جثا عندها ، و راح يطالعها بنهم .. و من ثم أشار بيده قائلاً :

- أولاً : النفق رسمه جدّك في المنطقة هذه و التي يطلق عليها أصحاب كروية الأرض « القطب الجنوبي » أيّ أن النفق سيكون في هذه المنطقة التي نحن فيها .. و مع ذلك فهي كبيرة جداً و لن نستطيع البحث فيها كلّها .. لذا إذا تمعّنا في النفق المرسوم ، سنجد أمامه صخرة كبيرة على شكل نصف كرة ، أيّ كقبة .. و هذه علامة واضحة نستطيع البحث عنها لإيجاد النفق

قالت أسيل ناظرة في الأفق :

- علينا البدء و عدم التذمّر ، قد يكون قريباً منّا

وافقها يونس و أشار لي بالذهاب يسار الجدار ، و سيذهب هو مع زوجته يمينه :

- سنعود إلى هنا على تمام ساعة من الآن

انطلقنا ، كلّ في جهة .. فمشيت موازياً الجدار الضخم ، مبتعداً عن الطائرة المروحية ، و التي ظهرت عليها بعض علامات التجمّد أو البرودة الشديدة على سطحها الأسود ..

سرت مستقيماً ، و لم تظهر أمامي سوى المسطّحات الثلجية .. مع بعض التغيّر في تضاريس الطريق ، فمرّة أهبط في وادٍ صغير قليل العمق ، و مرّة أصعد مرتَفعاً قليل الارتفاع ..

أيّ كانت تشبه الانحناءات لا أكثر ، كنت أرى بعض الأحجار متباينة الأحجام و الأشكال ، لكن لم تكن أيّاً منها تشبه التي في الخريطة ، فكانت إمّا متكسّرة

أو متخذة شكلاً عشوائياً لا يشبه شكلاً محدّداً ، كانت شمس السماء قد قاربَت على الغروب ، و بعض من زرقة سقف الدنيا بدأ يخفت ضوؤه ، البرد كان يشتدّ مع تقدّمنا في النهار

و اقترابنا من الليل .. لحسن حظّنا أن جلبنا خياماً و أكياس نوم

يا ترى كيف الطقس في الأرض الثانية ؟ حارّ ، أم بارد ، أم معتدل ؟ .. و كيف الحياة هناك ، أهناك طعام أم لا يحتاجون الغذاء ، أيشربون أم لا يحتاجون الماء ، أيَلدون أم لا يحتاجون الحمل .. أم أيضاً لا يتزاوجون من الأساس .. و ما أدراني

أصلاً أن مخلوقات عاقلة تعيش هناك ، قد تكون حيوانات أو وحوش ، أخرجت بحرص علبة سجائر ، و نظرت يمنة

و يسرة لألّا يكون يونس قد عاد مع زوجه و اقتربا منّي

وضعت سيجارة على طرفي ثغري و أشعلتها بولّاعة كانت في جيبي ، لا يدري أحد بتدخيني ، كما أنني لا أحبّ أن يعرف أحد ..

يونس

بعد أن افترقنا ، أمسكت بيد أسيل و قلت لها :

- أتدرين أنّني أمسك يدكِ الآن على حافّة الأرض ؟

ردّت باسمة :

- نعم أدري ، و أتدري أنّ أسيل ستقبّلك على حافّة الأرض ؟

قالَتها ، و أسرعَت واقفة أمامي ، محاولةً تقبيلي بفمها ، لكن بعد محاولات عدة منها ، لم يصل فمها إلى وجهي مهما حاولت فغضبَت و قالت :

- لماذا لا تنخفض قليلاً ؟؟

- لا أدري ، الطقس جميل من هنا ، كيف الطقس عندكِ يا بطريقة ؟

- بطريقة ؟؟ ، أترى طولي كطول البطريق ؟

- نعم ، هكذا تقريباً

بملامح غاضبة ، رفعَت يدها و أمسكَت شعري و شدَّته بكلّ قوتها ، ما أنزل رأسي قسراً نحوها ، فقبّلَت فمي و تلاقت الثغور للحظات ، و من ثم استدارَت بعد أن سدّدَت صفعة على خدّي قائلة :

- هذه الصفعة لمآثرتك تنفيذ الأوامر

و مشَت بقِصرها المضحك مبتعدة ، قلت في نفسي متبّسماً :
حتى في مشيتها تشبه البطريق

جريت لاحقاً بها ، و أكملنا مشينا حتى استحال الطريق إلى هضبة ، صعدناها بعصوبة بعض الشيء ، فالثلج أعاق حركتنا قليلاً .. و ما أن اعتليناها حتى جلسنا نلتقط أنفاسنا .. قالت أسيل بعد برهة من الزمن :

- بطريقة قال

أجبتها ضاحكاً و قد أمسكت يدها :

- أمازلتِ غاضبة

- نعم ، فأنت تناديـنـ..

قاطعتها :

- يا بطريقتي

و ضحكت حامياً وجهي بيديّ من ضرباتها المنزعجة :

- أنت زوج أحمق

- و أنتِ زوجة متبطرقة حمقاء

زفرَت و خرج بخار من فمها :

- يبدو لقب البطريقة هذا سيلتصق بي بقية عمري

هززت رأسي بشي، من العفوية :

- نعم ، نعم ، بطريقة مسكينة

- اصمت يا برج إيڤل

أشحت بوجهي ناظراً في الأفق :

- أسيل

- نعم ؟

- انظري هناك

و أشرت بيديّ إلى خيمة منصوبة في أسفل الهضبة ، ردَّت بتعجّب :

- يبدو أنّ أحداً هناك

- و ماذا لو كانت شرطة !!

رمقتني بنظرة خائفة ، فتأمّلنا الخيمة البيضاء ، و التي بدَت بعد التمعّن قديمة الطراز ، و مع مرور الوقت دون حدوث شيء

و دون رؤية حركة تذكر ، تحلّيت بالشجاعة و نهضت واقفاً :

- إلى أين تذهب ؟؟

- سأهبط و أكتشف سرّ هذه الخيمة

- أأنت مجنون !! ماذا لو كان فيها أحد من الشرطة و ...

- دعينا نجرّب ، فعلينا الاستمرار بالتقدّم للعبور من هذا الجدار ابقي هنا و لو حدث مكروه لي فأبلغي نوح

- لا ، انتظر ، من المستحيل أن تذهب وحدك و أبقى أنا .. سآتي معك و ليحدث ما سيحدث

وافقت على مجيئها معي ، و هبطنا بتروٍ بالغ ، تعثّرنا قليلاً

و كدنا أن نسقط ، لكن تمالكنا أنفسنا و استعدنا توازننا

فأكملنا حتى وصلنا إلى الخيمة .. كانت كبيرة الحجم ، قديمة الطراز بشكل واضح .. كان بابها مفتوحاً ، فدلفنا بحذر

و لحسن حظنا لم يكن فيها أحد .. كانت مهجورة كما هو واضح منذ سنين ، فكانت فارغة إلا من بعض الأشياء الصغيرة كأكياس قمامة متجمّدة و دب قطبي و ...

نظرنا إلى بعضنا :

- **دب قطبي !!**

و بدأنا نجري هرباً ، إذ راح الدب يلاحقنا :

- ليتنا لم نتفحّص الخيمة ، قد نموت الآن

أمسكت بيد أسيل و قلت لها :

- لا تفلتي يدي مهما حصل ، دعينا نزيد من سرعتنا حتى يتعب الدب و يتركنا

وافقتني و بدأنا نفرغ كل قوانا في الجري ، ظللنا على حالنا دقائق معدودة ، و ما أن بدأ الدب يتباطأ حتى تعثّرَت أسيل

و سقطَت أرضاً .. توقفَت و ساعدتها على الوقوف ، و ما أن التفت لأرى الدب حتى ضربتني مخالبه أرضاً ، و ارتمى فوقي

كان يحاول عضّي فاتحاً شديقه عن آخرهما ، مكشّراً عن أنيابه الحادّة و نظرة الافتراس تعلو وجهه ، لم أكن أستطع سوى

إمساك رأسه بيديّ مقاوماً محاولاته عضّي ، كان ثائراً هائجاً ، بثقل جسده الضخم و الذي لم أستطع زحزحته من فوقي ..

كان جسدي يحاول التقاط أنفاسه من كثرة الجري ، و في ذات الوقت يقاوم دبّاً مفترساً ، راحَت أسيل تضربه على ظهره محاولةً إبعاده عنّي وسط صرخاتي أن تهرب ..

و عندما شعرت بقواي قد خارت خطر لي خاطر لعلّه ينقذنا :

صرخت بأسيل قائلاً أن تحاول إخراج سكين كان في جيبي .. اقتربَت أسيل بحرص منّي و الدب كامن فوق جسدي يصارعني متشوقاً لفريسته ..

استطاعَت سحب السكين و من ثم أمرتُها برميها إليّ ، لكن ما أن مرّت لحظات حتى صرخ الدب بملء شدقيه ، و ابتعد عن جسدي ناظراً خلفه .. بانَت أسيل من خلفه و قد طعنته ..

كشّر عن أنيابه و انتفض جارياً نحوها ، راحَت تجري فزعة

و قد رمَت بسكينها أرضاً لأتحرك من مكاني و ألتقطها مطلقاً قدميّ للريح ، كان قد اقترب منها و هي تصرخ باسمي

لن أدعك أيها الحيوان تقترب من زوجتي !! .. فأسرعت إليه و ارتميت فوق جسده الذي توقف محاولاً التخلّص منّي ..

طعنات سدّدتها في ظهره حتى رماني عنه .. كاد أن يهجم لولا أنّني ركضت باتجاهه و طعنته في رقبته حتى صرخ متألماً و سقط ميّتاً

هرعت لأسيل الواقفة :

- أأنتِ بخير ؟

جلسَت أرضاً ، و صدرها يعلو و يهبط جامدة ، حتى رأَت جبيني ينزف دماً :

- يونس !! أنت تنزف

وقفَت تتفحّص الجرح ، و تمسح عليه بيدها الرقيقة ، و من ثم أخرجَت بعض اللصقات الطبيّة واضعة إحداها على جبيني :

- لا بأس ، جرح بسيط و سيشفى سريعاً

- بطريقتي الطبيبة

قالت و قد انتهَت منزلة يديها و ممسكة بذراعي :

- لن نتقدّم أكثر ، يكفي ما واجهناه اليوم

- حسناً ، هيّا لنعد

أسيل

عدنا أدراجنا ، حتى وصلنا إلى طائرتنا .. و كان نوح في انتظارنا .. قال عندما رأى حالنا :

- ماذا حدث لكما !! كأنكما تشاجرتما مع دبّ يا رجل !!

قال يونس و هو يجلس :

- نعم ، هذا بالضبط ما حدث

- أتتكلم حقاً ؟ دب ؟

قلت و أنا أخرج خيمتنا من الطائرة :

- نعم ، لقد لاحقَنا دب و قتلناه

ردّ نوح مصدوماً :

- علينا العبور من هذا المكان في أقرب وقت ، فلا ندري ما قد يحدث بعد ما حصل لكما

قال يونس متذكراً :

- انتظرا !! لقد غفلنا عن أمر خطير !

نظرنا إليه متسائلين ، فأردف بسرعة و قد نهض واقفاً :

- لقد كنّا في رحلة مدتها بضع ساعات ، عندما ترى الشركة التي رتّبت رحلتنا ، أن طائرتها و طيّارها لم يعودا بعد مضي يوم كامل ، فلن يسكتوا و سيهرعون لإبلاغ السلطات

قلت بعد أن فهمت الأمر :

- أيّ أن الشرطة ستكون هنا في وقت قريب باحثة عنّا !!

- نعم ، فإن لم نجد النفق في أسرع وقت سيُقبض علينا

نظر يونس إلى السماء المظلمة هنيهة ، و قال بعدها :

- لقد حلّ الليل ، لن نجد النفق أبداً في هذا الظلام .. علينا اتخاذ حلّ آخر

ردّ نوح بتذمّر :

- و ماذا يمكن أن يكون ؟

- ملجأ أسفل الأرض

- ملجأ !!

- نعم ، سنبتعد عن الطائرة لأنهم قد يفتّشون المناطق القريبة من الطائرة ، و سنحفر في الأرض بضع أمتار ، و من ثم نحفر غرفة صغيرة تتّسع لنا بعض الوقت

- أتتلكم بجدية ؟

- طبعاً ، و هل عندك حلّ آخر

- و ماذا سنحفر يا فيهم زمانك ؟

- من ضمن معدّات التخييم التي أتيت بها ، جلبت معك مجرفة حديدية صغيرة ، ستفي بالغرض ، و سنستخدم الملاعق

- الثلج قاسٍ جداً هنا ، سنأخذ وقتاً طويلاً جداً في بضع أمتار فقط

- لا تقلق ، فكرت بهذه المشكلة كذلك .. ستسخّن أسيل قدراً من الماء و من ثم تسكبه على مكان حفرنا في الثلج ، فيذوب بدوره و يساعدنا أكثر على الحفر

- لست مقتنعاً بالفكرة

قلت و أنا أقترب من يونس الجالس و أعانقه من خلفه ، و أُحيط رقبته بكلتا يديّ :

- أنا مع زوجي مهما قال

قال يونس :

- هذا رائع ، بطريق يتعلّق بقمّة برج إيڤل

ردّ نوح :

- يا سلام ، لم أختر سوى عاشقين لأجيء بهما معي إلى هنا

قال يونس :

- لا رحلة جميلة بدوننا

فقلت مزيدة من شدّة عناقي :

- نحن الثنائي المرح

قال يونس ضاحكاً :

- بل ثنائي النكد

نهض يونس بعد أن ابتعدت عنه :

- قوموا إلى عملكم

قال نوح ناهضاً هو الآخر :

- سأذهب لأختار مكاناً بعيداً عن هنا و مناسباً

- حسناً ، سآتيك أنا بالمعدّات

فقلت بدوري :

- أما أنا سأعدّ قِدراً من الماء على نار الموقد المتنقل ..

نوح

مشيت قليلاً بين الثلوج لأصل مكاناً مناسباً للملجأ ، لست مقتنعاً بهذه الفكرة ، كنّا نستطيع مثلاً التحليق بالطائرة إلى أعلى الجدار الجليدي حتى تحطّ الطائرة أعلاه .. لكن يونس اختار فكرة الملجأ الصعبة تلك ، حسناً دعنا نحاول لا بأس ..

ابتعدت بما فيه الكفاية عن الطائرة و ارتأيت أن جميع المناطق تقريباً متشابهة ، فلا شيء أمامي كما تعرف سوى الثلج ..

جلست على إحدى الصخور منتظراً يونس .. كان عقرب الساعة يشير إلى الساعة الرابعة مساءاً ، حلَّ الليل بسرعة ..

هذا لأن الشمس في القطب الجنوبي تشرق ما بين الساعة السادسة و التاسعة ، و تغرب ما بين الساعة الثانية و النصف

و الخامسة و النصف ، بحسب موقع كل منطقة هنا .. فنحن على أطراف الأرض كما تعلم .. و المواقيت هنا مختلفة عن أيّ مكان آخر سوى أطراف الأرض الأخرى .. انتظرت دقائقاً معدودة ، حتى لاح طيف يونس من بعيد ، مشى و مشى

و ظللت أراقبه حتى اقترب و وصل .. أعطاني ملعقة كبيرة تستخدم لسكب الطعام من القدور ، و بدأ يحفر هو بالمجرفة

التي أتينا بها معنا ، كانت مجرفة صغيرة الحجم بعض الشيء عن المجرفة العادية ، لكنها تفي بالغرض .. كان الثلج ليّناً في البداية ثم ازداد قسوة و صلابة ، حفرنا شيئاً بسيطاً حتى جاءت أسيل و بيدها قِدر مملوء بالماء الساخن :

- تنحّيا جانباً لو سمحتما

و صبَّت الماء على موقع الحفر ، صدر صوت يشبه صوت انسكاب الماء على النار ، فجرّبنا الحفر و وجدنا الثلج قد ذاب بعض الشيء و خفّت قسوته ، ما ساعدنا و شجّعنا على إكمال الحفر .. قال يونس قبل أن تغادر أسيل :

- من أين جلبتِ الماء يا أسيل ؟

- وجدت بركة ماء قريبة

- هذا جيد ، سنشرب بعد أن ننتهي

قلت و أنا ألهث :

- لم نشرب أو نأكل شيئاً منذ أن وصلنا .. علينا أخذ استراحة لنجدّد قوانا

ردّ يونس و هو يكمل حفره :

- أتريد إمساكهم بنا ؟ قد تكون السلطات في القطب الجنوبي الآن يبحثون عنّا .. علينا إنهاء الحفر بأقصى ما يمكن

- لكن ..

قاطعني بحدّة :

- اعتبر نفسك صائماً

أكملنا الحفر و استمرّت أسيل على نفس المنوال ، تأتي بالماء المغلي و تسكبه و تذهب بين كل حين و حين ، أما نحن فوصلنا بالحفر إلى ما يقارب التسعة أمتار عامودياً ، و قد أخذ الأمر منا ما يقارب الساعتين ، جاء صوت أسيل من الأعلى :

- اصعدا ، لقد حضّرت الطعام

خرج يونس و خرجت وراءه ، و ما أن نظرنا حتى صُدمنا

قال يونس :

- إيندومي !!

قالت أسيل و هي تأكل :

- إنها لذيذة جداً في القطب الجنوبي

قال يونس :

- أتمزحين معي **!!** لم نأكل شيئاً طوال اليوم ، نحتاج لغذاء ينشّط أجسامنا ، و ليس معكرونة مجفّفة

- خذ ، هذا سردين معلّب

أخذ يونس العلبتين و ناولني إحداها ، و بدأنا بالأكل

كنّا نجلس بجانب الحفرة التي حفرناها على قطعة بيضاء من القماش وُضعَت عليها صحون الإيندومي و كؤوس من الماء

بعد لحظات تقدّم يونس من أسيل و سألها :

- أين حصّتكِ من علب السردين ؟

- لم أجلب سوى اثنتين ، سأكتفي بالإيندومي

جلس بجانبها ، و أخذ قطعة من علبته و قال لها :

- افتحي فمكِ

- قلت لك لا أحتا..

لم يدعها تكمل جملتها ، إذ أدخل قطعة السردين في فمها :

- لن أتناول شيئاً بدونكِ

- لكن لن تكفيك هكذ..

قاطعها رافعاً قطعة أخرى و قد أدخلها في فمها و شرع يمسح شفتيها بيده من أثر السردين :

- في العلبة قطعتين ، أكلت قطعتي و هذه قطعتكِ قسمتها نصفين و قد أصبحَت في معدتكِ البطريقية

شكرَته خجلة ، و أخذَت كأساً من البلاستيك يحوي ماء

و راحت تشربه بيدها :

- اشرب ، فلم تشرب طوال اليوم

بعد أن انتهى ، أخذ كأساً هو الآخر و راح يشربها :

- و أنتِ لم تشربِ شيئاً كذلك

قلت متذمّراً :

- و مَن سيشربني أنا ؟

قام يونس إليّ ضاحكاً و قد أخذ كأساً من الماء وضعها في فمي:

- سأشربك أنا أيها المسكين الأعزب

أسيل بصوت متذمّر :

- يونس !!

- نعم ؟

- أتشرب إنساناً غيري !!

ظهرَت على يونس ملامح الخوف و قد اقترب منها قائلاً :

- أنا فقط حاولـ..

قاطعته مبعدةً يديه عنها :

- ظننت عنايتك لا تمنحها إلا لي

- لكنّني كنت أمزح !!

- ما رأيك أن تتزوج فتاة غيري بحجة المزاح !!

- لقد أعطيتِ الأمر ردة فعل أكبر مما تستحق

- أتقصد أنّي لا أعرف كيف أميّز بين الأمور السخيفة و الكبيرة!!

صمت يونس ، فقالت له :

- لمَ لا ترد ؟

- لأنكِ في الواقع ، قلتِ الحقيقة

ضربَته على يده بمزاح و همّت بالنهوض ، و لكنه أجلسها :

- أتدرين أمراً ؟؟

- ماذا تريد الآن ؟

- كان على والديكِ تسميتكِ « نكد »

شهقَت أسيل مدهوشة :

- أتقصد أن اسمي لا يعجبك !!

- نعم ، كما ترون ، هذا معنى الاسم .. نكد و لا شيء غيره

يونس

انتهينا من طعامنا و عدت مع نوح لحفرنا ، بالمناسبة ، نقلنا جميع أغراضنا إلى هنا و تركنا الطائرة المروحية مكانها ، بعيدة عنّا ..

عادَت أسيل إلى تسخين الماء و جلبه إلينا لنسكبه على المكان الذي سنكمل حفرنا فيه ، كنّا قد بدأنا الحفر عرضاً ، لنصنع غرفة صغيرة نستطيع الجلوس فيها بضع ساعات ريثما تقوم الشرطة بالتفتيش في هذه المنطقة و ترحل .. لنعود بعدها للبحث عن النفق

كان الثلج يغدو ليّناً أكثر حينما تجري عليه المياه الساخنة

و هذه الحيلة أثبتَت جدارتها حينما سَهُل علينا الحفر

أصبحت ملعقة نوح منحنية قليلاً و قد خفتُ في الواقع من كسرها ، فسنكمل الحفر بشكل فرديّ أيّ نتناوب على المجرفة و هذا سيبطئ من عملية الحفر كثيراً

مرّ علينا من الوقت ثلاث ساعات أتممنا فيها المهمة و أكملنا الملجأ ، كنّا نستخدم حُفراً صنعناها في حائط النفق الأوليّ للصعود إلى الأعلى ، حيث أضع قدميّ كلٌّ في حفرة من

الجانبين و كذلك يديّ و أصعد متنقّلاً بين الحفر حتى أعلى النفق

أنزلنا جميع أغراضنا إلى الأسفل ، بما فيها الخيام و التي فتحنا واحدة منها فقط و هي الكبرى ، لأن الملجأ لم يتّسع للثانية إطلاقاً ..

مكثنا في الخيمة الصفراء قليلاً ، و من ثم قال نوح :

- أشعر بالنعاس الشديد

رددت عليه :

- معك حق ، فبعد الجهد الذي بذلناه اليوم ، سيكون النوم مكافأة جميلة عليه

قالت أسيل و هي تسند رأسها إلى كتفي :

- و ماذا لو حدث شيء في الخارج

فكرت في الأمر مليّاً و نطقت :

- على أحدنا البقاء مستيقظاً للحراسة و اثنين ينامان لساعتين و من ثم يوقظ أحد النائمين و يأخذ مكانه لساعتين و ينام الأول ، و نتناوب ..

وافقاني على الفكرة ، و اقترحت أن أبدأ بالحراسة أولاً

فأخرجنا أكياس النوم و راحت أسيل تغطّ في نوم عميق بعد أن اندسّت في الكيس ، و كذلك نوح في الطرف المقابل للخيمة مديراً ظهره لنا

بقيت أراقب أسيل النائمة لفترة من الزمن ، تصعد أنفاسها

و تخرج من أنفها ، و تنام بهدوء تام ، أما ما أفسد عليّ تأملي هو شخير نوح الذي كاد أن يصل إلى الأرض الثانية .. لو أن أحداً قد مرّ من فوقنا لسمع شخيره و كشفنا

وضعت يدي على خدّ أسيل و رحت أداعبه بهدوء و رقّة ، لقد تعبنا من اليوم الأول ، هل سنستطيع إكمال ما بدأناه يا ترى ؟ أم سنستسلم ..

البرد قارس هنا ، و قد بدأ جسدي يرتعش و أسناني تصطكّ ببعضها البعض .. أخرجت غطاءً غطّيت به نوح ، و أخرجت كيس نومي و أدخلت كيس نوم أسيل بداخله ، أيّ أن هذه البطريقة أصبحت داخل كيسيّ نوم .. و التقطت قبّعة صوفية ألبستها إياها فوق حجابها ، أصبحت تشبه البطاطا المسلوقة من حجمها .. ليتني أستطيع إشعال النار ، لكنها ستُحدِث مصيبة لو أشعلتها ، فالحرارة هي آخر شيء أتمناه في ملجأ من ثلج تحت

الأرض ، فما أن يذوب حتى ينهار فوق رؤوسنا ، و المرعب أننا في عمق جيّد من الأرض ، أسفل تسعة أمتار من الثلج ..

فلتأتي الشرطة و لتبحث عنّا و ترحل ، لقد مللت الأمر .. شعرت بنعاس شديد ، لكنّني قاومته و دفعته عنّي ، تزامن نعاسي مع إحساسي بحاجتي لإفراغ مثانتي .. ما دفعني للخروج من الملجأ ، كان الليل هادئ هنا ، و أطنان من الثلوج تغطّي كل شيء ، نظرت خلفي متأمّلاً ذلك الجدار الذي خضت لأجله جدالات و نقاشات لا حصر لها مع صغيري العقول

و المخدوعين ، ذلك الجدار الضخم الرائع .. الذي يحيط بالأرض قاطبة .

أوليمبا

ألف جلدة ، هذا عدد الجلدات التي ضربني إياها ، كان الحارس يتناوب مع حارس آخر لضربي ، استمرّا على تناوبهما يوماً كاملاً ، نزفت من الدماء ما لم أنزف قبلاً ، و غدا جلدي أحمراً أو أقرب للزرقة ..

لم أعد أشعر بالضرب ، لا ألم و لا وجع ، كأن جسدي فقدَ الإحساس و مات حسّ الألم لديه ، ما زلت أنزف دماءً غزيرة و الحارس بعد الضربة الألف توقف و بصق عليّ

فقدت وعيي عدة مرات ، تقلّبَت فيها روحي كثيراً ، فتارة تهمّ بالخروج و تارة تبقى صابرة

إنني أشعر بظمأ يقطّع أوصال جسدي ، لم أشرب شيئاً منذ فترة طويلة .. لكنّني لا أجرؤ على طلب المياه ، فأنا متأكد أنّه سيشربني مياهاً مغليّة .. لتذوب معدتي و أمعائي بدورها

لم يفعل شيئاً سوى أن جلس يلتقط أنفاسه محدّقاً بي ، علَت وجهه نظرة الموت ، و أنا أعرف نظرة الموت لو رأيتها ، قام من مقعده و جعل يفكّ قيدي حتى انتهى ، و راح يجرّني وراءه في ممرات عدّة ، حتى وصلنا إلى درج الغرفة الأولى

التي بقيت فيها سنيناً طوال تحت سطوة حرّها .. لكن لا بأس الحرّ أفضل من تابوت الشمع و السواط ، صعدنا و أنا أُجرّ كالبغال على الدرجات

و دلفنا إليها بعد فتح بابها ، قيّدني و ضربني على جسدي بقبضته كثيراً ، و من ثم رمقني بنظرة ساخرة و خرج

كان الحرّ هو ذاته الذي عهدته ، و الضوء الأصفر الذي يسطع من فوقي هو عينه .. كانت الأصفاد الحديدية شديدة الحرارة

و السخونة ، حتى شعرت بها تخترق جلدي تذيبه ، مرّت بضع لحظات شعرت برأسي يكاد ينفجر ، و راح دمي يغلي كأنه الماء فوق نار موقد ..

يونس

رحنا نتناوب فيما بيننا طوال الليل ، حتى نمت نومتي الأخيرة و فتحت عينيّ على هزّات جسدي و صوت أسيل يردّد اسمي :

- يونس ، يونس !!

أنا بصوت لا زال يتأرجح بين النوم و اليقظة :

- نعم ، أسيل

- لقد وصلت الشرطة !!

قمت بسرعة من مرقدي و نظرت حولي ، لأجد أسيلاً تجلس أمامي و نوح ليس في الملجأ :

- أين نوح ؟؟

- صعد النفق يستطلع المكان ، ينظر من أسفل باب الملجأ ، تلك الصخرة التي أغلقنا النفق بها

كانت أصوات كثيرة متباينة تصدح في الخارج ، صوت طائرات و سيّارات على ما يبدو ، و رجال و نساء ، و كلاب

- منذ متى قد جاؤوا ؟؟

- كنت نائمة ، فسمعت أصواتاً غريبة .. ما دفعني للاستيقاظ و من بعدها إيقاظك بعد أن علمت الأمر

أومأت برأسي ، و نظرت لساعة يدي و التي كان يشير عقربها إلى الثامنة صباحاً .. ظهر نوح و قد أسرع يقول :

- هناك الكثير منهم ، و قد فتّشوا منطقتنا و اتجه بعضهم إلى منطقتنا الأولى و التي مكثَت فيها الطائرة

لم تمرّ سوى ثوان معدودة حتى سمعنا أحد الرجال يتلقّى أمراً بأن يتجه و من معه نحو المنطقة التي تركناها ، لأنهم وجدوا الطائرة ، سمعنا صوت الرجال يخطون فوقنا و من ثم :

- يا إلهي !!

كانت بضع جزيئات من الثلج قد تساقطت أرضاً من سقف الملجأ ، بعد أن عبرَت من فوقنا سيارات ثلاث

بدأت حبّات الثلج تتابع وراء بعضها البعض ، ما دفعنا للإسراع إلى نفق الخروج .. صعدت أسيل و بعدها أنا و بعدي نوح

بعد أن استطلعنا المكان و تأكدنا من ابتعادهم ، قلت بسرعة :

- الملجأ قد انهار بالكامل ، و لحسن حظّنا أن انهياره كان بطيئاً و ليس دفعة واحدة ، فاستطعنا إخراج أغراضنا معنا علينا الآن الذهاب بالاتجاه المعاكس لعلّنا نجد ملجأ آخراً أو كهفاً نستطيع المكوث فيه حتى نأمن على أنفسنا

قلتها و بدأنا الجري ، أصوات الشرطة لا تزال تصدح في المكان ، بما فيها صرخاتهم و حركة الطائرات المروحية

و السيارات ، شدّة البرد قد انخفضت قليلاً كما هو واضح من الطقس ، و الشمس كانت غير ظاهرة للعين ، غير أنّ بعض خطوط من أشعّتها ارتسمت على صفحة السماء التي غدَت صافية كلّ الصفوّ و جميلة شديدة الزرقة ، ليس هنالك عصافير تغرّد و تنشد من بعض أناشيدها الرنّانة كعادة الصباح في بلادنا لكن هناك قمم من الثلج تلقي عليك التحيّة و جدار من الجليد يتبسّم لك حين رؤيته

وسط هذه البيئة ، و بجانب الجدار ، كنّا قد توقفنا بعد ساعتين للتقاط أنفاسنا المهدورة ، جلس نوح على الأرض و استلقى على ظهره ، أما أسيل فعندما حاولت الجلوس على الثلج تذمّرت من برودته ، فحملتها و أجلستها على صخرة كبيرة كانت راقدة قربنا :

- هل أنتِ مرتاحة الآن ، سيدة بطريقة ؟

تبسَّمَت و جذبتني بيدها من معطفي و جعلتني أستدير لألصق ظهري على الصخرة بين قدميها :

- ابقَ هنا بقربي

قال نوح بعد أن اعتدل :

- أتدريان ما أول شيء سأفعله بعد عودتنا من رحلتنا هذه سالمين ؟

انتظرنا إجابته ، حتى أردف :

- سأتزوج مباشرة

ضحكنا ، فتابع حديثه :

- إن كانت هذه هي الحياة الزوجية ، فلن أتردد ثانية بالإقدام عليها .. مَن سيُطعمني و يُشربني و يلبسني كيس نومه و يترك صديقه يتجمّد برداً ؟؟

- انتظر ، لقد غطّيتك بغطاء

- أتسمّي تلك المنشفة غطاءً ؟؟

- دعنا من هذا ، لكن الحياة الزوجية ليست كما تظن

أنا و أسيل لولا حبنا الحقيقي لما كنّا هكذا طوال الوقت

قالت أسيل :

- نعم ، معه حق .. فتارة نتشاجر و تارة نتغازل .. حياتنا عبارة عن رومانسية و نكد

قال نوح مغيّراً الحديث :

- متى سنجد الصخرة ؟

أجبته :

- عن أيّ صخرة تتحدث ؟

- العلامة على النفق ، أنسيت **!؟**

صاحَت أسيل بعد هنيهة :

- يونس **!!** أنزلني بسرعة

اقتربت منها ، فأحاطتني بذراعيها و أنزلتها على الأرض جرَت مبتعدة عن الصخرة و قالت مشيرة إليها :

- انظر إلى شكلها **!!**

حينما دقّقت النظر ، وجدتها صخرة كبيرة ، على شكل نصف كرة ، أيّ كقبة .. مائلة إلى الزرقة الفاتحة ، كما أن شكلها هندسي بشكل مثير للإعجاب ، فليست طبيعية إطلاقاً :

- إنها هي !!

قال نوح مقترباً منها بينما يحمل الخريطة بيديه :

- مطابقة للرسم تماماً

أشحت بوجهي إلى ناحية الجدار ، و قلت متعجّباً :

- إذا كانت هذه هي العلامة ، فأين النفق ؟

نظرا إلى ناحية الجدار بدورهما ، فمشى نوح إليه باحثاً عن النفق ، لكن لا أثر :

- أين النفق !!

ردّت أسيل بينما تطالع الأرض :

- بالتأكيد لن يكون ظاهراً ، فعبدالله اللورداني رسمه منذ ألف عام ، أيّ إنّه مدفون الآن أسفل هذه الثلوج

وافقتها على استنتاجها و ربَّتُ على رأسها :

- أصبحتِ محققة ، بطريقتي

- نعم ، لقد عملتُ في المباحث البطريقية

نوح بصوت متذمّر :

- كفاكما غزلاً !! فلنبدأ الحفر

التقطت المجرفة و رحت أحفر أمام الصخرة من جهة الجدار بينما أسيل تسخّن بعض المياه ، أما نوح فيحفر بالملعقة التي أصبحت من الصعب الحفر بها بسبب انحناءها :

- هذه الملعقة تكاد أن تتكسر

- حينها ستكمل الحفر بيديك

قهقهَت أسيل بينما تسكب الماء على الثلج :

- مهمتي رائعة

أجبتها ضاحكاً و أنا أرمي الثلج من المجرفة :

- ماذا تتوقعين من بطريقة ؟

قال نوح بعد أن غمس ملعقته بالأرض :

- أيعقل أن تعود الشرطة للبحث هنا

- حينها لن نفلح بالهروب هذه المرة

- صحيح ، فلديهم طائرات إضافة إلى مركباتهم و كثرة عددهم

- في الواقع ، أتساءل منذ مدة ، هل سنعبر إلى الأرض الثانية؟؟ بل هل هنالك أرض ثانية من الأساس ؟؟

- يونس ، لا تحبطني .. دع أملي بإيجاد النفق و شأنه

- نسبة وجوده هو واحد بالمئة

- هذا لأننا لسنا على يقين مما نفعل

أفرغت أسيل قِدرها على الحفرة ، و قالت :

- لا تيأسا ، لعلّنا في الطريق الصحيح

أجبتها :

- و ماذا لو كنّا على الــ..

قاطع جملتي اصطدام معدن مجرفتي بشيء صلب :

- لقد وجدت شيئاً !!

ردّ نوح :

- لا تتعجل ، ربما مجرد قطعة من الحجر

- تعال و احفر معي هنا لنعرف

جاءت أسيل بالماء سريعاً و سكبَته فوق مكان حفرنا ، و ما مرّت لحظات حتى تبيّن لنا جزء صغير من قطعة حجرية مزخرفة بنقوش غير مفهومة .. جُنَّ جنوننا ما أن رأيناها فأكملنا الحفر حتى كشفنا الثلج عنها بالكامل :

كانت عبارة عن دائرة صخرية كبيرة ، عرضها أكثر من خمسة أمتار .. لونها كلون الصخرة و مُلئَت بنقوش و رموز غريبة

لم نفهم شيئاً منها ، فقلت بخيبة :

- مجرد قطعة أثرية

قالت أسيل :

- و ما الذي سيجلب قطعة أثرية قديمة إلى هنا ؟

قال نوح :

- لم أسمع عن وجود حضارة في القطب الجنوبي

تأمّلت النقوش ، فقلت لهما :

- هناك سرّ في هذه الرموز ، ليست مجرد خربشات

تمعّنا فيها ، و اقتربت أسيل تلمسها .. فقالت بعد أن أشاحَت بوجهها ناحية الصخرة :

- ألم تلاحظ امتلاك الصخرة ذات لون الحجر

قال نوح بتعجّب :

- كأنّهما من قطعة واحدة

أثّرَت كلماتهما بي ، و ابتعدت عن الحجر عدّة خطوات ..

هناك شيء غريب .. هناك لغز ، لكن .. ما هو ؟ للحجر

و الصخرة ذات اللون ، كأنهما كانا قطعة واحدة .. كما للصخرة شكلاً هندساً متقناً ، محفوراً بكل تأكيد بواسطة البشر ، و الحجر كذلك الأمر ، دائرة منحوتة الحواف بشكل احترافي كأن ناحت الحجرَين هو نفس الشخص

لمعَت برأسي فكرة .. صرخت بعدها قائلاً :

- تعاليا معي

ركضت مسرعاً للصخرة و وضعت يديّ عليها :

- ادفعاها معي نحو الحجر

فعلا كما أمرتهما .. و بدأنا نفرغ أقصى قوانا .. فكانت ذا وزن ثقيل جداً .. نجحنا بإيصالها إلى الحجر .. و استقرّت عليه في منتصفه

قال نوح :

- إنها في منتصفه تماماً .. حجمها متناسب

- هذا هو مكانها منذ البداية

قالت أسيل :

- و ما الفائدة التي جنيناها الآن ؟

- في الحقيقة لا أعلم ، اكتشفت أنّ علينا وضعها عليه فحسب

نوح و قد فقد الأمل :

- لا نفق .. هذا ما أظنّه

- ماذا ؟

- انظر يا يونس ، ففي الخريطة ، الرسم الذي ظنّنّاه نفقاً .. لم يكن سوى هذا الحجر .. لا أدري الفائدة من ذكر جدّي له

قالت أسيل جالسة على طرف الحجر الدائري :

- أظن أن عبدالله لم يتعدّا هذا الجدار .. و رسم الأرض فقط لا غير

قلت بدوري واقفاً بجانب نوح :

- آسف يا نوح ، لكنّني أتفق معها ، فقال أنّه قد رسم خرائطاً أخرى لكن لم نجد سوى هذه

كاد نوح على وشك الرد ، إلا أن صوتاً عالياً قد جرى في الأرجاء .. صوت مستمر غريب .. كأنّه يقترب .. صاحت أسيل :

- الحجر الدائري !!

نظرت إليها ، فرأيت الحجر يضيء بنقوشه ضوءً أبيضاً .. ابتعدت أسيل عنه بسرعة .. صاح نوح :

- فوقنا !!

كان هنالك جسم دائري ، يضيء بشكل مبالغ قد ظهر من فوق الجدار و راح يقترب منّا .. قوى خفية تدفعنا نحو الخلف .. كأن مغناطيساً يجذبنا .. سقطنا أرضاً بينما حطّ الجسم على الحجر الدائري .. بعد ثوان كان الوضع قد هدأ و ساد سكون قاتل .. نظرنا بتمعّن فوقنا و صُدمنا مما رأينا :

- أليس ذلك صحن طائر **!!**

قلت مندهشاً :

- أنا لا أفهم .. ماذا يحدث بحقّ السماء **!!**

الفصل السادس

نوح

كنّا نظن أن الصخرة حينما وضعناها على الحجر الدائري ستكشف بطريقة ما عن نفق مخبّأ أسفل الثلوج أو في الجدار

لكن أملنا خاب بعد أن مرّت دقائق دون حدوث شيء ، و ما أثار دهشتنا بعد ذلك ، هو إضاءة نقوش الحجر ، تبعها هبوط طبق طائر من السماء .. كان طبقاً كبيراً كالذي نراه في أفلام الخيال العلمي ، بلون فضيّ خالٍ من أيّ لون آخر

أحدث ظهور هذا الشيء المرعب ، فوضى في أحاسيسنا و مشاعرنا .. كنت لا أدري أأجري أم أفقد وعيي ، أأرجع و أسلّم نفسي للشرطة ، أم أهرب و أسلّم نفسي للدببة القطبية لتأكلني بنهم ، أم ألقي بنفسي من منحدر أو جبل .. أو في المحيط كي أتجمد و تضرب سيوف البرد عظامي و جسدي

كانت تعبيرات وجوهنا كمّن رأى جنّاً أو وحشاً ، فلم أؤمن طوال حياتي بهذه الأشياء و اعتبرتها ضرباً من الخيال ، ثم من

أين جاء أصلاً ؟؟ من الفضاء؟؟ لا وجود لفضاء ما دامت الأرض مسطحة و تحفظها القبّة السماوية ، فلا نفوذ لخارجها

و لا دلوف لداخلها .. فكيف و من أين جاء !!

تقدّم يونس من الطبق حذراً بعد مضي عشرة دقائق دون حدوث شيء .. و من ثم ما أن وصل إليه حتى فُتِح بابه و خرج دخان غطّى على أعيننا كالغشاوة ...

من وسط الدخان ظهر طيف يمشي نحونا ، لم يخطر في بالي سوى مخلوقاً فضائياً يحمل مسدس ليزر أخضر اللون ، قصير القامة ، عارٍ الثياب ، رمادي اللون و خالٍ من الشعر ، بعيون كبيرة سوداء كالثقوب السوداء و فم صغير ، لكن لم يكن ..

انقشعَت سحابات الدخان الكثيف و ظهر شخص بلون بشرة كبشرتنا و شعر أصفر كشعرنا ينسدل طويلاً على ظهره

بعينين حمراء اللون _ و هو لون غريب على البشر _ و لباس أحمر يشبه لباس أهل المستقبل الذي نراه في الأفلام ، متوسط القامة ، غليظ المحيّا ، بأذنين كآذان العفاريت

نظر لنا و من ثم إلى يونس ، فقالت أسيل بفزع :

- يونس !! عُد بسرعة

لكن يونس تجاهل النداء ، و استقام و قال موجّهاً كلامه للغريب:

- من أنت ؟

تمعّن وجه يونس ، و مدّ يده للمصافحة ، فصافحه يونس ..

و قال الغريب بصوت بشريّ ثخين :

- أنا دارينال ، جئت استجابة لندائكم ، كيف أساعدكم ؟

نظرنا إلى بعضنا بعضاً ، فقال يونس بتوتر ملحوظ :

- نحن ذاهبون إلى الأرض الثانية

- أوه ، نعم .. لم يزرها أحد من أرضكم منذ ما يقارب العقد من الأعوام ، ما عدا الجهات الرسمية

- الجهات الرسمية ؟

- الدول و ما إلى ذلك

قلت بتعجب :

- أتعلم الدول بشأن الأرض ؟

أجابني يونس ملتفتاً :

- بالطبع تعلم !! لمَ برأيك يحرسون الجدار و يمنعوننا من الإتيان بحريّتنا ؟

ضربت وجهي بكفّي :

- آسف ، لقد نسيت

تدخّل الغريب قائلاً :

- إن كنتم مسافرين ، فاتبعوني

قالها و استدار دالفاً المركبة ، التفت يونس إلينا و من ثم مشى ، و راح يحمل الحقائب و الأغراض :

- هيّا ، ساعداني ، سنذهب

قالت أسيل ناظرة إلى المركبة :

- أهذا هو طريق العبور ؟

ردّ يونس :

- بل هذا هو النفق الذي كنّا نبحث عنه

دلفنا المركبة ، التي كانت عبارة عن غرفة دائرية صغيرة بأزرار و أرقام كثيرة مجموعة في لوحات الكترونية على الجدران ، إضاءة بيضاء تنير الغرفة ، تأتي من حلقة زجاجية في سقف المركبة ، يجلس الغريب على كرسي أمام لوحة التحكم الرئيسة ، و من ثم يضغط زرّاً يُغلق الباب ...

تساءلت في البداية ، عن كيفية هبوط المركبة على الحجري الدائري ، بينما تتوسطه الصخرة ، لكن جوابي كان حينما رأيت فتحة في أرض المركبة ، تبرز منها الصخرة ، أجال يونس بصره بالمكان و من ثم قال :

- ألا توجد مقاعد لنا ؟

ردّ الغريب متابعاً تشغيل طبقه الطائر :

- أنا قائد المركبة ، و ليس أنت .. اجلسوا على الأرض لو أردتم

قلت بصوت مسموع :

- يبدو أن الفضائيين وقحين كالبشر

قهقه دارينال بينما رفع ذراعاً حديدية كانت ترقد على لوحة التحكم فارتفعت المركبة و انطلقت بنا ، و أجاب بسخرية :

- فضائيين ؟؟ أما زال بنو جنسك مخدوعون حتى الآن ؟

- إن لم تكن فضائياً ، فما أنت ؟

- أنا من البشر أيها الغبي ، أتراني من البهائم مثلاً ؟

- لكن كيف ؟! ، الفضائيين هم من يأتون بهذه الأطباق الطائرة من الفضاء

- أتمزح معي ؟ فضاء ؟؟ أنت تسافر الآن من فوق الجدار الجليدي ، عابراً إلى الأرض الثانية ، أيّ أن أرضك مغلقة

و مسطحة ، و من ثم تقول لي فضاء ؟ لا يوجد فضاء أصلاً ، الفضائيون غير موجودين ، هذه الأطباق نستعملها نحن البشر من الأراضي الأخرى ، و ليس كائنات لا أصل لها تأتي من فراغ يسمّى الفضاء

- لكن ، إن كنت من البشر ، لمَ أذنك غريبة هكذا ، كما لون عينيك الأحمر كذلك

- اسمع ، سأحاول الشرح لك ببساطة ، هناك أجناس و أعراق مختلفة من البشر ، فأنتم ساكنو الأرض الأولى نعتبركم جنساً معيّناً من البشر ، أما مثلاً سكّان الأرض الثانية ، فهم بشر ذوو جنس مختلف عنكم ، و الجنس هنا لا أقصد به الذكر و الأنثى ،

فلدينا أولاً الجنس الأكبر و هو نوع معيّن من البشر ، و من ثم ينقسم هذا النوع إلى ذكر و أنثى

- أشعر بالدوار

- هذا من ذكاءك الزائد

أوليمبا

كان الحرّ شديداً ، و الرائحة أشدّ كراهة ..

الوضع أصبح لا يطاق ، لم أفكر بشيء منذ أن أعادوني إلى هذه الغرفة ، سوى فكرة واحدة ، واحدة لا غير ، و قد حان وقتها : **عليّ الهروب مهما كلّف الأمر** ، الهروب و لا شيء سواه ..

عند الوهلة الأولى ، يبدو الأمر مستحيلاً ، لكن ما أن أفكر بمنطقية ، حتى أرى أبواب الآمال تُفتح ..

أول ما عليّ التفكير بشأنه هو فكّ قيودي هذه ، و لم أجد سبيلاً لهذه الفكرة سوى أن يساعدني أحد ، و من سيساعدني هنا ؟

فكرت ملياً و لم أرَ إلا الحارس الذي يجلب لي الطعام ، فهو قصير القامة ، ليس بالقوي و لا بالقاسي ، هو كالموظف البسيط ، ذا قلب طيب .. سأحاول إقناعه حينما يأتي لي بالطعام لعلّه يستطيع سرقة المفاتيح و فكّ قيودي ، و سأهرّبه معي ، فلا أمان عليه هنا ..

موعد الطعام اقترب كثيراً ، لذا عليّ الانتظار قليلاً حتى يجيء الحارس الطيب ، و إن نجحت بإقناعه ، فسأصبح حرّاً طليقاً

يونس

مرّت ساعة من الزمن ، و ما زلنا نطير فوق الجدار ، إنه ممتدّ لمساحات ضخمة بالفعل ، على الرغم من سرعة المركبة الخارقة ، سألت دارينال متعجباً :

- كم يستغرق المشي فوق هذه المسافة حتى نصل إلى الأرض الثانية ؟

- 500 عام مشياً على الأقدام

بُهت نوح ، و نظر إلي :

- أهذا يعني أننا الآن نعبر كل هذه المسافة ببضع ساعات ؟

قال دارينال :

- بل بساعة

- و كيف ذلك ، فنحن لم نصل بعـ..

قاطعه دارينال :

- بل وصلنا

نظرنا إلى الخارج ، و دهشنا مما نرى ، أرض أخرى ، بحياة أخرى ، شمس تسطع وسط السماء ، و محيط من المياه استقبلنا في بادئ الأمر ، حتى جاءت بعده أراضٍ مليئة بالثلج ، و من ثم جبال و سهول .. لكن الفارق الوحيد الذي لاحظناه ، هو أن هذه الأرض ثلجية ، لا خضرة فيها ، بل كل ما هنا يغطّيه الثلج و الجليد .. قال دارينال :

- مهمتي كانت توصيلكم ، و قد فعلت

- ماذا تقصد ؟

- قفوا على الدائرة التي في منتصف المركبة و احملوا أغراضكم

فعلنا كما أراد ، و تجمعّنا حيث أشار ، و فجأة **!!** فُتحت الأرض و سقطنا من المركبة نحو الأسفل ، ارتفاع شاهق سنهبطه هكذا و نموت ، أيظننا نقدر على الطيران ؟؟

كنت أسقط ، و فوقي نوح ، و أسفلي أسيل ، أيّ أن نوح هو آخر من سيموت فينا ، و أسيل أولنا .. صرخت أسيل بفزع :

- يونس **!!** أمسك يدي

مدّت لي يدها ، فحاولت إمساكها فلم أصل ، ما كان منّي سوى أن دفعت بنفسي إلى الأسفل بجسد نوح الذي كان على بعد متر فوقي ، إذ وصلت قدمي إليه و أكسبني سرعة زائدة ، فوصلت إلى زوجتي و احتضنتها .. ما زاد من سرعة سقوطنا .. قالت أسيل :

- سنموت سوياً

- في الأرض الثانية

دفنَت رأسها في صدري ، و وضعتُ ذقني على شعر رأسها مغمضاً عينيّ ، و بعد ثوان .. فجأة ، توقفنا.. كأننا ارتطمنا بالأرض و متنا و انتقلنا إلى البرزخ ، فتحنا أعيننا لنجد أنفسنا نرتفع عن الأرض بمتر واحد .. بواسطة قوة خفية لا نعرف مصدرها ، و من ثم سقطنا أرضاً بسلام .. نهض نوح قائلاً :

- لقد كان ذلك وشيكاً

وقفت بسرعة ، و تنفست الصعداء حينما رأيت أسيل تقف أمامي :

- لقد نجونا

نظرنا حولنا ، و أدرنا بصرنا يمنة و شمالاً ، لنرى الثلج يحيط بنا من كل جانب ، قالت أسيل :

- يونس

- نعم ، يا قلب يونس

- أتذكر وعدنا ، الذي قرّرنا فعله ، حينما نصل إلى هنا ؟

أشحت بوجهي و أنا أقلّب بأرشيف الذكريات :

- أوه ، نعم ، لقد تذكرت

اقتربت أسيل مني و لكنني ابتعدت ، و نظرت إلى نوح الواقف على بعد أمتار ، يشاهدنا :

- نوح ؟

- نعم

- ولّنا ظهرك من فصلك

زفر و أدار ظهره ، يتأمّل الجبال الثلجية البعيدة ، فاقتربت من أسيل بسرعة و ضربت الفم بالفم ، و تداخلت الشفاه بالشفاه

و رويت عطش الجسد ، لماء فمها .. ابتعدنا عن بعضنا و قلنا لنوح أن استدر ، فاستدار و تناقشنا بشأن الخطوة القادمة ، التي

سنسلكها ، و اتفقنا على المشي و البحث عن ملجأ نحتمي به ، ككهف أو مغارة ، و ما إلى ذلك

مشينا بين التلال الثلجية ، أسفل سماء الأرض الثانية ، و من ثم جثوت على ركبتيّ و رسمت حرف أسيل و حرفي في الثلج ، و أكملنا مشينا ، قالت أسيل :

- أنا لا أصدق أننا الآن نمشي في الأرض الثانية ، أرض غير أرضنا

رددت عليها :

- كما أن الطريقة التي جئنا بها ، أغرب مما توقعت

قال نوح :

- الشيء الذي لا أفهمه ، لمَ لم يدوّن جدّي عبدالله ، شيئاً عن الطبق الطائر ؟

- بالتأكيد دوّنه ، لكن تذكر يا نوح ، أكثر صفحات الكتب ممحية جرّاء قِدمها

- هذا صحيح

ساد صمت طويل ، قطعه نوح حينما أدار وجهه إلي قائلاً :

- يونس ؟

التفت إليه بتساؤل ، فأردف :

- ما هي الأشياء التي جعلتك تؤمن بسطحية الأرض ؟

- الكثير ، لا تعدّ و لا تحصى

- اذكر لي بعضاً منها

- لديك مثلاً ، كمثال بسيط عن كذب ناسا بصعودهم سطح القمر ، إنهم في الفلم القصير الذي صوروه ، كان العلم المغروس في الأرض ، يتحرك بفعل هواء قوي ، و هنا اسأل نفسك ، هل على سطح القمر هواء ؟؟

- نعم ، معك حق ، لم أفكر فيها من قبل

تدخّلت أسيل :

- يبدو أن المخرج نسيَ المروحة تعمل

ضحكت لقولها ، و نكزتها على ذراعها ، و بهمس قلت :

- يبدو أنّكِ قد فهمتِ لعبتهم يا سيدة بطريقة

- بالطبع ، فأسمع منك عن أمر الأرض هذا منذ سنين ، من الطبيعي أن أتأثر بك و أن أصبح سيدة بطريقية فهيمة

قال نوح :

- كفاكما تهامساً ، و انظرا إلى هذا

نظرنا إلى الأمام ، لنرى بيوتاً صغيرة كثيرة ، يغلب على لون حجارتها اللون الأزرق الفاتح ، و أما سطحها ، فبعضها كان بأسطح من جذوع أشجار أو خشب ، و البعض الآخر كان بأسطح حجرية .. شوارع و أسواق بدائية ، و أشخاص يمشون فيها ، نظرنا بعضنا إلى بعض و قلت :

- قرية ؟؟

قال نوح بدهشة :

- هل هؤلاء بشر ؟؟

أجبته بتأمّل :

- بشرتهم زرقاء أم أتخيل !!

صاحَت أسيل بصدمة :

- بل هذا لون بشرتهم ، معك حق .. لكن قد يكونون بشراً من جنس مختلف ، كما قال قائد الطبق الطائر

أومأت برأسي موافقاً ، و قلت هابطاً من التل :

- هيا بنا ، علينا التحرك

نزلنا إلى شوارع القرية ، نتفرّس ببصرنا كل ما يظهر قبالتنا

على الرغم من غرابة لون بشرتهم ، إلا أنهم لم يكونوا قبيحي الشكل ، أو بشعي المنظر ، فمنهم القبيح و منهم الجميل ، كأبناء جنسنا تماماً ..

أطفال يركضون هنا و هناك ، و رجل يجرّ عربته المحمّلة بفاكهة لم نعهدها ، متاجر صغيرة تحوي مختلف أنواع الألبسة و الطعام ، أشجار من جذوع شاحبة بأوراق زرقاء جميلة تتدلّى منها فاكهة كروية صغيرة كالعنب ، الكثير من الزرقة هنا ..

يبدو أن الطبيعة في هذه الأرض تتشبّع بهذا اللون ، مثلاً طبيعة أرضنا تكتسب اللون الأخضر ، فترى الأشجار خضراً و الأعشاب و الحقول و التلال و الوديان ، و بعض الثمار

فكما أرى ، الكثير من الأشجار و الكثير من الأعشاب الزرقاء متباينة درجة الازرقاق ، و الكثير من البرد ..

توقفنا أمام مكان ، غريب الشكل ، فهو كقبة من الخارج ، من حجارة رمادية و الكثير من الأعمدة التي ترفعه ، متوسط الحجم ، لا بالكبير و لا بالصغير ، يدلف إليه الناس و يخرجون

دلفنا إليه بفضول يتلاعب بقلوبنا ، حتى رأينا تمثالاً متوسط الحجم ، لما يشبه الرجل المسدل يديه على جنبيه ، و له ذقن طويلة ، في الحقيقة لم أتبين أوصافه بسبب النحت البدائي

و الذي كان سيئاً للغاية ، كان الناس يسجدون له و يعبدون .. على ما يبدو هذا معبد للقرية و هذا الصنم يعدّونه إلههم

خرجنا من المعبد و سرنا مبتعدين ، حتى وصلنا إلى ما يشبه المقهى .. دخلنا و استقبلتنا فتاة في مطلع صباها ، طويلة الشعر الأسود و متوسطة القامة ، بقوام ممشوق رشيق ، و عينين كستنائيتين ، ببشرة زرقاء كباقي جنسها .. قالت الفتاة :

- مرحباً ، أنا **آزكا** ، كيف أساعدكم ؟

عندما رآها نوح ، شحب وجهه ، و تخبّطَت ملامحه و قال بصوت متوتر :

- فـ.. في الحـ.. في الحقيقة ، نحـ.. نحن ، أنا لا ، أنا

قلت بسرعة :

- هل لديكم غرف نستطيع النوم فيها هنا ؟ نحن من مكان بعيد و لا نعرف شيئاً عن هذا المكان

ردّت آزكا بترحاب :

- نعم ، فهمتك ، أنتم الآن في قرية (**نافاريا**) ، التابعة **" لمملكة لوردا العظمى "**

- لوردا ؟؟

- نعم ، هي مملكتنا منذ قديم الزمان ، تبعد مدنها الرئيسة عن هنا ما يقارب الساعتين على الحصان

قلت في نفسي ، **الآن عرفت من أين جاء لقب عبدالله اللورداني** ، تابعت أسألها :

- و بالنسبة للغرف ؟

- أوه ، لقد نسيت ، آسفة .. لدينا ثلاثة غرف هنا بـ(لورداتين) على الليلة الواحدة

- لورداتين ؟

- لوردا ، هي العملة المعتمدة للمملكة ، و تمّت تسميتها على اسم المملكة

قالت أسيل :

- عذراً ، لكن ليس معنا عملة واحدة من هذه العملات

- إذاً ، آسفة لا أستطيع مساعدتكم

قلت بتوسّل :

- من فضلكِ ، جِدي لنا حلّاً ، فنحن غريبون عن هذه المناطق

قالت بعد شرود طويل :

- أمعكم نوع آخر من العملات ؟ عملة وطنكم مثلاً ؟

نظرت إلى أسيل ، فأشارت لي أن جرّب ، فأخرجت عملة من موطني و أعطيتها إياها :

- ما هذه ؟ لم أرَ مثلها من قبل ، كما أنّها مصنوعة باحترافية تامّة ، كيف استطاع موطنكم نحتها بهذه الطريقة ؟

أشحت بوجهي متوتراً كيلا أُكشف ، فقالت بعد لحظات بريبة :

- ثم ما قصة لون بشرتكم الغريب ؟

نظرت إليها بخوف ، متأمّلاً ملامحها المرتابة .. كدت أن أجيب لولا أن أسيل قاطعتني :

- نحن من الأرض الأولى

صُعقَت عندما سمعت قولتها ، و نظرَت حولها إلى العملاء لتتأكد من عدم سماعنا أحد ، و قالت هامسة :

- اتبعوني بسرعة

تبعناها إلى غرفة صغيرة يتسلّل إليها شعاع ضوء خافت ..

جلسنا على سرير قديم الصنع ، و من ثم أغلقَت آزكا الباب بحذر و قالت بسرعة :

- أأنتم صادقون ؟ أأنتم من الأرض الأولى **!!**

قلت لها بينما أعدّل من جلستي :

- نعم ، و لمَ قد نكذب ؟

اقتربَت منّي و قرّبت وجهها تتفحّصني :

- و ما أدراني أن لونكم ليس دهاناً أو مرض ؟

قالت أسيل بينما تجذبني نحوها :

- لو سمحتِ ، أيمكنكِ الابتعاد عن الممتلكات الشخصية

قالت آزكا ضاحكة :

- و أين أجد الممتلكات العامّة ؟

أشارت أسيل بينما تحيطني بذراعيها قائلة :

- إنها هناك .. نوح

نظر نوح بتوتر و تخبّط :

- أأنا من الممتلكات العامّة ؟

قلت بنفاد صبر :

- لا تغيّروا الموضوع ، و اتركونا في الأمر المهم

و من ثم وجّهت حديثي لآزكا :

- لمَ صُدمتِ حينما عرفتِ كوننا من الأرض الأولى ؟

قالت و هي تجذب كرسياً خشبياً ، و تجلس عليه :

- الأرض الأولى أسطورة قديمة تناقلتها الأجيال تباعاً ، لا دليل عليها و لا شاهد

قالت أسيل بعد أن كتمَت في صدرها غيرة حارقة :

- لا دليل و لا شاهد ؟ و ماذا ترين أمامكِ الآن ؟ أبهائم نحن؟

تدخّلت قبل أن تردّ آزكا :

- نوح يبحث عن والده ، أما أنا و أسيل فنستكشف الأرض لا غير

زفرَت بحنق ، و نظرت إلينا :

- أتظنّان أرضنا آمنة ؟ ألا تعرفان قوانينها حتى ؟

هززنا برؤوسنا أن لا ، فقالت :

- أتعلمان أن من قوانيننا ، ألا يتعدّى طولك المتر و السبعين سنتي ؟

سألتها :

- و ماذا يحدث لمن تعدّاه ؟

- يُعتبر أثيماً ، مجرماً ، لأنّه تعدّى طول الحاكم و يتم اعتقاله و تقصيره

- تقصيره؟

- يقطعون من جسده

نظرتُ إلى أسيل برعب ، فهمت زوجتي النظرة ، فأنا بطول مترين !! أردفَت آزكا ناظرة إليّ بابتسامة :

- و يبدو أنّك قد تعدّيت الطول بكثير

- أستبلّغين عني ؟

- بالطبع لا ، فأريد مرافقتكم

- مرافقتنا ؟

- مللت من حياتي هذه ، أريد شيئاً جديداً ، و أعترف ، لقد جئتم في الوقت المناسب

سمعنا صوت صراخ تصاحبه جلبة في الخارج ، التفتنا إلى النافذة ، و من ثم هرعنا نراقب الحدث : مجموعة من رجال يرتدون الدروع ، بينما يشهرون سيوفهم في وجه أحد العامّة

راح يصيح و ينوح و يبكي معتذراً ، لكنهم لم يأبهوا بنواحه و أخذوه قسراً معهم ..

سأل نوح آزكا و قد بدَت عليه بصمات الرعب :

- ماذا يحدث ؟

- يبدو أنّه تناول وجبة محرّمة

- وجبة محرّمة ؟

- لدينا قانون يحرّم تناول اللحوم و الدجاج ، أيّ أننا نباتيين

- و لمَ هذا القانون الغريب ؟

- لأن الحاكم يحبّ اللحوم و الدجاج ، لذا يحرّم علينا ما يريد و ما يهوى

قلت و أنا أشعر باستفزاز قد بدأ يسيطر على عقلي :

- يا للنتن !!

قال نوح :

- و ماذا يفعلون بمن يخالف القانون ؟ لا تقولي أنّهم يجعلونه يتقيّأ الطعام

مشَت آزكا و جلست على السرير :

- بالطبع لا ، بل يشوونه حيّاً و يتم تقديمه كوجبة رئيسة على غداء الحاكم

تجمّد الدم في عروقي ، و شحبَت وجوهنا و نحن نسمع ، سألتها :

- أهو من آكلي لحوم البشر ؟

قهقهَت ، و أجابت :

- بل أكثر ، لا رحمة في قلبه و لا شفقة ، بل لا يجب تسميته بإنسان

- أتعبدونه ؟

- لا ، بل الأغلب هنا يعبدون **" آلاه لوردا "**

- مَن هذا أيضاً

- **آلاه لوردا** ، معناها إله لوردا على حسب تأويل الكهنة ، و له قصة قصيرة في الكتاب المقدس لدينا

- أولديكم كتاب مقدّس أيضاً ؟

- نعم ، كتبه الكهنة الذين رأوا **آلاه** ، فجمعوا فيه كل معلومة لديهم عنه

- انتظري قليلاً ، أإلهكم شخص ؟

- ألم أقل لك هو إله ، أيّ ليس إنساناً

قلت متدخلاً :

- سنذهب إلى مملكة لوردا بأسرع وقت

الفصل السابع

أوليمبا

دلف الحارس القصير الذي كنت بانتظاره ، و بيده الطعام ، لم أتحمل ، فقلت له همساً :

- اسمع ، أرجوك اسمعني

نظر إليّ بتساؤل ، فأردفت :

- أنت تعلم بحيازتي على سرّ خطير ، قد ينقذ العالم و ينقذكم من استعبادكم هذا ، لذا أرجوك حرّرني و فكّ قيدي و أعــ..

قاطعني بعدم اهتمام :

- هل تستطيع التزام الصمت

- لكن أرجوك أنا ســ..

ركلني على بطني و تخلّى كسائر الحرّاس عن إنسانيته

و سكب الطعام على رأسي ، تبسّم لي باستهزاء مكملاً طريقه صحت و أنا أهزّ جسدي بعنف :

- أعدك بقتلك حينما أتحرر ، أيها السافل !!

شعرت به يقف على الباب ، و يقول بسخرية قبل أن يغلقه :

- أوه ، لا تنسى قلع عينيّ قبل أن تفعل

شرارات من الغضب تتناثر من مدمعيّ ، اليوم سأحرّر نفسي

و أنتقم منهم ، سأقلب العالم رأساً على عقب ، سأتأكد من عدم بقاء أيّهم على قيد الحياة ، لن أموت و أتعفن هنا ..

رحت أصرخ بأعلى صوتي ، لدرجة أن شعرت بحنجرتي على وشك التمزق :

- أنا الموت !! و آتيكم آتيكم مهما طال الزمن أيّها الجبناء !!

نوح

خرجنا عصراً من المقهى ، بصحبة آزكا .. كما تعلم و لا حاجة لإخبارك أنّها نالت إعجابي منذ اللحظة الأولى ، حتى شعرت بخافقي يضرب أضلع قفصي الصدري بقوة ، بالرغم من غرابة لون بشرتها على عينيّ ، إلا أنها فائقة الحسن ، فاتنة بمعنى الكلمة و حروفها ، أتساءل في نفسي : إن تزوجنا ، ما لون الطفل الذي سننجبه ؟ أزرق أم .. أم .. في الحقيقة لا أعرف اسم لون بشرتنا ، فهي ذات لون غريب حقاً ، لنكمل القصة ..

خرجنا عصراً بصحبة آزكا ، كنت أركب حصاناً و خلفي آزكا ، أما يونس فكان يقود حصانه أمامنا و خلفه أسيل ، حصانين اثنين ، أعطتنا إياهما آزكا ، دون ثمن و لا مقابل أو لنقل بمقابل أخذها معنا .. و لن أرفض طلب هذه الحسناء طبعاً ، نحن نتجه إلى المملكة ، و التي ليست ببعيدة من هنا ثلاث ساعات أو أكثر لأننا لا نركض بأحصنتنا

قالت آزكا :

- كيف هي أرضك ؟

- كهذه ، لكن ذات طبيعة خضراء .. أما الثلج فلا وجود له كثيراً

- هذا رائع **!!** أرض بثلج قليل و طبيعة خضراء ، ليتني أراها

قلت بتساؤل :

- أين من الممكن أن أجد والدي ؟

- منذ متى جاء إلى هنا ؟

- منذ عشر سنوات ، اختفى و من ثم علمت أنّه سافر إلى هنا و لم أسمع عنه شيئاً آخر

- هذا غريب ، أذكر رجلاً كبيراً جاء منذ عشر سنوات إلى هنا ، قيل أنّه من أرض أخرى ، يعيش في قرية صغيرة تدعى **" أثين "**

التفت إليها بدهشة :

- أحقاً **!!**

- نعم ، أنا متأكدة ، قد يكون والدك

أسرعت بحصاني إلى يونس ، و أخبرته بما قالته ، و أن عليّ الرحيل للبحث عنه .. تردّد يونس في بداية الأمر لكنه وافق في النهاية ، و افترقنا عن بعضنا .. هو ذهب مع زوجته إلى المملكة ، و ذهبت أنا مع آزكا إلى القرية ..

كنت أضرب حصاني بشدّة حتى يسرع أكثر ، أريد أن أصل إلى والدي بأقرب وقت .. لن أتأخر ثانية واحدة للبحث عنه ، أنا في طريقي إليك .

يونس

في منتصف الطريق ، افترق عنّا نوح و آزكا ، و ذهبا ليتبينا أمر الرجل الذي يظنّ نوح كونه والده ، و آمل ذلك .. أن يجده بهذه السرعة دون تعب و لا جهد .. يكفي الجهد الذي بذله للمجيء إلى هنا ..

وصلنا بعد ساعات عدة إلى المملكة ، و لاحت لنا من بعيد أبنيتها الشاهقة و قصورها .. لاسيما القصر العملاق الذي يتوسطها ، و هو قصر الحاكم النتن على ما أعتقد

سرنا في شوارع لوردا نتأمّل البيوت المصفوفة على الجانبين كانت بيوتاً كثيرة لا حصر لها ، هذه المملكة أكبر مما ظننت

و تضمّ قرى و مدن كثيرة ، مررنا بعدّة قرى حتى وصلنا إلى مدينة من المدن ، كان قصر الحاكم و القصور الشاهقة لا تزال بعيدة ، على غير ما ظننتها عندما لاحت في البداية

كانت المدينة كبيرة و تعجّ بالبشر ، و أكثر ما كان يميزها هو المعبد الضخم المشيّد وسطها ، لذلك سمّيت بمدينة المعبد

و لشدّة حبّي للبحث في المعتقدات و الأديان ، فلم أتردد بالتوجه إليه ، هو معبد ضخم ، أقل ما يقال عنه

ترفعه أعمدة كبيرة بيضاء ، و له سقف بعيد بشكل نصف دائري كالقبّة ، له درجات في بدايته ، تنتهي بسطح من معدن أبيض يمتدّ أمامنا ، الشمس تنيره دون تدخّل المشاعل أو مصادر النور الأخرى ، أمّا ليلاً فينيره القمر بتقنية زيادة الضوء التي لا أعلم شيئاً عنها _ سمعت عن إضاءته الليلة من كاهن المعبد _ يتوسط الساحة تلك تمثال ضخم لرجل بعمامة تلفّ رأسه ، و عينين حادّتين ، بلباس لا أتبينه

أمامه وُضع كتاب على صخرة منحوتة على شكل كفّين مفتوحين للأعلى بشكل مائل ، قادنا الكاهن الذي يعتمر قبّعة سوداء و جلباباً أسوداً بلحية بيضاء طويلة ، قادنا بجولة في المعبد ، و من ثم قال :

- نحن نؤمن بالإله **آلاه لوردا** ، السماويّ الأزلي ، نعبده و نطلب رحمته

و من ثم أشار بيده إلى التمثال :

- هذا تمثاله ، منحوت منذ قرون ، و هو شكله المتجسّد على هيئتنا البشرية

قالت أسيل همساً :

- هؤلاء يعبدون إنساناً

ضحكت و أجبتها :

- لم ترِ شيئاً بعد ، هناك في أرضنا ، من يعبد عجلاً و فأراً ، و شجرة .. لذا لا تتعجبي

وقف أمام الكتاب القديم ، رثّ الجلدتين ، و قال بينما يقلّب بصفحاته :

- هذا كتابنا المقدس ، كتبه أشخاص قابلوا **آلاه** العظيم و جمعوا عنه أكبر كمّ من المعلومات و دوّنوها هنا

- أيمكننا قراءة شيء منه ؟

- نعم بالطبع يا بنيّ ، ما رأيك أن تقرأ فصل البداية ، و هو فصل قصير في بداية الكتاب يحدّثنا عن آلاه ، كيف جاء و كيف رحل و ماذا فعل

أومأت له برأسي ، فناولني الكتاب الثقيل ، بصفحات تصل إلى الألف ، قلت في نفسي (كم أضافوا من قصة لهذا الكتاب من تأليفهم ، و كم مرّة حرّفوه يا ترى ؟) ، بدأت أقرأ ، مع أسيل مع أن الكلمات كانت مكتوبة بخطٍ شبه مفهوم :

- " مِن غيهبِ الحقّ و في شهيقِ اللحظةِ و زفرةِ النائمِ ، عبرَ آلاهُ لوردا مِن بوّابةِ عالمِ النورِ إلى سماءِ العالمِ بنجومهِ و كواكبهِ ، و تجلّى في أبهى صورهِ و أحلاها نفثَ من فمهِ روحَ الحقيقةِ و علّمها للناسِ و أوحى لهمُ بحقيقةِ النشأةِ و الوجودِ .. و أثنى على مرسلهِ العليمِ ، فما لبثَ أن أطلعَ الأنامَ على أسرارِ الماساح ، قوى الشرورِ و الخرابِ في العالمِ ، فسجدَ مَن سجدَ و عبدَ مَن عبدَ شكراً ، جلسَ آلاهُ على حاله حاكياً عن الحقيقةِ و عن أريجِ الفكرِ و جمالهِ .. أطلعَ الراحمُ من جوهرهِ السامعينَ على نبأِ حربٍ ستجيء من بينِ شعابِ الشر فتركَ لهذهِ الأرض ثلاثمئة من محاربيهِ ذوو الروحِ المقدّسةِ و العظمةِ القاهرةِ و أعطاهمُ من بركتهِ قوىً ثائرة لأمرِ الإلهِ ، فصعدَ إلى السماءِ و قُبيل صعودهِ قال : أتركُ شجعاناً لكم ، يحرّرهمُ مِن قيدهم مَن جاءَ من آلاهِ أنا حينما تأتيكم الحادثةُ و يتحققُ النبأ و الوعد "

نوح

بعد ساعة ، وصلنا إلى قرية " أثين " و التي فيها منزل الرجل في الواقع ، لا أدري أشعوري هو لهفة للقاء والدي الذي لم أره منذ عشر سنوات ، أم هو غضب منه لتركنا أنا و أمي وحيدين كما أنني لا أدري ماذا سأقول له حينما أراه ، لا كلمات في فمي كل ما أريد فعله هو التحقق من أنه لا يزال على قيد الحياة

كانت القرية صغيرة ، بسكان بسيطي الحال كما هو واضح ، تهنا في البداية و ذلك لأن آزكا لم تكن تعرف عنوان بيت الرجل ، لكن بعد سؤالنا العامّة ، عرفنا ، و ذهبنا إليه و طرقنا الباب ، كان البيت حجرياً متوسط الحجم ، يبدو عليه القِدم

بمدخنة يخرج منها خيط من الدخان يتلاشى في السماء ، بعد عدة طرقات ، فتح لنا الباب رجل في منتصف الخمسين أو بدايته ، أشيب الشعر ، أسود العينين ، بلحية بيضاء طويلة ، بطول متوسط و ظهر محنيّ قليلاً ، أما بشرته فكبشرتنا تماماً ، يبدو أنّه من الأرض الأولى كما قالت آزكا ، استأذناه بالدخول فرحّب بنا بلطف ، تبعناه إلى غرفة بفُرش أرضية ، جلسنا عليها و جلس هو على يميننا ، قال بوجه بشوش :

- تفضلا ، كيف أستطيع مساعدتكما

قلت له بسرعة :

- أأنت من الأرض الأولى ؟

صُدم حينما سمع قولي ، و لكنه تمالك نفسه بسرعة و قال بهدوء و ابتسامة :

- و لمَ السؤال يا ولدي

قالت آزكا :

- صديقي هذا من الأرض الأولى ، و رحل والده عنه منذ أن كان في العاشرة ، أيّ منذ عشر سنوات .. و يعتقد أنّك قد تكون هو بسبب مجيئك لهذه الأرض منذ عشر سنوات أيضاً

نظر الرجل إلينا للحظات ، و شرد يتأمّل الأرض لثوانٍ معدودة حتى التفت إلينا قائلاً :

- نعم ، أنا والدك يا فتى

سرت رعشة في جسدي ، و انتفضت واقفاً :

- أأنت حقاً ...

أومأ برأسه ، و أردف :

- لم يكن لديّ خيار آخر

سألته بريبة :

- خيار ماذا ؟ لمَ لم تعد ؟؟ ما الذي حملك على البقاء هنا ؟

أنزل رأسه ، و ذرف بعض دموعه ، و من ثم وقف قائلاً :

- أنت لا تعرف ، لا تعرف بعد

- ما الذي لا أعرفه !!

مشى نحو الباب خارجاً بعد أن قال :

- انتظر ، سترى بنفسك لتصدقني ، فلن تصدق قولي ما لم ترَ

بقينا واقفين في الغرفة ننظر إلى الباب بترقّب ، قالت آزكا :

- نوح ؟

- نعم

- أمتأكد أن هذا والدك ؟

- هذا ما قاله ، ثم إنّه جاء هنا في نفس وقت رحيل أبي

- نوح ، سأكون صادقة معك

- أهناك خطب يا آزكا ؟

- هناك شيء خاطئ

سمعنا صوت العجوز يقترب ، و من ثم دخل الغرفة و وقف عند بابها بابتسامة لطيفة :

- لم يكن لديّ حل يا ولدي ، لم يكن

- لم تخبرني بعد و لم ترني شيئاً ؟ ماذا تريد أن ..

قاطعني حدوث جلبة قريبة ، و من ثم ضرب الباب و دخول ثلاثة من الفرسان ذوو الدروع الحديدية ، الذين ما أن رأونا حتى أمسكوا بنا ، صحت بالعجوز :

- ماذا فعلت أيها القذر !!

قال العجوز و قد تغيّرت ملامح وجهه كثيراً ، فقد بدا مخيفاً إلى حدّ ما :

- طولك مترين على ما يبدو ، ثم من المحرّم دخول أناس من الأرض الأولى ، أما أنا فمن الثالثة

- الثالثة !! سأقطع عنقك حينما أراك مرة أخرى أيها الـ..

ضربني أحد الفرسان على رأسي ، ما جعلني أتخبط و أترنح

و تتداخلت جمادات الدنيا في عينـيّ و .. فقدت الوعي ..

يونس

بعد أن عبرنا مدينة المعبد ، وصلنا إلى مدينة أخرى تدعى

" المشامس " و ذلك لكثرة سطوع الشمس عليها ، على الرغم من أني أرى الشمس تسطع هنا كسطوعها على باقي المناطق قالت أسيل متذمّرة :

- لقد تعبت ، أحتاج للراحة

- حبيبتي ، بطريقتي ، لقد وصلنا إلى الأرض الثانية .. دعينا نستكشفها قبل أن نقرّر العودة إلى أرضنا

- لكننـــ..

سمعنا جلبة وسط حشد من الناس المتجمهرين أمامنا ، اقتربنا لنرى الخطب .. فرأينا امرأة تبكي و تجذب طفلتها إليها من أيدي الفرسان الذين راحوا يضربون الأم يبغون أخذ الطفلة قسراً ، لم أستطع كبت غيظي و تمالك نفسي ، فاندفعت وسط العامّة و صرخت بهم بغضب :

- أنتم !! ما الذي تفعلونه

شعرت بيد أسيل تحاول جذبي بعيداً ، لكنني تمنّعت ، ردّ أحد الفرسان :

- بلغَت طفلة هذه المرأة سن العاشرة ، و بحسب قانون المملكة فعلينا أخذها لتصبح جارية عند الحاكم ، و لو أراد تركها فسيتركها لاحقاً

قالت الأم باكية :

- هذا كذب **!!** لم تخرج فتاة من ذلك القصر ، ماذا تفعلون بالفتيات يا سفلة **!!**

ركل وجهها أحدهم ، ما جعلني أرتمي عليه و أبدأ بلكمه

و ضربه حتى أدميته ، راح الفرسان الآخرون يصفعونني

بعد أن اجتمعوا عليّ و قيّدوني :

- ستذهب معنا أيضاً أيها القذر

هرعَت أسيل إليّ باكية تحاول فكّي ، فرفع أحد الفرسان قدمه ليركلها ، لكنني ضربته بقدمي بين ساقيه حتى ملأ صراخه القرية ، قلت لها بسرعة :

- اهربي ، اهربي يا أسيل

- لا ، لن أتركك و لـــ..

- اهربي لتجلبي المساعدة !! اهربي و لا تلتفتي وراءكِ ، هيّا بسرعة !!

أومأت باكية خائفة و راحت تجري مبتعدة بين الناس ، أما أنا ، فربطوني مقيّداً بأحد الأحصنة وراحوا يجرّونني على الأرض وراءهم ..

نوح

فتحت عينيّ على قضبان حديدية صدئة ، و ظلام دامس يخترقه شعاع ضوء خافت ، يتسلل من أسفل باب في نهاية القاعة ، رائحة كريهة ، برد قارس ، نسمات باردة مجمّدة تداعب جسدي ، جدران رطبة و متشقّقة ، أنا في زنزانة صغيرة خالية ، لا وجود لغيري فيها ، لا سرير و لا كرسي و لا حمام ، و لا شيء

أشعر بصداع رهيب ، و رأسي يكاد ينفجر .. الكثير من الحشرات الغريبة ، تزحف هنا و هناك ، و بعضها يقرص جسدي ، سمعت صوت خطوات ثقيلة ، و من ثم فُتح باب القاعة و دلف رجل مفتول العضلات بشكل مزعج ، ضخم الجثة و الجسد ، عاري الصدر ، يتصبّب العرق منه على الرغم من برودة المكان ، يلقي نظرة عليّ من وراء القضبان و يقول بصوت جاف و هو يدخل مفتاحه بقفل الزنزانة :

- استيقظت أيها الأبله ؟

دلف إليّ و أمسكني من شعري و راح يجرّني على الأرض ، وقفت على قدمي و أنا أمشي بهرولة مخفضاً رأسي بسبب جرّي من شعري ، كنت أصيح متألماً فيزيد الشدّ ، فعلمت أن

عليّ كتم ألمي و السكوت عنه ، وصلنا إلى قاعة كبيرة بعد أن صعدنا درجات عدّة ، و عبرنا ممرات كثيرة ، دلفنا قاعة ضخمة ، و التي يتصدّرها شخص يجلس على عرش مخفياً وجهه بقناع حديديّ أسود

كان ينظر إلي مباشرة بعيون حادّة تشبه عيون الصقر ، يقف إلى جانبه حارسان طويلا الشعر بدروع فضيّة ، دفعني الحارس من ظهري و ركلني لأسقط أرضاً ، قال الجالس على العرش :

ـ قيل لي إنك من الأرض الأولى ، أهذا صحيح ؟

أجبته بصوت متوتر مغلوب على أمره :

ـ نـ...نعم

ـ حسناً حسناً ... لدينا قانون بحرق كل من يجيء من الأرض الأولى ... لذا فموعد أجلك غداً

تقدم الحارس منّي و أمسكني من رقبتي و ضربني عدة ضربات ، صحت بسببها متألماً ، و أعادني بعدها إلى زنزانتي جرّاً ، قلت محادثاً نفسي بعد أن رماني في الزنزانة :

ـ يا إلهي !! أيعقل أن أموت حرقاً ! لقد جئت إلى هذه الأرض لأجد والدي ، و ليس لأموت .. لست مستعداً للموت !

ثم زفرت بحنق ناظراً للباب :

ـ أين أنت يا يونس .. عليك إنقاذي و إخراجي من هنا بأقصى سرعة

خطوات مضطربة تقترب ، تبعها فتح الباب ... ليظهر الحارس ممسكاً بشخص ما ، و من ثم يرمي به في زنزانتي و يرحل

نظرت إلى شريكي الجديد ، لأفاجئ بيونس يتأوّه قليلاً

و ينفض الغبار عن ثيابه :

ـ يونس !!!

التفت إلي بدهشة ... و قال بعدها :

ـ نوح !! لكن ! كيف ؟

ـ لقد بلّغ عنّي الرجل الذي ظننته والدي

ـ هذا يعني أنك لن تأتي لإنقاذي

ـ نعم ، و كذلك أنت لن تأتي لإنقاذي

صمتنا قليلاً ... و من ثم أردفت :

ـ لكن ، كيف قبضوا عليك ؟

ـ لقد رأيتهم يأخذون طفلة في العاشرة قسراً من يديّ أمها .. لذا لم أحتمل الوقوف متفرّجاً و حاولت إنقاذها ، لكن باءت محاولتي بالفشل

ـ لماذا قد يأخذون طفلة ؟؟

ـ بسبب قانون لديهم ينصّ على أخذ الطفلة إلى قصر الحاكم عندما تبلغ العاشرة

- و ماذا يفعلون بطفلة كهذه هنا ؟

- تصبح جارية

- ما هذه المملكة المخبولة ؟ يمنعون اللحم و الطول و من ثم يأخذون الفتاة من أمها ، أيّ أرض هذه الذي أتيناها نحن ؟

- بالمناسبة ، أين آزكا ؟ لقد كانت معك

نظرت حولي بفزع ، كأنني تذكرت شيئاً مهماً :

- لا أدري **!** لقد استيقظت و لم أجدها ، ماذا فعلوا بها **!!**

الفصل الثامن

آزكا

وسط الكثير من الفتيات ، ذوات الرائحة النتنة و المقرفة ، أمسح أرض قاعة كبيرة في القصر ، أرتدي ملابساً تشبه أكياس القمح ، وسخة ، كريهة ، ممزقة ، الحرّاس هنا أبشع مما كنت أتصور ، يضربون الفتيات ضرباً مبرّحاً بصغيراتهن و كبيراتهن ، لا يفرّقون بين الذكر و الأنثى .. يركلون من تقصّر بعملها و يشدّونها من شعرها حتى يقتلعوا بعضه ، و يتنافسون فيما بينهم ، من سيجعل فتاة تصرخ أكثر ، فترى التحرّش يحدث أمامك لكن لا تجرأ على النطق بكلمة واحدة

الاستحمام محرّم علينا نحن الجواري ، لذا تجد رائحة أنتن من المراحيض .. الكلام غير مسموح ، الاعتراض على أيّ أمر غير مسموح ، الذهاب إلى الحمام لقضاء حاجة غير مسموح صباحاً ، كما أن لا طعام في الصباح أيضاً ، وجبة واحدة فقط تقدّم وسط الليل ، و ذلك ليعذّبونا بأكثر ما يمكن

لم أرَ كل هذا بأمّ عيني طبعاً ، لأنني لم أتواجد هنا سوى منذ أن جلبني الحرّاس اليوم ، لكن سمعت عن تلك الأمور من الفتيات الأخريات ، تقدّم حارس مني و ركلني على ظهري و قال بينما يجذبني من ذراعي بقوة و قسوة :

- تعالي معي بسرعة

انصعت لأمره ، و مشيت حتى وصلت معه إلى باب عتيق من الخشب ، فدفع الباب بيده و ألقاني بالداخل و قال :

- لا تخرجي قبل أن تنظّفي كل شيء

نظرت حولي ، لأفاجئ بمراحيض الحرس ، القذرة ، أبشع ما رأيت بحياتي أجده هنا ، لا نظافة لديهم إطلاقاً

فالفضلات على كل شيء تقريباً ، و البول يتسرّب من المراحيض القديمة و التي حُطّم أجزاء منها ، جوّ يثير غثياني و أكاد أتقيأ ، ما هذا ، أسأنظف هذه القذارة كلها ؟؟ أهم مخابيل ؟؟

ألقيت نظرة إلى الخارج ، لأرى الحرّاس يجرّون فتاة لم تكمل عملها كما يجب ، و أخذوها معهم إلى غرفهم

يا للشناعة !! اغتصاب أيضاً !! أين أعيش أنا !! لا أحد من العامّة يعلم ما يحصل للفتيات هنا

استدرت للمراحيض ، و قرّرت التنظيف ، لكيلا أتعرض لشيء سأندم عليه فيما بعد ، أخذت قطعة من القماش الأبيض المسوَد ، و رحت أنظف و أنا أغلق أنفي بيدي الأخرى

راحت دموع تتناثر على خدّيّ ، وسط شهقاتي و يدي الراجفة ، هذه مرّتي الأولى التي أبكي فيها منذ زمن بعيد

لمَ حدث هذا لي ؟ لمَ أنا ؟

ليتني متّ قبل أن أدخل هذا المكان ، أفي الأراضي الأخرى ممالك تحكمها ، و تفعل كهذه الأفاعيل ؟ تقتل شعبها

و تغتصب بناتها و تذلّ أناسها ؟ إن كانت كذلك ، فسحقاً لهذه الممالك من ممالك ، و بؤساً لهذه الأراضي من أراضي و لهذه الحياة من حياة

انتهيت من تنظيف هذه الكراهة بعد ساعة و نصف ، و من ثم خرجت بوجه عبوس ، و أنف تحمّل ما يفوق طاقته .. رآني أحد الحرّاس فجرّني إلى زنزانات الجواري ، فالشمس قد شارفَت على المغيب ، أيّ انتهى وقت عملنا

وصلنا إلى مكان تصطفّ على جانبيه مساحات صغيرة فارغة ، تحيط بها أسوار خشبية ، و بداخلها قشّ و أعشاب كما يبدو ، و فجأة ، دفعني أحدهم إلى داخل إحداها و أغلق السياج ، نظرت بصدمة إلى وجه الحارس الساخر ، و من ثم رحل .. هذه ليست زنازين ، هذه أماكن للحمير !! أيتقصدون فعل هذا !! لا حمام و لا سرير و لا أيّ شيء ، أعشاب جافّة و حسب ، أيسخرون منّا !! يا لحقارتهم !! حتى الماء ، موضوع بآنية تشرب منها البهائم ، أشحت وجهي إلى الزنازين الأخرى ، لأراها تعجّ بالجواري متباينة الأعمار ، منهم من في العاشرة ، و منهم من في الخامسة عشر ، و منهم في العشرين و ما فوق ، يا إلهي ! هذه مستوطنة عبيد ، عبيد هؤلاء ، عبيد نحن ، و هم الأسياد !!

يونس

حلّ الصباح ، و قد نمنا ليلة لا تُنسى ، فبين الفينة و الأخرى يلقي علينا أحد الحرس تارة ماءاً و تارة خمراً ، لم ننم سوى بضع ساعات قليلة ، فكانوا يجلسون أمام زنزانتنا

و يسخرون منّا بإلقاء بعض الأشياء المشتعلة إلينا .. فإذا نمنا و لم نبالي ، احترقنا ، لم نستطع فعل شيء سوى الصبر

و الانتظار ، كنت قلقاً على أسيل كلّ القلق ، كيف لو علمَت أنّني سأُحرَق غداً ، ماذا يا ترى ستفعل و كيف سيكون حالها؟؟

كما أنني اشتقت إليها ، يا ليتني أستطيع معانقتها قبل أن يتم تنفيذ حكم الإعدام ، يا ليتني أموت بين رقّة يديها أسفل عذوبة ثغرها و بحر عينيها المتلألئتين ، آه من بشرة بيضاء جميلة تكسوها و تغلّف روحها البيضاء النقيّة الطاهرة

لو أني أسمع رنّة صوتها ، رنين أشبه بأصوات الملائكة من الملأ الأعلى .. هي كطفلة فردوسية ، آتية من الجنّات حيث الحور و الأنهار ، التلال الخضراء و القصور الشاهقة ، اللامعة ، النابضة بحياة الخلود و النعمة الأبدية

هي من هناك ، و هناك مكانها و مرجعها ، فأتوسل إلهي أن يكون هذا منتهاي أنا و منتهاها ، لألقاها في جنّة الخلد حيث اللقاء الأبدي ، الخالد ، لا بؤس فيه و لا كره و لا غضب

لا كرب و لا مرض ، لا خيبة و لا قهر .. ليتني هناك ألقاها ، ليتني هناك ألقاها ..

عندما أشرقت الشمس على الأرض الثلجية المليئة بالخراب و الفساد و العبودية ، تم نقلنا إلى غرفة صغيرة فيها كرسيين حديدين ، ما أن نخرج منها حتى نكون على منصة نرى منها الطبيعة الزرقاء لهذه الأرض .. قلت لنوح :

- يبدو أن نهاية رحلتنا قد شارفَت على الانتهاء

ردّ نوح بصوت مرتجف :

- كيف هو شعور الاحتراق

تبسَّمت له بابتسامة مصطنعة .. و أجبت :

- لن نتألم .. لن نتألم

آزكا

استيقظت صباحاً ، حينما تم رشّي بماء بارد حتى التجمّد ، كان كالصاعقة تجري في عظامي ، قفزت فزعة لأتصبّح بوجه الحارس الساخر ، الذي أتمنى منذ أن جئت إلى هنا أن أركل وجهه المستفز ، قاطع تفكيري و قال لي ، بعد أن فتح السياج :

- اخرجي يا جارية ، إلى العمل هيّا

خرجت مترنّحة و آثار النوم لا تزال على ملامحي و عينيّ ، مشيت حتى وصلت إلى القاعة الكبيرة ، فكما سمعت من الفتيات الأخريات ، أنهن ينظّفنها كل صباح

و عندما أمسكت بممسحتي و ركعت على ركبتيّ لأنظّف ، جذبني أحد الحراس قائلاً :

- عليكِ تنظيف إحدى غرف السجون

تبعته دون أن أنطق بكلمة ، و مشينا عابرين ممرات كثيرة لنصل في النهاية إلى درجات طويلة ، رحت أصعدها وراء الحارس الضخم ، و كلّما صعدت أكثر ، كلّما دُهشت لكثرة الدرجات التي لا تنتهي مهما تقدّمنا ..

بعد وقت من الزمن ، انتهينا إلى باب حديديّ مقفل ، كنت ألتقط أنفاسي بعصوبة ، ففتح الحارس الباب و رماني في الداخل ، لكن لم يقفل الباب لأستطيع الخروج

بقيت بمفردي في الغرفة بعد أن ذهب الحارس ، و أوّل ما لحظت فور دخولي هما شيئين ، الأول ، حرارة الغرفة المرتفعة ، فكأنك تُشوى ، إضافة إلى وهج الحرارة الذي يتمايل أمامي ، أما الثاني ، فهو الرجل المقيّد بالسلاسل الحديدية ، التي تعلّق طرفيه العلويين بالحائطين الجانبيين ، و طرفيه السفليين بالأرض ، كان يتوسط الغرفة بشعره الطويل ، و جسده المليء بالجروح التي لا تعدّ و لا تحصى ، خفت في أول الأمر ، لأن طريقة تقييده و وضعه في مكان كهذا ، يدلّ على كونه مجرماً خطيراً أو مهمّاً إلى حدٍّ ما

جثوت على ركبتيّ أنظّف أرضية الغرفة ، تحت وطأة الحرارة الشديدة المنبعثة من السقف المفتوح على شيء مضيء

بعد لحظات ، سمعت صوت السجين يقول بصعوبة :

- من أنت؟ من هنا ؟

لم أجب ، بل التزمت بالصمت و أكملت التنظيف ، عاود القول:

- أرجوك ، من أنت ، من هنا ، أجبني

قلت متابعة عملي :

- أنا الجارية ، جئت لأنظّف الغرفة

صمت قليلاً ، و من ثم قال :

- أرجوكِ ، قفي أمامي قليلاً ، دعيني أراكِ .. فلديّ شيء مهم لقوله

- رجاءً لا تقاطعني عن عملي أيها المجرم

- من قال أنني مجرم ؟ أنا مسجون هنا لسبب كبير

- قتلت أحداً ؟

- بالطبع لا ، **هم خائفون منّي**

نظرت إليه بريبة ، خائفون منه ؟ منه هو ؟ هؤلاء الوحوش سيخافون من هذا ؟ نهضت بتشكّك و وقفت أمامه ، و قد رأيت وجهه الضعيف ، المعذَّب ، البائس ، قال لي :

- اسمعي ، لديّ سرّ خطير ، لو استخدمته لدمّرتهم

- و ما هو ؟

- لا أستطيع إخباركِ الآن ، أرجو أن تساعديني على الهروب و سأعــ..

- و ما أدراني بنيّتك و صدق قولك ؟ أنا لا أعرفك أصلاً

- أرجوكِ ، سنهرب سوية ، فقط أخرجيني و أقسم لكِ بالإله أنّي صادق فيما أقول

لم أدري ما أفعل ، فمرتابة في أمره ، و في ذات الوقت مشفقة عليه و أشعر بصدقه ، و بما أنّه قال سيهرّبني معه و أقسم على عدم كذبه ، فالأرجح أني سأساعده ، فلن أبقى في هذا الجحيم جارية قد يتم اغتصابها في أقرب وقت من تلك الوحوش النتنة

سأستغلّ أقرب فرصة للخروج ، و ها هي قد جاءتني على قدميها :

- حسناً ، أنا موافقة ، سأفكّ قيدك بشرط أن أهرب معك

تقدّمت من القيود و تفحّصتها ، و من ثم سألته :

- لكن كيف سأفعلها ؟

- عليكِ سرقة المفتاح من الحارس

- من الحارس !!!

- عليكِ التحلّي بالشجاعة ، لستِ في الفردوس حتى تخافي خسرانه

* * *

بعد ساعة من الزمن ، فتح الحارس الباب ليتحقق إن أتممت عملي ، و لكنه فُجع حينما لم يجدني في الغرفة ، دخل إليها بسرعة يتفحّصها ، و ما هي إلا لحظات حتى هوَيت بصخرة ثقيلة على رأسه ، لم أكن طويلة ، لكنني استطعت رفعها بكلتا يديّ و ضربه بها ، صحيح أننا ضعيفات نحن النساء ، لكننا قويّات حين الغدر ..

سقط الحارس أرضاً فاقداً وعيه ، و من ثم هرعت لمجموعة المفاتيح التي يحملها ، و أخذتها ناهضة إلى قيود السجين

جرّبت مفتاحين لم ينجحا ، حتى نجح الثالث ، و فُكَّت القيود ، تمدّد السجين على ظهره قليلاً ، و من ثم قام بسرعة و أخذ المفاتيح منّي ، و قال :

- اتبعيني

يونس

دلف إلينا أحد الحرّاس ، و وضع على رأسينا كيسين من القماش أبيضا اللون ، لم أعد أرى شيئاً ، كما أن رائحة الكيس عفنة ، شعرت بالحارس يدفعني نحو الخارج ، توقفنا

و سمعت همهمات كثيرة ، غير مفهومة ، و مم ثم رُفع الكيس عن رأسي ، لتسطع الشمس في وجهي ، لأجدني على منصّة خشبية مرتفعة ، تطلّ على جماهير متجمهرة تشاهدني

و تطالعني بترقّب ، على جانبي الأيمن كان نوح يرتعد خوفاً و على جانبي الأيسر رجل بلحية طويلة ، يرتدي ثياباً مميزة عن باقي الحرّاس ، يبدو أكبر سنّاً منهم ، يمسك كتاباً و يحيط به ثلاثة من الحرس ، كان على جانبي حارس يقف ، و على جانب نوح واحد آخر ، وراءنا عامودين حديديَين منتصبان

نظرت إلى الجمهور مضطرب الصفوف ، كثير العدد ، بفئات عمرية متباينة

تنحنح الرجل الكبير بالسن و الذي عرفت أنّه القاضي ، و فتح الكتاب الذي بين يديه و راح يقول بصوت جهوري مرتفع :

- هذان الاثنان ، جاءا من الأرض الأولى إلى هنا ، و بما أنّهم من أرض تسبق أرضنا ، أي قبلها .. فهذا يدلّ كما نعلم ، على أنّنا أعلى مقاماً منهم ، لأننا في المستوى الثاني من الأراضي السبع .. مع أنّنا نعلم بكون فكرة الأراضي السبع اسطورة قديمة لا أصل لها ، لكننا سنحاكمهما على حسب أقوالهما ، فهما من جنيا على أنفسهما بكذبهما ، و استعمالهما أسطورة قديمة للعبث لا أكثر ، لذا .. ستتم محاكمتهما بحسب كتابنا المقدس كتاب دين مملكة لوردا العظيمة .. و هذا نجده في الفصل السابع ، حينما قال آلاه : **أما هذهِ الأرضُ ، فمحرّمٌ عليها مجيءُ أحدٍ أقلُّ مستوىً من شعبها ، فإذا ما خُولِفَت قاعدتي هذهِ ، فأحكمُ على المخالفِ بالموتِ حرقاً أمامَ شعبِ أرضي هذهِ في وضحِ النهارِ و توسّطِ الشمس كبدَ السماءِ ..**

انتهى من قراءة أسطر كتابه ، و من ثم أردف : فكما سمعتم يا شعب لوردا ، حرّم علينا آلاه السماح لمن هم أقل منّا شأناً أن يدخلوا أرضنا ، و هذا لكيلا يختلط دم ساكني لوردا بدمٍ أقل قدراً ، و بما أن هذان الاثنان يدّعيان قدومهما من أرض تسبقنا فهما أقل مستوى منّا ، و يتوجب علينا تنفيذ الحكم عليهما

هتف الجمهور مؤيّداً بنبرة حماسية لتنفيذ الحكم ، التفت إلى نوح ، و كان وجهه مصفرّاً مما يسمع ، يا لهذه القوانين الغريبة أسيحرقنا فقط لأنّه يعتقد أننا أقل مستوى منهم ؟ ما هذا التخلّف!! أرجعوني إلى أرضي إن كنتم لا ترحّبون بي

و الشيء المستفز ، أنهم لا يؤمنون بوجود أراضٍ غير أرضهم و مع ذلك يحاكموننا على أننا جئنا من غير أرض ، ما هذا الجنون !!

تقدّم منّا الحارسان ، و ألصقا جسدينا بالعامودين ، و قاما بتقييدنا بحبال قوية و ثخينة ، و من ثم نثرا بعض الأعشاب القابلة للاشتعال أسفلنا .. و قال القاضي :

- بسم إلهنا ، إله لوردا ، نحرق هذين المجرمين .. ليتولى الجحيم أمرهما بملكه **آثلاموث** تعذيبهما بعد موتهما ، سيحترقان هنا و هناك ، هنا و في القبر ، روحاهما ستحترق إلى الأبد بعد مفارقة الجسد ، فالموت الموت و العذاب العذاب لمن يعصي و يتعدّى حرمات آلاه

جاء حارس بيده مشعل ، و قد اشتعل ناراً ، قرّبه من الأعشاب ،فراحَت تشتعل بدورها ، يا إلهي .. النار تزداد و تزداد

سأحترق بعد لحظات على هذه الحال ، نظرت إلى نوح ، الذي فعلوا ذات الشيء معه و كان يصرخ :

(سأحترق ، سأحترق !!)

يا إلهي أنقذني ، يا إلهي ساعدنا ، هؤلاء القوم جهلة لا يفقهون شيئاً و لا يعرفونك حتى ، أغلقت عينيّ على منظر الجمهور الذي يتراقص و يهلّل فرحاً ، و قلت في نفسي ، أين أنتِ يا أسيل ، لتري زوجكِ يحترق حيّاً أمامكِ ، ماذا تفعلين الآن ؟

و ماذا تقولين و ماذا ترين ، أنا هنا أموت .. زوجكِ يمو...

قاطع حديثي ، صوت جلبة كبيرة تقترب ، فتحت عينيّ بسرعة و أصخت السمع ، كانت الجلبة تقترب أكثر و أكثر من جهة القاضي على اليمين ، ارتبك الحرّاس مع قاضيهم ..

حتى اقتحم المنصّة رجال ملثّمون على أحصنتهم ، و قد أشهروا سيوفهم و طعنوا من اعترض طريقهم و راحوا يقاتلون الحرس ، سادَت حالة من الهرج و المرج بين الجمهور

و تعالَت الصيحات على الرغم من أنّ الرجال يبطشون بالحرّاس و ليس بالشعب ، أسرع اثنان من الرجال إلينا و فكّوا

وثاقنا ، فصعدنا وراءهم على أحصنتهم و انطلقوا بنا فارّين تبعهما باقي الرجال مسرعين .. و انطلق صفير الإنذار

صفير بوق يُستعمل عند الخطر .. و سمعنا صوت حرّاس يلحقون بنا .. لم أعرف واحداً من الرجال ، و كنت متعجباً كل العجب ، هل استطاعت أسيل جلب المساعدة لنا ؟؟ لكن كيف ؟ و مَن قبلَ مساعدتها ؟

آزكا

بعدما هربنا من القصر ، ذهبنا على حصان سرقه السجين

و توجهنا به إلى جبل من الجبال البعيدة ، سألني عن اسمي فأجبته :

- آزكا

- اسم جميل ، أنا **أوليمبا**

- اسم غريب

- نعم ، معناه الخطر ، باللغة اللوردية القديمة ، بالمناسبة أسمعتِ عن طقس الاحتراق ؟

- متى ؟ اليوم ؟ أهناك طقس احتراق ؟

- نعم ، سيُقام لشابّين غريبين

- انتظر ، شابّين ؟ غريبين ؟

- نعم ، سيُقام الطقس في القصر و ..

قاطعته بفزع :

- هذان صديقاي **!!** لقد جاءا من الأرض الأولى ، و بالتأكيد سبب طقس الاحتراق هو حرمة مجيء من هم أقل مستوى إلى أرضنا

- قلتِ ، من الأرض الأولى ؟؟

- نعم ، عانا كثيراً حتى استطاعا العبور

صمت أوليمبا قليلاً ، و قال :

- لن أدعهم يحترقان ، أنا أعرفهما

- تعرفهما ؟ كيف ؟

- لا عليكِ ، ستعلمين كل شيء فيما بعد ، الآن لا وقت .. لا طريق لنا سوى إلى **ديفيديوس** .

نوح

حينما كنّا على وشك الموت ، من العدم ، جاءنا المدد ، من رجال اقتحموا المنصّة و أنقذونا ...

حمدت ربي كثيراً على ذلك ، فأنا لا أريد الموت الآن و كما أنني لم أعترف لآزكا بمشاعري .. و لا أدري متى سأعترف لها أصلاً ، فكلّما رأيتها شعرت بارتجاف يدي و جسدي و تسارع نبضات قلبي ، دعونا من هذا الآن ، فبعد أن ذهبنا مع هؤلاء الرجال ، وصلنا بعد ساعة تقريباً إلى سلسلة من الجبال المغطّاة بالثلج ، و صعدنا طريقاً بإحداها بصعوبة بالغة ..

انتهينا إلى فتحة كهف كبيرة ، دخلنا إليه .. فكان كهفاً واسعاً و عميقاً ، بسيل صغير من الماء يجري على الجانب الأيسر من الكهف ، و هو ماء صالح للشرب لا أعلم مصدره ، استقبلنا شخص بشعر أبيض طويل و جلد أزرق كبقية الناس هنا

عرّفنا باسمه

« ديفيديوس »

اسم غريب و جديد ، كحال أكثر الأسماء هنا .. و من ثم جاءت آزكا ، و قد فرحتُ حين مرآها فعانقتها بعد أن اندفعت إليها

أثار عناقي استغرابها بالطبع لكنّها لم تتكلم ، يجلس شخص على الأرض بشعر أحمر طويل ، رفع رأسه إلينا و قال دون مقدّمات :

- من الأرض الأولى ؟

أجابه يونس :

- نعم

ردّ عليه :

- من منكما من نسل عبدالله اللورداني ؟

صُدمت حينما سمعت جملته ، و فتحت عينيّ على وسعها

قلت بدهشة :

- أنا ، هو جدّي

صمت و قد وجّه عينيه أرضاً ، فأردفت متشكّكاً :

- و كيف تعرف بشأنه ؟

ابتسم ابتسامة عريضة :

- لقد كان صديقاً جيّداً

- أتسخر منّي !! جدّي هذا ، ميّت منذ ألف عام !! كيف تكـ..

- جدّك لم يكن مجرّد رحّالة فضوليّ ، بل كان عالِماً ، متقدّماً جدّاً على علماء عصره ، لكنّه لم يُظهر علومه و لا اكتشافاته ، كان غريباً في الحقيقة

- أرجوك ، اشرح لي أكثر .. أشعر أنّي أتوه

- جدّك كان عالِماً فضوليّاً جداً ، فبعدما جاء من الأرض الأولى التقى بي ، و أصبحنا صديقين لتسع سنوات

- أنا لا أفهم ، كم عمرك أنت ؟؟

- وصلنا إلى الجزء الأهم ، و الأكثر سرّية ، السرّ الذي تم سجني لأجله

قال يونس :

- أخبرنا به ، بما أن نوح من نسل عبدالله اللورداني ، فهو يستحق معرفة السر ، و طبعاً أستحق معرفته أنا كذلك بما أنّي برفقته

قال الرجل :

- أولاً ، اسمي **أوليمبا** ، ثانياً .. بالطبع سأخبركم به ، حان الوقت لإفشائه

تنحنح و اعتدل و أكمل :

- اكتشف عبدالله اللورداني أشياء لم أكن لأتصور وجودها كنوع من الطاقة أطلق عليها ، **الأفاعي الزرقاء** ، و هي طاقة بلون أزرق تقريباً ، يتم نقلها بأسلاك ، و بمعادن

تدخّل يونس :

- إنها الكهرباء

أردف أوليمبا :

- استطاع تشغيل مصابيحاً بها ، و اخترع آلات رائعة مختلفة كما أحبّ النباتات ، و النجوم ، و السماء ، و درسها و راقبها

لا أستطيع الحديث عن كل أعماله .. لكن في النهاية ، دلفت إلى مختبره بصحبته ، بعد أن استدعاني لأمر طارئ .. هناك أخبرني أن حرباً ستقوم في هذه الأرض بعد ألف عام

و ستقوم بسبب شاب من نسله ، سيأتي إلى هنا .. و سيكون الجيش الخيّر بحاجة إلى مدد ، فلن يكفي عددهم و لن تكفي قواهم ، لذا ، فعل جدّك هذا شيئاً مجنوناً بمعنى الكلمة

إذ جلب ثلاثمئة رجل و حقن شيئاً في جسدهم اسمه الحمض النووي ، على حسب ما قال ، حقن حموضهم النووية بحمض نوويّ للدببة البيضاء ، و وضعهم في آلات خاصة تحفظهم

و تحفظ أجسادهم ، و يبقون فاقدين لوعيهم حتى أحررهم أنا

هنا صُدمت ، من قوله ، فاستفسرته عن الأمر ..

فقال : جدّك اخترع آلة أخبرني أني سأرقد داخلها ، و سأنام .. فستمتلئ الآلة بمادة سائلة زرقاء تشبه المياه .. و من ثم سأستيقظ بعد ألف عام ، لأحرّر الرجال الذين تركهم ، فأخبرني أنّهم سيتحلّون بقوة تفوق طاقة الإنسان العاديّ بمراحل

و سيساعدوننا وقت الحرب ، و كما حزرتم ، فعلت كما أمر .. فتمدّدتُ داخل الآلة و ضبطَها جدّك أن تُفتح ذاتياً بعد ألف عام

- و ماذا حدث بعدها ؟

- أغمضت عينيّ ، و فتحتهما بعد ألف عام .. لأجدني في زمن جديد و عصر مختلف ، و تذكرت المطلوب مني ، و عندما جئت لأبلّغ الناس بحرب ستقوم . قبض عليّ الحرس و قد علموا ما أقول .. و عرفوا قصتي ، فعذّبوني لسنوات

و ضغطوا عليّ كثيراً لأخبرهم بمكان الرجال الثلاثمئة ، لكنني لم أفعل ، و اليوم .. هرّبتني آزكا

في الحقيقة ، كنت أسمع و لا أصدق ، أكان جدّي متطوراً إلى هذه الدرجة ؟ أهذا واقع أم قصة خيال علميّ !!

قال أوليمبا :

- هل قرأتم الكتاب المقدس ؟

- نعم ، الفصل الأول ، فصل مجيء و رحيل آلاه

ضحك أوليمبا و قال :

- أتدرون مَن آلاه ؟

نظرنا إلى بعضنا بعضاً بنظرة استفهامية ، و من ثم أردف :

- آلاه هو جدّك

- انتظر انتظر ، أصبحت القصة أكبر مما تصورت ، أكان جدّي يدّعي الألوهية ؟؟

- بالطبع لا ، لكن جدّك بعدما بلّغ الناس بنبأ الحرب ، و أراهم من عجائب علومه .. قدّسه الناس ، بعد أن اختفى ، فخرج بضعة رجال يقولون أنّه رحل إلى السماء ، و أّنه كان إلهاً

متجسداً ، هذا كلّه هراء بالطبع ، فعلى مرّ السنين ، كتب الناس كتاباً كاملاً عن جدّك ، و تعرض للكثير من التحريف خلال العصور ، حتى مُلئ قصصاً مكذوبة و أقوالاً و أفعالاً لم يقلها جدّك أبداً ، كان هذا هو الكتاب المقدّس

صمت قليلاً ، التقط أنفاسه و أكمل :

- مثلاً ، بالتأكيد تتساءلون عن سبب تسميته بآلاه بدلاً من عبدالله ، و هذا بسيط .. فكان السكّان ينطقون اسمه نطقاً صحيحاً ، حتى تناقل اسمه شعب وراء شعب ، و لهجة وراء لهجة ، و لغة وراء لغة ، حتى استحال من عبدالله اللورداني ، إلى آلاه لوردا .. و لو دقّقتم ، فإن كلمة آلاه هي الله في " عبدالله " .. لكن محرّفة مع حذف كلمة عبد

و أما لوردا هي اللورداني ، كما لو أننا حلّلنا الفصل الذي قرأتموه ، سنجد تطابقاً بين آلاه المزعوم و عبدالله جدّك :

" مِن غيهبِ الحقّ و في شهيقِ اللحظةِ و زفرةِ النائمِ ، عبرَ آلاهُ لوردا مِن بوّابةِ عالمِ النورِ إلى سماءِ العالمِ بنجومهِ و كواكبِهِ ، و تجلّى في أبهى صورهِ و أحلاها . نفثَ من فمهِ روحَ الحقيقةِ و علّمها للناسِ و أوحى لهمُ بحقيقةِ النشأةِ و الوجودِ .. و أثنى على مرسلهِ العليمِ ، فما لبثَ أن أطلعَ الأنامَ

على أسرارِ الماساح ، قوى الشرورِ و الخرابِ في العالمِ ، فسجدَ مَن سجدَ و عبدَ مَن عبدَ شكراً ، جلسَ آلاهُ على حاله حاكياً عن الحقيقةِ و عن أريجِ الفكرِ و جمالهِ .. أطلعَ الراحمُ من جوهرهِ السامعينَ على نبأِ حربٍ ستجيء من بينِ شعابِ الشر . فتركَ لهذهِ الأرض ثلاثمئة من محاربيهِ ذوو الروحِ المقدّسةِ و العظمةِ القاهرةِ و أعطاهمُ من بركتهِ قوى ثائرة لأمرِ الإلهِ ، فصعدَ إلى السماءِ و قُبيل صعودهِ قال : أتركُ شجعاناً لكم ، يحرّرهمُ من قيدهم مَن جاءَ من آلاهِ أنا حينما تأتيكم الحادثةُ و يتحققُ النبأ و الوعد "

تابع بعد أن قرأ النص قائلاً :

- فمثلاً ، لو أخذنا على سبيل المثال : **"عبرَ آلاهُ لوردا مِن بوّابةِ عالمِ النورِ إلى سماءِ العالم "** قالوا هنا أنّ آلاه جاء ببوّابة إلى سماء هذا العالم ، و هذا ينطبق على مجيء عبدالله بالطبق الطائر ، فالطبق قد يشبه البوّابة ، و هو في ذات الوقت يطير في السماء

" نفثَ من فمهِ روحَ الحقيقةِ و علّمها للناسِ و أوحى لهمُ بحقيقةِ النشأةِ و الوجودِ .. و أثنى على مرسلهِ العليمِ "

هنا ، قيل أن آلاه علّم الناس حقيقة الوجود ، و هو نفس الفعل الذي فعله جدّك ، إذ حينما وصل ، أخبر الناس هنا كثيراً عن حقيقة الأرض و عن وجود أراضٍ أخرى ، و أما جملة

" و أثنى على مرسلهِ العليمِ " فهي أن عبدالله كان يحمد الله ربّه على إرساله إلى هنا ، و تيسير مجيئه دون مصائب أو عقبات

" فما لبثَ أن أطلعَ الأنامَ على أسرارِ الماساح " أيّ أطلع الناس على رجل اسمه " المسيح الدجّال " و لفظة **" ماساح "** أصلها المسيح ، لكن حُرِّفت

" قوى الشرورِ و الخرابِ في العالمِ "

فقال عن المسيح الدجّال ذاك ، أنّه رجل شرير ، سبب الخراب في الدنيا

" حربٍ ستجيء من بينِ شعابِ الشر ، فتركَ لهذهِ الأرض ثلاثمئة من محاربيهِ ذوو الروحِ المقدّسةِ و العظمةِ القاهرةِ و أعطاهمُ من بركتهِ قوى ثائرة لأمرِ الإلهِ "

أما هنا ، فهي عندما أطلع عبدالله اللورداني عن حرب ستأتي في المستقبل ، فترك لنا ثلاثمئة مقاتل ، بقوى كبيرة ، فقالوا هنا في النص أن لديهم روح مقدسة و ما إلى ذلك ، و هذا كذب

و تعظيم من نسج خيال الناس و غلوّهم ، فالمقصود بالروح المقدسة هنا هي القوى الكبيرة ، و قالوا بعدها أنّه أعطاهم من بركته قوى ثائرة لأمر الإله ، و حقيقة الكلام هنا هي أنّ عبدالله حقن المقاتلين الثلاثمئة و عدّل على حموضهم النووية ، ليكونوا أقوى ، و تركهم بقوى تثور حينما الله يأذن بالحرب

" فصعدَ إلى السماءِ و قُبيل صعودهِ قال : أتركُ شجعاناً لكم يحرّرهمُ مِن قيدهم مَن جاءَ من آلاهِ أنا حينما تأتيكم الحادثةُ و يتحققُ النبأ و الوعد "

صعد إلى السماء ، أيّ عاد إلى أرضه ، و قبل عودته أخبرهم بتركه لهم شجعاناً يحاربون معهم ، **يحرّرهم من قيدهم** ، أيّ يوقظهم من سباتهم ، **من جاء من آلاه أنا** ، أيّ أن شخصاً من نسله و الذي هو نوح ، سيأتي ليفعل هذه الفعلة و يكون السبب باندلاع الحرب و تحرير الرجال الذين تركهم

قال يونس بدهشة :

- لقد انبهرت بكميّة التطابق التي لم ألاحظها حينما قرأت النص لكن .. هل التمثال الموجود في مدينة المعبد ، تمثال آلاه ، هل هو شكل عبدالله اللورداني الحقيقي ؟

- نعم ، هذا شكله ، و على حسب ما علمت ، فقد نحته الشعب بعد رحيله بأيام ليكون ذكرى ، و لكن مع مرور العقود

و تعاقب الأجيال ، تم بناء معبد له و صار يُعبد

قلت مستغرباً :

- لكن ، كيف عرف جدّي بواقعة الحرب التي ستحدث و أنني سأكون موجوداً ؟؟

- لا أدري ، لم يخبرني بشيء

علّق يونس :

- و كيف ستحدث حرب بسبب نوح ؟ لم يفعل شيئاً

- هذه الأسئلة لا تسألوني إياها ، فأنا لديّ مهمة واحدة

ألا و هي تحرير الرجال أولاءك حينما يتحقق النبأ

قلت متسائلاً :

- بالمناسبة ، أين هم ؟

- في غرفة بعيدة عن هنا

- أأستطيع رؤيتهم ؟

- ليس الآن ، فجروحي كثيرة و أحتاج للراحة ، و المسافة بعيدة كما أخبرتك

قال يونس ناظراً بالمكان :

- من هؤلاء ؟ و من **ديفيديوس** هذا

- **ديفيديوس** هو أول شخص التقيت به بعد أن استفقت

و أخبرته بما حدث و بمهمتي ، بالطبع لم يصدقني في البداية و ظنّني مجنوناً فاقداً لعقلي و أهلوس ، لكن حينما أريته الغرفة و الرجال النائمين منذ ألف عام ، صدّقني ، و بدأ حينما كنت في السجن بتأسيس جماعة تستعدّ لهذه المعركة ، و تستعدّ لمجيئك ، لذا أوّل شخص ذهبت إليه مع آزكا هو ديفيديوس الذي حينما علمَ بأمر مجيء الحفيد المنتظر ، حرّك رجاله

و أرسلهم لينقذوكما بكلّ حماسة ، فنحن ننتظر مجيء نوح منذ سنوات

أومأت برأسي ، و من ثم سألته :

- كم عدد رجاله ؟

- خمسمائة على ما أظن

- خمسمائة !! أين هم ! لا أرى الكثير هنا

- أغلبهم في عمق الكهف ، هذا الكهف ليس كما يبدو ، فهو مخبأ رائع بالفعل و كبير

صرخ يونس و كأّنه تذكر شيئاً :

- أوووه ، لااااا

نظرنا إليه بتعجب ، و تساءلنا عن أمره ، فقال :

- أسيل !! أسيل !!! لقد تركتها تهرب حينما أخذني الجنود أين هي الآن ؟ عليّ البحث عنها و جلبها بأقصى سرعة

سمعه ديفيديوس ، فجذب أحد الأحصنة و قدّمه إليه قائلاً :

- اذهب بهذا و اجلبها ، و خذ معك ما شئت من رجالي

اعترض يونس بحزم بينما يركب الحصان :

- أما الحصان فشكراً لك ، و لكن الرجال ، فلا دعني أذهب بمفردي ، فهي زوجتي أنا و عليّ الحفاظ عليها بنفسي

هزّ ديفيديوس له رأسه متفهّماً ، و ضرب يونس حصانه فانطلق مسرعاً متلهّفاً للقاء محبوبته ، خائفاً عليها ، و إني لأجزم أن لن يعود قبل إيجادها ..

الفصل التاسع

يونس

بعدما وصلت إلى ذلك الكهف ، تذكرت غياب أسيل ، يا إلهي ما أغباني !! كيف أنساها !! لو حصل لها مكروه لن أسامح نفسي إطلاقاً

توجّهت مباشرة إلى المدينة التي اعتُقلت منها ، فور وصولي رحت أسأل عنها الذاهب و الآتي ، الجالس و الواقف ، النائم و اليقظ ، الصغير و الكبير ، الأنثى و الذكر ، لو كنت أستطيع سؤال الحيوانات لفعلت ، لكن لا أثر لها ، لم يرها أحد و لم يسمع عنها إنسان

دلفت مقهى آزكا و بحثت في غرفه ، لكن لم أجد أحداً ، أين من الممكن أن تذهب ؟؟ هي قصيرة تكاد لا تفرّق بينها و بين الأطفال ، فكيف سأجدها وسط أكوام من البشر ؟! ، و هي بيضاء كذلك ، فكيف سأعثر عليها وسط هذه الثلوج ، يا إلهي ماذا أفعل ؟ انتظر !! أيعقل ذهابها إلى القصر !! لو ذهبت فهذه مصيبة ! مصيبة كبيرة جداً ، حسناً ، سأذهب لأتحقق ، ما باليد

حيلة ، استدرت بحصاني للانطلاق نحو القصر لكن ، خطر لي خاطر ، أوقفني و شردت قليلاً : أسيل حينما تركتها تهرب أوصيتها بجلب المساعدة ، و هي بالتأكيد لن تطلبها سوى من نوح و آزكا ، اللذان كانا في بيت ذاك الرجل ، أيّ أنها قد تكون...

ضربت حصاني لينطلق مسرعاً باتجاه قرية ذاك الرجل ، لقد سمعت عن اسم القرية من نوح ، و بالتأكيد سمعت أسيل موقعها و اسمها .. قرية " **أثين** ".. آمل أنها لم تصل إلى البيت

فلو وصلت إليه و دخلَت ، بالتأكيد ستكون الآن في القصر سيبلّغ عنها ذاك الحقير ، إن آذاها سأقتلع عينيه و أسنانه و لسانه و أعذّبه تعذيباً مروعاً ، لن يشفي غليلي و حقدي عليه أبداً ، سأدفن جثّته في أرضي و أجعل فوقه حمّاماً عمومياً ، سأفعل الأفاعيل بهذا التافه ، بدأت أغضب من الفكرة قبل أن تحدث ، لذا ضربت الحصان مرة تلو مرة حتى أصل بأقرب وقت إلى قرية " أثين "

بدأ الظلام يهبط على سماء الأرض الثلجية ، و راحَت الشمس تستعدّ لرحيلها و مغيبها ، و القمر يتهيّأ ليتصدر صفحة السماء

الهواء منعش هنا ، و الجوّ بارد دوماً ، في الحقيقة اعتدت على الطبيعة المتجمّدة ، لكنني اشتقت للمناظر الخضراء بأشجارها و أعشابها ، كما اشتقت لأسيل كل الاشتياق ، لم أرها منذ البارحة و هذا ليجعل فؤادي يلتهب التهاباً من الشوق و الجوى للقائها ..

لم أفارقها منذ زواجنا يوماً واحداً ، فكيف و أنا الآن قد فعلت كما أنّني لم أشعر بالارتياح التام حينما نمت في السجن ، و ذلك ليس بسبب أرضه أو مضايقات الحرّاس أو رطوبة المكان ، بل لأنها ليست معي ، كنت أنام معها يومياً

لا أدري كيف يستطيع الأزواج عدم النوم بجانب بعضهم لأسبوع أو أكثر ، هذه الفتاة رغم نكدها ، إلّا أنها أصبحت تشكل الحياة بالنسبة لي ، بريئة ، لطيفة ، لا أستطيع رفض طلبها مهما كان ، ذات مسحة ملائكية ، و عينين كالبحر ، لو لم تعتد السباحة فيهما ، لغرقت ، و قد غرقت أنا على ما يبدو .. غرقت حبّاً و عشقاً ، هياماً و شوقاً ، غرقت و امتلئَت رئتيّ بماء حبّها ، حتى رحت أتنفسها ، أتنفس عشقاً و هوساً ، اشتقت لمشاجرتها ، و لصوتها حينما تصرخ و تقول « يووونس » تتذمّر كطفلة ، هي طفلة لكن كبيرة ، بحجم كبير ، بخدود جميلة ملساء

و خصر جميل فتّان ، يتأرجح بين عالمنا و بين الفردوس حينما تتمايل به ، يغزو أمماً و ممالكاً ، يحلّ الخلافات بين السنّة و الشيعة ، يوقف الحرب بين روسيا و أوكرانيا ، يغدو دليلاً قاطعاً على وجود الله للملحدين ، بسبب جماله الأخّاذ

في الواقع حينما أفكّر قليلاً ، فإن دليلي على وجودي ربّي هو هذه الفتاة ، فمن المستحيل على الطبيعة إيجاد مخلوق بهذا الجمال و الجاذبية بالصدفة ، هذه الخلقة الحوريّة تحتاج خالقاً ، خالقاً خلقها كما يريد لتكون سارقة لبّي ، سارقة قلبي و فؤادي و عقلي ، فالبصر لها ، و السمع لها ، و النَفَس لها ، أعيش لها

إن ماتَت ، فموتي معها ، و وصيتي دفني معها في ذات القبر لن أتركها وحيدة لتكمل رحلة ما بعد الموت ، معها في حياتها و مماتها ..

وصلت إلى القرية بعد ساعة من الزمن ، و دخلتها أسأل البيوت على منزل رجل كبير السن من أرض أخرى ، فدلّني أحد العجائز عليه ، و ما أن وصلت حتى رأيت أضواء المنزل مشعلة ، و صوت أنين خفيض يصدر منه ، لم أحتمل حتى ترجّلت عن حصاني و اندفعت كاسراً الباب ، و ركضت إلى الغرفة التي يأتي منها صوت الأنين المكتوم ، حتى دُهشت مما رأيت ، كان الرجل مقيّداً على الأرض و مكمّماً فمه

تقف أسيل أمامه و تضربه بعصا ، و تقول : أين نوح و آزكا أيها العفن ؟ أين هما ؟ ألن تتكلم ؟ سأجعل زوجي يقطّعك و يحرقـ...

قاطعتها حينما صرخت من وراءها :

- أسيل !!

التفتَت إليّ و ابتسمَت فرحة :

- يونس !!

هرعَت إليّ بلهفة و فتحتُ يديّ لأستقبلها ، بعناق قطع نفسي و نفسها ، أنزلتها و قلت لها :

- ماذا تفعلين !! لقد كنت خائفاً أن يؤذيكِ

نظرَت إليه بنظرة مهدّدة :

- يؤذيني ؟ هذا ؟ هه ، لقد حاول مهاجمتي بعصا ، فأخذتها منه و بدأت بضربه ، أضربه منذ الصباح الباكر

- أنمتِ هنا ؟

- لا ، لأنني مشيت دون حصان ، فاستغرقت الليل كلّه حتى وصلت صباحاً و دخـ..

قاطعتها بصدمة :

- مشيتي ؟؟ جئت إلى هنا على قدميكِ ؟؟ أأنتِ مجنونة

قالت و قد ترقرقَت بعينيها العبرات :

- لم أستطع ، كنت خائفة عليك ، ماذا لو آذوك ، ماذا لو قتلوك ؟ ماذا لو ..

عانقتها بقوة ، و قبّلت رأسها :

- لا بأس لا بأس، لم يفعلوا شيئاً ، لا تقلقي ، تعالي معي .. دعينا نذهب

نظرت إلى ذاك الرجل ، فقلت لها :

- اسبقيني إلى الخارج

- مستحيل !! لن أبتعد عنك مرة أخرى ، سأبقى هنا

- أديري ظهركِ إذاً و أغلقكِ أذنيك بكفّيكِ

- حسناً

فعلَت كما أمرتها ، و أخذت سيفاً ، كان معلّقاً بكيس قماشي على الحصان ، و نظرت إلى الرجل بابتسامة :

- كدت أن أموت مع صديقي بسببك ، و كنتَ تنوي إيذاء زوجتي .. اذهب إلى الجحيم أيها الغدّار

و غرست سيفي برقبته .

يونس

في ظلمة الليل ، أركب على حصاني مع أسيل ، بعدما خرجنا من قرية " أثين " منذ ما يقارب النصف ساعة ، أو أكثر .. لا أستطيع تقدير الوقت تماماً ، و حينما اقتربنا من مدينة المعبد سمعنا صوت جلبة كبيرة ، و دخان يغزو السماء ، أسرعت بحصاني حتى وصلت إلى المدينة ، لأفاجئ بمشهد لم أكن أتخيّله

كانت مدينة المعبد تحترق بكل ما فيها ، بمنازلها و متاجرها

و أشجارها و أعشابها و حيواناتها ، من بين الدخان الأسود الكثيف المتصاعد من هنا و هناك ، عدد كبير من الحرّاس الذين يدمّرون كل شيء أمامهم ، نساء و أطفال يُؤسرون

و يعنّفون بقسوة و حقد ، و رجال تُشقّ بطونهم و ظهورهم و رؤوسهم بسيوف و رماح الحرّاس الحاقدين ، عجائز تُلقى في النار ، و تحترق صارخة ، أطفال رُضَّع يُقطَّعون تقطيعاً ..

الدماء تجري و تسيل في كل مكان ، تتفجّر من أجساد البشر البائسين ، جرّاء بطش الحرّاس الملعونين ، فاقدي الرحمة و الإنسانية .. تتصل خيوط الدماء لتشكل سيلاً يسير بين النيران

و الدخان ، وسط الصرخات و شهقات الموتى ، وسط بكاء الأطفال ، و نحيب النساء ، و قهر الرجال و صياحهم ..

مناظر فظيعة تُرتكب لا أستطيع الحديث عنها ، نساء تحاول الهرب فيلحق بها أحد الوحوش و يجرّها من على حصانه من شعرها حتى تتقطّع خصلاتها ، مجزرة تحدث هنا ، مجزرة بشرية من قبل وحوش بشعة..

حينما يسأل ملحد " الله ليس رحيماً ، أيستحق إنسان الخلود في الجحيم للعذاب الأبديّ ؟ " هذا هو الجواب أمامي ، نعم و ألف نعم ، هناك مَن يستحق ، هناك مَن مِن الظلم عدم تخليده في جهنم ، الآن أدركت لمَ خُلقَت جهنم ، هذه الوحوش ليست من البشر و لا تمتّ للإنسانية بشيء ، إني لأجزم بكون ملك الموت ليترقّب شوقاً ، ليقتصّ منهم

شعرت بأسيل تلصق رأسها بظهري و تبكي ، نسيت أنّها معي مثل هذه لا تستحق رؤية شناعة كهذه ، استدرت للذهاب و إذا بي أرى أحد الحرّاس يتوجّه بحصانه نحوي ، و عيناه تقدحان شرّاً و عنفاً ، ضربت حصاني بكل قوتي لينطلق مسرعاً هارباً

كنت أريد أن أصل إلى أقرب منطقة من الجبل لتأتينا المساعدة المشكلة العظمى هي وجود أسيل معي .. لا أستطيع المخاطرة

بها ، التفت خلفي فإذا به لا يزال يلاحقني مشهراً سيفه ، كان الجبل بعيداً و نحتاج لقرابة الساعة حتى نصل إليه ، فلم يكن أمامي سوى حلّ واحد ، ما أن رأيت كومة الصخور المتجمّعة على الجانب الأيمن ، حتى توقفت عندها و أنزلت أسيل :

- اختبئي خلف الصخرة

- لكن ..

- قلت لكِ اختبئي !!

فعلَت كما أمرتها ، و أطلّت برأسها لتشاهد ما أنا بفاعل فاستدرت بحصاني و أخرجت سيفي

" الآن سأريك أيّها القذر "

كان لا يزال متوجهاً نحوي بأقصى سرعة حصانه ، فأطلقت حصاني نحوه ، و كلّي عزم على مقاتلته .. تفاجئ في بداية الأمر لكنّه استمر ، حتى تصادم سيفانا .. و دوى صداهما في المكان ، و أخذت أبارزه بشراسة ، ضربة بعد ضربة ، تصادم بعد تصادم ، كنّا ندور بأحصنتنا حول بعضنا البعض

و نتضارب و نتدافع ، و بقينا على حالنا هذا ، تارة أكاد أغلبه و تارة يكاد يغلبني ، حتى تعثّر حصاني فمال قليلاً و ملتُ معه

ليضربني الحارس بأسفل مقبض السيف مستغلّاً تعثّر الحصان فسقطت أرضاً ، و كتفي ينزف نزفاً شديداً .. و جعل حصانه يدهس جسدي فصرخت متألماً

سمعت بعدها صوت أسيل تصيح و خرجَت من مخبئها خلف الصخرة و هرعت نحوي ، فما أن رآها الحارس حتى همَّ بالذهاب إليها لكنني سارعت بحركة مفاجئة ، و ضربت أرجل حصانه من مكاني .. حتى هاج الحصان هياجاً شديداً أسقط راكبه من عليه ، و ما كان منّي إلّا أن أسرعت ناهضاً إليه قاطعاً رأسه ، انفجرَت نافورة من الدماء لطّخَت وجهي و ثيابي من رقبة الرجل ، فنظرت إلى أسيل المرتجفة .. و سقطتُ أرضاً .

آزكا

كنت أجلس على بوابة الكهف مع نوح ، نراقب النجوم التي تتناثر في ظلمة الليل ، و الثلوج التي تغطّي كل شيء تقريباً

المدن بعيدة لكن نراها من هنا ، نرى أضواءً مشاعلها كأنها نجوم بدورها .. قال نوح :

- آزكا ؟

- نعم

- كيف هو شعور الحب

- لا أدري ، فلم أحبّ أحداً من قبل

صمت قليلاً ، و قال :

- يونس و أسيل ، حقاً إني لأغار بعض الشيء منهما

- صحيح ، كيف تعرّفت عليهم ، أهم من أقربائك ؟

- لا ، لا صلة دم بيننا ، لكن حينما أردت البحث عن معلومات حول عبدالله اللورداني ، تصادفت معهما في إحدى المكتبات فهما محبّان للقراءة كثيراً ، و حصلت على رقم يونس حينها

حتى في يوم من الأيام عرفت أن عبدالله هو جدّي ، و عرفت بحقيقة الأرض و أن والدي قد جاء إلى أرضكم منذ سنوات ، لذا دعوت يونس و اتفقنا على المجيء إلى هنا ، فهو يعتنق فكرة سطحية الأرض منذ زمن

- حقيقة الأرض ؟ سطحية الأرض ؟ أنا لا أفهم

- في أرضنا يعتقد الناس بكون الأرض كروية

صحت بدهشة :

- كروية ؟ أيّ كالكرة ؟ و كيف ذلك ، أسكان أرضك أغبياء ؟

- تستطيعين القول نعم ، فهم يُدرّسون منذ الصغر فكرة كروية الأرض ، لذا فعندما يكبرون ، تُصبح كلّ فكرة غير هذه الفكرة غريبة و غير مقبولة

- لكن ، ألا يفكرون مثلاً ، لماذا لا يقعون من عليها ؟

- اخترعوا وهماً اسمه الجاذبية ، ليبرّروا التصاقهم بالأرض

و عدم سقوطهم نحو السماء

- أرضكم حقاً غريبة

من بعيد ، رأينا حصاناً يقترب من الجبل ، كان ظلام الليل يحيط به ، فما عرفنا من يركبه ، حتى صعد الجبل و ظهرت ملامحه ، كانت أسيل تقود الحصان بصعوبة ، لا أفهم ، لمَ يونس ليس معها

و عندما وصلت ، نزلت من على الحصان و أنزلت يونس المضرّج بالدماء و قالت لاهثة باكية :

- ساعدوه ، أنقذوه

هرع الرجال يحملونه إلى الداخل و قال ديفيديوس :

- ما الذي حدث ؟ لماذا هو مضرّج بالدماء لهذه الدرجة

جلسَت أسيل أرضاً و قالت :

- لقد هاجموا مدينة المعبد و دمّروها و أحرقوا منازلها و أسروا نساءها و قتلوا رجالها

- انتظري انتظري ، من هم ؟

- الحرّاس

صُدمنا حينما سمعنا قولها ، أحدثَت مجزرة ؟ لمَ ؟ لمَ قد يقتل الحاكم شعبه و يدمّر مدينة من مدن مملكته ، قال ديفيديوس مخاطباً أحد رجاله :

- اذهب و استطلع الأمر بسرعة

ركب الرجل حصانه و انطلق مسرعاً ، قامت أسيل و قالت ناظرة حولها :

- أين يونس ؟ لمَ لا أراه هنا

- لقد أخذه رجالي إلى أعماق الكهف ، لكي يداويه أحد أطبّائنا

ركضَت مسرعة لتلحق به ، فقال ديفيديوس لي و لنوح :

- اتبعاها ، و لا تفارقاها فهي خائفة الآن

أومأنا برؤوسنا و مشينا مهرولين إلى الداخل ، كانت هذه مرّتي الأولى التي أتعمّق فيها بالكهف ، مشاعل مثبّتة على الجدران تبعث ضوء نيرانها في المكان ، أصبح الطريق صعباً قليلاً بسبب تعرّجاته الكثيرة و حفره ، سيل الماء يسيل على الجانب الأيسر نحو الداخل ، قال نوح متذمراً :

- ما هذا الطريق ؟!

لم أرد عليه ، فعليّ التركيز على خطواتي كيلا أتعثر ، بعد دقائق ، أصبح الطريق جيّداً ، فأسرعنا بالمشي ، حقاً إن هذا المكان كبير و عميق ، متى سنصل إلى المخبأ ؟ جاءني الجواب فور أن رأيت نفسي في قاعة كهفية كبيرة ، يتناثر فيها الكثير من الرجال ، منهم النائم و منهم الجالس ، منهم من يحادث رفاقه و منهم من يؤدّي بضعة تمارين رياضية ، سيل الماء يتجمّع إلى بركة صغيرة هنا ، مشاعل كثيرة معلّقة في أنحاء القاعة ، المكان نظيف على ما يبدو ، و خالٍ من الحشرات و الفئران

تقدّمنا نحو أسيل التي كانت تجثم بجانب جسد يونس الراقد ، يفحصه أحد الأطباء ، قال الطبيب : حالته جيّدة ، لديه جرح عميق في كتفه لكن ليس خطيراً ، فلم يُقطع أحد شرايينه أو أوردته ، تنفّست أسيل الصعداء و شكرته ، قلت لها :

- ماذا حصل حتى جُرح هكذا ؟

- تبعنا أحد الحرّاس فتبارز معه و جرحه ذاك الوحش

- و أين الحارس ؟ ماذا حصل له ؟

- استطاع يونس قتله قبل أن يسقط و يفقد وعيه

ديفيديوس

بعد قرابة الساعتين ، دخل علينا الرجل الذي أرسلته ليستطلع أمر مجزرة مدينة المعبد ، قال فور وصوله :

- تم الهجوم ذاك على المدينة بأمر من الحاكم

- و لمَ ؟ لم يفعلوا شيئاً يستحق القتل و الأسر

- لقد ظنّ الحاكم أن الرجال الذين أنقذوا الشابّين الآتيين من الأرض الأولى ، أنهم كانوا من الشعب ، لذا ابتدأ مجازره بمدينة المعبد

- انتظر ، ابتدأ مجازره ؟

- نعم ، فسمعت أنّه قرّر تدمير الكثير من المدن و أسر نساءها و قتل رجالها كما فعل بمدينة المعبد

نظرت بغضب إلى السامعين و قلت بعد فترة من الصمت :

- لقد حان الوقت

قال أوليمبا :

- أوافقك الرأي ، فلا شرارة للحرب أعظم من هذه الشرارة

واحد من الرجال :

- لكن ، يا سيدي ، عددنا لن يكفي أبداً

- لا تقلق ، سنجمع أكبر عدد من الجنود المقاتلين في صفنا

- و كيف ذلك ؟

- سأرسل فِرقاً من الرجال ، إلى أكبر المدن ، كل فرقة تتولى مدينة معيّنة ، فتذهب إلى كل بيت من بيوتها و تخبر أهلها عن نوايا الحاكم بقتلهم و تدمير مدينتهم ، و أن الحرب التي حدّث عنها آلاه ، أيّ عبدالله ، قد حان موعدها و ظهر شخص من نسله ، لذا فليشدّوا رحالهم بأقرب وقت إلى وادي النور

و سنأخذهم من هناك إلى مقرّنا

- و لمَ وادي النور يا سيدي ؟ لمَ لا نطلعهم على موقع كهفنا ليجيئوا مباشرة

- لا ، هذا خطأ فادح .. فلو أنهم تناقلوا موقعنا من شخص إلى شخص ، بالتأكيد سيصل إلى أحد الحرس ، و من ثم إلى الحاكم حينها سيدمروننا تدميراً ، فالأفضل أن يجتمعوا في وادي النور و من ثم نأخذهم من هناك و نقودهم إلى كهفنا ، فما أن يصبحوا

معنا سنضمن عدم إخبارهم موقع الكهف لأحد من خارج جماعتنا

- و بعدها ؟

- سنجنّد رجالهم و نرعى نساؤهم هنا ، فالكهف كبير جدّاً كما تعلم ، و سيكون مريحاً لهم

- سأرتّب الفِرق و نبدأ العملية

- نعم ، هيا ابدأ بعملك و أسرعوا بكل طاقاتكم ، علينا إخلاء أكبر المدن أولاً ، فهي أكثر المدن استهدافاً من قبل الحاكم

و ستكون المجزرة القادمة بإحداها بالتأكيد ..

الفصل العاشر

يونس

فتحت عينيّ على صخب أطفال و أحاديث نساء ، رفعت رأسي و اعتدلت مديراً نظري في المكان ، لأجد نفسي في قاعة كهفية واسعة بشكل غريب ، و الكثير من النساء و الأطفال ، لم أفهم ، أين أنا و ماذا حدث ؟

مشيت حتى وصلت إلى ممر يقود صعوداً ، فأكملت مشيي بضع دقائق حتى عدت إلى الكهف العلوي ، الذي أعرفه ، لم يكن أحد سوى أسيل التي ركضت إليّ حينما رأتني و عانقتني بشدّة :

- كنت أنتظرك منذ أيام

- منذ أيام ؟

- نعم ، أنت فاقد لوعيك منذ خمسة أيام

- ماذا !!

- فبعدما سقطت أرضاً ، قدت الحصان و وصلت إلى هنا ، فعاينك أحد الأطباء و طمأنني على حالك

- أين الجميع ؟ لمَ لا أرى أوليمبا و ديفيديوس و نوح و آزكا ؟

- نوح ذهب مع آزكا إلى المقهى ، لتجلب أشياءً تهمّها قبل أن يحدث شيء لمدينتها و يُدمّر مقهاها

- يُدمّر ؟ يحدث شيء لمدينتها ؟

- أوه ، إنك لم تدري !!

قالتها ، و جلست أرضاً على إحدى الصخور و أجلستني متابعة كلامها :

- لقد دمّر الحرّاس مدينة المعبد بأمر من الحاكم ، لأنّه ظنّ الرجال الذين أنقذوك أنت و نوح ، هم من سكان المدن

و يخطط الحاكم لفعل مجازر مماثلة في الكثير من المدن ، لذا أرسل ديفيديوس مجموعة من رجاله لكل مدينة ، و هذا ليقوموا بإخلائها و جلب سكانها إلى هنا ، ليجنّد ديفيديوس رجالها و يحمي نساءها

- و ماذا حدث بعد ذلك ؟ هل نجحوا ؟

- نعم ، لقد استجاب السكان لنا ، و كانت أول دفعة تأتينا من الناس ، منذ ثلاثة. أيام ، و كان عددهم خمسمئة من الرجال

و ثمانمائة من النساء ، أما الثانية فكانت منذ يومين ، و كان عددهم ألف رجل هذه المرة ، و ألف من النساء ، أيّ أن عدد جنودنا الآن ألفا رجل

- و أين أوليمبا و ديفيديوس ؟

- ذهبا ليستلما دفعة كبيرة من السيوف و الرماح و الدروع و الأسهم من أحد تجّار الأسلحة الكبار

- أحدثَت مجزرة ثانية ؟

- نعم ، دخل الحرّاس البارحة إحدى المدن التي قمنا بإخلائها فتفاجؤوا بعدم وجود إنسان فيها ، و تعجبوا كثيراً ، لكنهم حرقوا المدينة و عادوا إلى قصرهم

صمتنا قليلاً و من ثم قالت :

- اليوم ، ستأتينا دفعة جديدة من السكان ، لمدينة المشامس فسكانها كثر كما رأيت حين زرتها ، أرسل ديفيديوس هذا الصباح مجموعات كبيرة من رجاله ليستطيعوا تبليغ أكبر عدد

من المدن الأخرى مع مدينة المشامس ، سيجتمع السكان في وادي النور ، و من هناك نرسل جنودنا ليقودوهم إلى الكهف

- يا إلهي ، لقد فاتني الكثير خلال غيبوبتي هذه

- لكن الأهم ، أنّك لم تقبّلني كل يوم كعادتك ، أنا حزينة

- أنا آسف ، لم أشعر بنفسي

- لكنني على الرغم من غيابك ، فإنّي قبّلتك في كل يوم ، و في كل ساعة ، و نمت بجانبك كل ليلة و أنا أعانقك

- أكنتُ بين يديكِ ؟

- نعم ، و أسفل سطوة قبلات ثغري أيضاً

- أتدرين ، اشتقت لمنزلنا و لأرضنا

- معك حق ، و أنا كذلك ، أتمنى العودة للديار قبل أن يحدث مكروه لك

- علينا المشاركة بالحرب على ما يبدو ، لن نستطيع العودة قبل أن تنتهي

قال صوت آخر :

- عليكما الحديث بصوت أخفض يا أيها المتحابين

التفتنا إلى بوابة الكهف ، لنرى ديفيديوس مع أوليمبا يجرّان قطيعاً من الأحصنة المحمّلة بأكوام من الأسلحة ، قال أوليمبا :

- إذاً استيقظت أخيراً يا برج إيڤل

ردّت أسيل :

- هااي ، أنت !! أنا من يناديه بهذا اللقب فقط

سألت أوليمبا :

- من أخبرك بهذا اللقب ؟ ألديكم برج إيڤل هنا أيضاً ؟

ردّ أوليمبا بينما يجلس على الأرض :

- ليس لدينا برج كهذا ، و أما عن من أخبرني به فهو ..

نظرت إلى أسيل التي كانت تخفي ضحكتها :

- أناديتني ببرج إيڤل بينما كنت نائماً ؟

- ماذا أفعل ، لم أعتد كثيراً على مناداتك باسمك ، يا برج إيڤل

- حسناً حسناً ، ألم تخبريهم بلقبكِ الجديد ؟

نظرت إلى أوليمبا و قلت مشيراً :

- هذه بطريقة ، زوجتي هي عبارة عن بطريقة كبيرة ، تزوجتها بالخطأ حينما ظننتها بشراً ..

ديفيديوس

- أين فرقة القيادة ؟ الفرقة التي كلّفتها بقيادة كلّ دفعة تأتينا من الناس من الوادي إلى هنا

- لقد ذهبوا ليروا كم صار عدد الناس في الوادي ، فكما تعلم ، هي دفعة جديدة أكثرها من مدينة المشامس

بعد دقائق ، وصلت الفرقة إلينا ، فقال أحدهم بسرعة :

- سيدي ، هناك أخبار عن خروج مئة حارس من القصر باتجاه وادي النور ، يبدو أن الخبر قد وصل إليهم و فهموا الحكاية

- حسناً ، سأريهم ..

- ماذا نفعل سيدي ؟

صعدت على حصاني و قلت له بحزم :

- اجلب مئتيّ رجل بأسلحتهم و اتبعني إلى وادي النور ، فهذه أولى معارك حربنا

- حاضر سيدي

و ضربت حصاني منطلقاً هابطاً من الجبل ، هؤلاء الحرّاس فظيعون بأشكال مقززة حقاً ، تتناسب طرداً مع أرواحهم العفنة

أجمل شيء سيحصل أنني سأقتل منهم ، سأقوم بفعل الأفاعيل بهم ، و عليّ أسر بعضهم ، و تعذيبهم أشدّ العذاب

قد تتساءل بينك و بين نفسك لمَ نقول عنهم حرّاس ، و ليس جنوداً ، هذا لأننا في لوردا نطلق كلمة حارس على جنود القصر ، لأنّ ليس لديهم الكثير من المستويات هناك ، أيّ هناك رتبة الحارس ، تليها رتبة القائد مباشرة ، لذا الحارس هو الجندي أيضاً

وصلت إلى وادي النور ، و الذي كان منخفَضاً ، قليل العمق .. سهل الخروج منه و النزول إليه ، واسع .. كثير الثلج ، لهذا سمّي بوادي النور ، فالشمس حينما تسطع على الثلج يضيء بشدّة و يصبح لون الوادي أبيضاً بانعكاس أشعة الشمس من على حبّات الثلج المتلألئة

كان الكثير من الناس متجمّعين في الوادي ، الدفعة أكبر عدداً من المرّتين السابقتين ، وصل رجالي ، مئتيّ رجل ضد مئة حارس ، سنرى من المنتصر ، على الرغم من ضخامة أجساد الحرّاس إلا أننا لسنا ضعفاء ، سألت أحد الرجال :

- بعد كم من المتوقع وصولهم ؟

- بعد دقائق قليلة ، يجب أن يكونوا تقريباً هنـ..

قاطع حديثه صوت أحصنة تقترب منّا ، فصحت بالرجال :

- تجهّزوا ، استعدّوا

اصطفّوا بصفوف و كنت أوّلهم ، حاملين سيوفنا بأيدينا

و دروعنا ، انتظرنا ثوانٍ معدودة حتى ظهر الحرّاس مسرعين نحو الوادي ، و قد تفاجؤوا حينما رأوا مائتي محارب بانتظارهم ، صرخت بأعلى صوتي :

- هجوووووم

انطلقت نحوهم و تبعني المحاربون من خلفي ، و التقَت سيوفنا بسيوفهم ، ضربت رقبة أول حارس ، فسقط أرضاً بدون رأس

خرج لي الثاني بسيفه يضرب به يمنة و شمالاً ، و تبارزنا قليلاً قبل أن أغرس سيفي بحلقه ، المعركة تشتدّ أكثر فأكثر

و الرجال يتساقطون تباعاً ، كان الناس يصرخون خوفاً و هلعاً و نساء باكيات نائحات تعانق أطفالها ، و لأجل هؤلاء المساكين بدأت أزيد من شدة ضربتي ، و راحت الرؤوس تتطاير

سأجعل حاكمكم يندم على اليوم الذي أرسلكم فيه إلى هنا ، كنتم ستحدثون مجزرة جديدة يا جبناء ، كنتم ستأسرون النساء لتصير جواري عندكم ، كنتم ستقتلون العجائز و ترمون الرضّع في النار ، اليوم أنا الذي سأعاقبكم ، لقد بدأت الحرب و أنتم من أطلق شرارتها يوم مدينة المعبد

صُرِع أغلب الحرّاس ، و بقيَ منهم ثلاثة لا أكثر ، أما نحن فقُتل منّا مئة و عشرون رجلاً ، و تبقى ثمانون ، أمرت بالقبض على الثلاثة المتبقين ، فحاصروهم رجالي و قيّدوهم

واحد منهم قاوم و حاول طعن أحد الرجال ، لكنه تلقّى ضربة في صدره ، قد يحيا و قد يموت بسببها ، و مع ذلك فقد أمرت بأخذه معنا

بعد لحظات .. شعرت بأن الضغينة لديّ تجاه الحرس لم تكتفي بأسرهم ، و شعرت أن من غير اللائق إركابهم معنا على الخيل

فما كان منّي سوى أن أمرت بربطهم بالخيل و جرّهم أرضاً طوال طريق عودتنا إلى الكهف ، فعدنا أدراجنا بثلاثة أسرى و دفعة جديدة من الأهالي ، يقارب عدد الرجال ألفي رجل و أما النساء فثلاثة آلاف ، يا إلهي ، لمَ النساء ذوات أعداد أكبر من الرجال دائماً !!

نوح

دلفنا مقهى آزكا ، الذي كانت طبقات من الغبار قد تجمّعت على أشياءه ، و راحت آزكا تجمع ما يهمّها من أغراضها ، استغرقت ما يقارب نصف ساعة حتى انتهت ، فخرجنا عائدين إلى الكهف ، و الذي كان يبعد ساعات عن هنا ، قالت آزكا

و هي تعتلي جوادها بجانبي :

- ما رأيك بكونك من نسل شخص مشهور هنا

- لا أدري ، شعور غريب

- لا أستطيع موافقتك ، فلم أجرّب هذا الشعور على أيّ حال

- لم أفهم إلى الآن ، معنى أن تقوم الحرب بسببي

- ألم تلاحظ حتى الآن ؟ لولا أنّك لم تأتِ إلى هذه الأرض ، فإنّك لن تُعتقل و لن يُحكم عليك بالموت احتراقاً ، و لن يقتحم رجال ديفيديوس المنصة و يقتلوا من حرّاسها لينقذوك ، بالتالي لن يرسل الحاكم وحوشه إلى مدينة المعبد و المدن الأخرى

و لن تحدث المجزرة التي كانت شرارة الحرب هذه

- أهذا يعني أن المجازر حدثَت بسببي ؟

- لا يمكننا التفكير بهذه الطريقة ، فلو نظرنا من زاوية الأخرى نجد أنه لو لم تحدث تلك المجزرة ، فلن تقوم الحرب ، و سنبقى تحت بطش الحاكم

أومأت برأسي ، و من ثم فكرت ، ماذا يا ترى يفعل جدّي

و ماذا تفعل أمي ، لقد أخبرها أنني سأغيب لمدة شهر عند أحد أقاربه ، و لا أظن أن الحرب هذه ستنتهي بشهر واحد ، ماذا سيحدث حينما أعود ؟ ، و هل سأستطيع العودة أصلاً ؟ أسئلة كثيرة دون أجوبة .

آزكا

بعدما وصلنا إلى الكهف ، لاحظت ازدياداً بأعداد الرجال فاستفسرت عن الأمر ، حتى أجابني ديفيديوس :

- خضنا أول معركة في هذه الحرب ، بجانب وادي النور ، مئتين من رجالنا ضد مئة حارس ، و انتصرنا آسرين ثلاثة منهم ، مات واحد حينما وصلنا من أثر طعنة تلقاها في صدره ، أما الاثنين فهما في الأسفل ، في القاعة

قالت أسيل :

- أصبح عدد رجالنا أربعة آلاف رجل

تدخّل يونس :

- و الكثير الكثير من النساء

ضربته أسيل على ذراعه بقسوة ، فقال متأسفاً :

- لم أقصد ذلك ، بل أقصد أنّهم حقاً كثـ..

قاطعَته قائلة :

- سأذبحك بسيفك هذا إن نظرت أو حادثت إحداهن ، يا بطل

يونس بهمس :

- يبدو على أسيل أنّها تريد المشاركة في الحرب

- أنا أسمعك **!!**

اقترب أحد الرجال و تبعه آخرون إلى نوح :

- أأنت من نسل آلاه حقاً ؟

- أأنت حفيد الإله ؟

- أأنت إله مثله ؟

- من أين جئت ، هل جئت من السماء كما جاء آلاه ؟

ردّ نوح بارتباك :

- انتظروا انتظروا ، إله ماذا **!!** لست إلهاً و لم يكن جدّي إلهاً أيضاً ، آلاه كان إنساناً عادياً ، أنا إنسان عادي أيضاً

- آلاه ليس إلهاً ؟؟ إذاً من الإله ؟

- إنّه **الله**

- **الله** ؟

- نعم ، **الله** ، هو الإله الحق ، خالق السماوات و الأراضي السبع ، و الشمس و القمر و البشر و الحجر و جميع ما هو كائن و موجود

- و كيف شكله ؟

- لا أحد يدري ، فهو إله عظيم ، لو أظهر نفسه لمخلوق لمات هو أعظم من أن يكون إنساناً أو شبيهاً به

- و أين هو ؟

- **هو في السماء**

الكثير من الرجال يدخلون إلى الكهف و يتوجهون إلى ممراته التي تقود إلى القاعة ، فسألت عن أمرهم ، ليجيبني أحدهم أن ديفيديوس قد أمر باجتماع الجميع في القاعة ، فذهبنا معهم

و عندما وصلنا ، كان جمع غفير يجلس في صفوف ، القاعة أكبر مما تتخيل ، فهي على الرغم من العدد الضخم للنساء

و للرجال و للأطفال ، إلا أنها تتسع للمزيد ، تتسع للضعف أو أكثر ، جلسنا مع الجالسين ، و اعتلى ديفيديوس صخرة كبيرة تظهره للجمهور الحاضر ، ليراه الجميع ، قال و قد رفع صوته:

- يا أيها الناس ، دارَت أولى معاركنا ، معركة وادي النور و كانت معركة صغيرة مقارنة بالمعارك القادمة
و عليكم أن تسمعوني حتى تفهموا الذي يحدث و يُخطط له

تنحنح و أكمل كلامه :

- الحاكم ، يخطّط لتدمير الكثير من المدن و أسر نساءها كجاريات ، تُعامَلن معاملة الحيوانات ، و يخطط لقتل رجالها ، و عجائزها .. و إحراق المدن تلك ليبيدها عن بكرة أبيها
لا أدري ما هذا الحاكم المجنون ، و لكنّه وحش ، لا جدال فيه ، فلقد شهدتم بأنفسكم قوانينه الغريبة ، كأن يُحرّم علينا اللحوم و يستحلّها له ، و يحرّم علينا بلوغ طول معيّن ، و يُحرّم و يُحرّم ، و مَن خالف قوانينه تلك فعقوبته شديدة غالباً ما تنتهي بالموت بعد التعذيب
ذلك الوحش ، يأكل لحوم البشر و يشرب دماءهم
ذلك الوحش ، يأسر نساء لوردا و يسلّط عليهن حرّاسه القذرين ليتسلّوا بهن
ذلك الوحش ، يدمّر مدنكم و يحرقها ،

ذلك الوحش ، يرمي بالرضّع في النيران أحياءً لعدم حاجته لهم ، فهل سنصمت عن هذا العذاب ؟؟

ردّ الجميع بصوت واحد :

- ***الحرب الحرب ، الحرب الحرب ، الحرب الحرب***

قال ديفيديوس بصوت أعلى يشتعل بالحماسة :

- لقد بلّغكم آلاه ، منذ ألف عام بحدوث حرب ، و علامتها مجيء شخص من نسله ، و قد جاء ، و هو ذاك يجلس بينكم ، نوح

نظر الجميع إليه ، فتابع ديفيديوس :

- لم يكن آلاه إلهاً ، بل كان إنساناً عادياً ، و هذا حفيده ، فما علينا الآن سوى أن نشعل الحرب معاركاً حتى ننتصر

هتف الجميع بصوت هزّ أركان القاعة :

- ***الحرب الحرب ، الحرب الحرب ، الحرب الحرب***

قال ديفيديوس :

- و بما أنّ أغلبكم لم يقاتل في حياته ، و لم يعرف استخدام السيف و الأسلحة ، فسأقسّمكم إلى مجموعات ، و أكلّف

عليكم مجموعة من رجالي ، ليدربوا كل يوم مجموعة منكم ، تخرجون أمام الجبل هذا ، و تتدربون حتى تأذن لكم مجموعتكم المكلّفة بتدريبكم بالعودة إلى الكهف سنواجه الحاكم بأقوى جيش ممكن

هتف الحضور مرة أخرى :

- الحرب الحرب

ديفيديوس مردفاً :

- سأستمر بإرسال فِرقاً من رجالي ليجلبوا أعداداً أكبر من الناس و يُخلوا مدناً أكثر ، و سنغيّر موقع اجتماعهم ، فوادي النور أصبح موقعاً مستهدفاً من قبل حرّاس الحاكم ، الموقع الجديد للاجتماع هو كهوف الآزور ، سنبقى على حالنا بتجميع الرجال حتى يحين الوقت المناسب لبدء المعركة الحاسمة

و الآن ، وصلنا إلى آخر أمر لليوم ، سيكون لجماعتنا اسم ، علينا اختيار اسم لنا ، و ما أرى أمامي سوى **" حماة لوردا "** فنحن من سنحمي مملكتنا من هذا الشيطان

- حماة لوردا ، حماة لوردا ، حماة لوردا .

الفصل الحادي عشر

يونس

في الصباح الباكر ، فتحت عينيّ على وجه أسيل الذي كان ينظر إليّ و يهمس بكلمات لم أفهمها ، حتى استيقظت بشكل كامل و سمعتها تقول :

- هيّاا ، استيقظ استيقظ !!

سألتها و أنا أهمس :

- ماذا هناك ؟ أحدث خطب ما ؟

قامت و جلست على بطني بحركة توهمك أنّها تفعل شيئاً طبيعياً معتاداً :

- لم يحدث شيء ، لكنني أريد تمضية بعض الوقت مع زوجي على انفراد

- و أين سيحدث هذا ؟ ألا ترين كمّ الناس هنا ؟

نظرَت حولنا في القاعة الكهفية و تأمّلت النساء النائمات و الأطفال ، و قالت :

- كيف تنام هنا و النساء موجودات ؟

- لم أفهم ، لمَ لم تتكلمِ بهذا الأمر قبل الآن ؟

- لأنني لم أفكر بالأمر سوى الآن !! كيف تنام وسط النساء !!

- حبيبتي ، أما زلتِ نائمة ؟ ألا ترين الرجال هنا ؟ أغلبهم ينام مع زوجته ، فلمَ لا أنام مع زوجتي ؟

- عليّ إذاً وضع عصابة على عينيك كي لا ترى أحداً منهن

- أنتِ مجنونة يا فتاة

- نعم نعم ، مجنونة تكاد أن تقتلع عينيك هاتين

- لم تخبريني لمَ أيقظتني من الصباح الباكر ؟

نهضَت من فوقي ، و جذبتني من يدي تحاول جعلي أنهض :

- قم هيّا ، سنذهب هيّا هيّا !!

- إلى أيـ..

- صه !! قم معي

زفرت بتأفّف و سرت معها بعد أن وقفت على قدميّ ، خرجنا من الكهف و رحنا نتمشّى على الجبل صعوداً ، قالت و هي تخرج عصا خشبية من وراءه ظهرها :

- أترى هذه ؟

- نعم ؟

- سأقتلك بها لو متَ ، أفهمت ؟

- ستقتلينني لو قُتلتُ إذاً ؟

- بالضبط

- حسناً ، ما رأيكِ بمغامرتنا هذه

- في الحقيقة ، خالفَت توقعاتي ، فتحوّلَت من رحلة استكشافية إلى حرب كبيرة ضد حاكم الأرض هذه

- نعم ، أوافقكِ الرأي ، تمنيت لو أنّنا لم نأتِ

أمسكت بيدها ، و جلسنا على صخرة من صخور الجبل نراقب المدن البعيدة ، و شمس الصباح ما زالت تشرق من مخدعها :

- عديني ألّا يموت أحدنا دون الآخر

أسندَت رأسها إلى كتفي ، و قالت :

- أعدك بموت ثنائي لنا

نوح

صحونا على خبر إصدار الحاكم أمراً بحملات تفتيش ضخمة يترأسها أشهر قادة القصر ، حملات تفتيش عنّا ، بعدما هاجمنا مئة حارس من حرّاسه ، و أسرنا ثلاثة ، مات واحد منهم

فتبقى اثنين ، لم يولّي ديفيديوس أمر حملات التفتيش أقل اهتمام و أمر رجاله ببدء تدريب أول مجموعة من رجال العامّة فنفّذوا أمره و هبطوا أمام الجبل يتدربون

التفت ديفيديوس أخيراً إلى الأسرى ، و نزل إلى غرفة صغيرة أسفل القاعة الكهفية ، كنت معه أنا و أوليمبا ، حينما رأيناهما مقيّدين نائمين ، أيقظهما ديفيديوس و نزع القماشة عن فمهما

و قال بلهجة صارمة :

- سأسألكما و ستجيبانني على كلّ سؤال ، مفهوم ؟

ضحك أحدهم و قال بسخرية :

- أنت ؟ يا فرخ الإوز

نظر ديفيديوس إلى أوليمبا قائلاً :

- علينا تغيير أسلوبنا

قال أوليمبا بخبث :

- انتظر ، دعني أفعلها أنا ، فأحد هاذين كان الحارس الذي عذّبني حينما كنت مسجوناً ، سأريه لوناً جديداً من ألوان العذاب

بدَت ملامح الخوف على وجه الحارس المقصود ، و لكنّه تمالك نفسه و ضبط أعصابه ، ذهب أوليمبا و غاب لدقائق معدودة و من ثم عاد بمجرفتين يحملهما بيديه ، أعطى إحداها لي ، و قال:

- هيّا بنا ، سنحفر حفرة عامودية

غرسنا المجرفتين بالتربة و بدأنا نحفر ، كانت هذه الغرفة الصغيرة ، تشوبها بعض التربة ، أيّ أنّ فيها صخوراً و جدران كهفية و فيها بعض التراب ، ما أن انتهينا من حفر الحفرة بالشكل المطلوب ، حتى قال أوليمبا :

- ساعداني بجرّه

بدأ الحارس يتوسل بتركه و الإفراج عنه ، و راح يرتعد خوفاً لكن أوليمبا كان حاقداً عليه كثيراً كما يبدو ، فأنزله إلى الحفرة و التي لم تغطّي رأسه ، بل خبّأت جسده بين ذرّات أتربتها

و حصاها ، و تركت رأسه بارزاً دون جسد على الأرض

تأمّل أوليمبا ذلك المشهد ، و غادر مرة أخرى ، لدقائق معدودة حتى عاد و بيده دلو ، اقترب من الرأس و خاطبه بكره :

- سأذيقك نوعاً من الآلام ، لم تفكر بإذاقتي إياه

نهض على قدميه ، و ابتعد قليلاً ، كما أخبرنا بالابتعاد عن الرأس أيضاً ، و التفت إلى الحارس الآخر ، و وجّه له نظرة تخفي بين طيّاتها جملة :

" راقب ما سيحصل برفيقك هذا "

و قلبَ الدلو ، مفرغاً ما فيه أرضاً ، لتخرج منه حشود من الحشرات المختلفة ، التي اتجهَت فورما تخلّصت من سجنها إلى الرأس البارز أمامها ، و راحت تلتهمه بنهم ، كأنّها كانت جائعة لأيام و وجدت أخيراً وليمة شهية ، رأس حارس عديم الضمير و الرحمة ، مليء باللحم و الشحم ، سيكفيها غذاءً لأسبوع

صرخ الحارس هلعاً و ألماً ، و استمرّت صرخاته بينما تأكل الحشرات جلده و تدخل بعضها في فمه و تمزّق أخرى عينيه

التفت أوليمبا إلى الحارس الآخر الذي كان يرتجف خوفاً

أجزم أنّه يكاد يبول في موضعه ، قال ديفيديوس :

- هل ستجيب عن أسئلتي ؟

هزّ الحارس برأسه إيجاباً ، بينما يركّز نظره على رأس رفيقه الذي لا تزال الحشرات المتوحشة تلك ، تأكله حيّاً ، انتظرنا حتى سكنَت أصوات نحيب الرأس المفزعة ، و من ثم اقترب ديفيديوس من الحارس و سأله سؤاله الأول :

- أهناك نقطة ضعف في القصر نستطيع استغلالها ؟

صمت الحارس قليلاً ، و رفع رأسه مجيباً بصوت المغلوب على أمره :

- هناك نفق سرّي ، يبدأ من الجدار خلف عرش الحاكم

و ينتهي بكهف الجزاء خارج القصر ، يُستخدم هذا النفق لتهريب الحاكم في حال الخطر

- يا للجبان ، يهرب من نفق خلف عرشه

سألتُ أوليمبا هامساً :

- أين يغدو كهف الجزاء ؟

- يبعد هذا الكهف عن القصر قرابة الساعة ، في مكان ناء عن المملكة ، كما سمّي بهذا الاسم بسبب مقتل أحد الملوك الظلمة قبل مئة عام في ذلك الكهف ، فسمّي بـ"كهف الجزاء" لأن الشعب عاقب حاكمه على جرائمه و لقيَ جزاءه الذي يستحقه فيه

أومأت برأسي مركزاً ، فتابع ديفيديوس:

- كنت أعلم أنّك ستفضّل حياتك على حياة الحاكم .. و الآن السؤال الثاني : كم عدد حرّاس القصر ؟

أجابه الحارس بتوسّل و رجاء :

- لا أدري ، هذا السؤال لا أعرف له من جواب ، أرجوك صدقني

- حسناً حسناً ، أنا أصدقك ، فنحن أصدقاء الآن كما تعلم

لننتقل للسؤال الثالث : أين يقع مرعى الخيل في القصر ؟

ردّ الحارس بسرعة :

- يقع في الجزء الشمالي من القصر ، في الطابق الأرضي هناك يحتفظ بجميع خيله

استدار ديفيديوس صاعداً على الدرج ، فقال أوليمبا :

- ماذا سنفعل به ؟

توقف ديفيدوس و قال دون أن يلتفت :

- دعه لي ، قريباً سترى

سلام

استدعاني القائد ديفيديوس إليه ، على تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، كنت نائماً بين رفقائي الجنود ، حتى أيقظني أحدهم يبلغني أمر الاستدعاء الفوري و العاجل

نهضت و قد ارتديت بعض لباسي و أسرعت إليه ، كان يجلس على إحدى صخور الكهف البارزة ، و قال موجهاً حديثه إليّ بنبرة الواثق :

- سلام ، أنت أهمّ مقاتل من رجالي ، و أكثر من أثق به من بين هؤلاء الأربعة آلاف ، لذا سأكلّفك بمهمة جريئة ، و ضرورية جداً لنا

- تفضل سيدي ، أنا في خدمتك

- كما تعلم ، عدد رجالنا يزداد مع مرور الأيام ، و ليس لدينا من الخيل ما يكفي لربع العدد ، لذا فعلينا كما ترى الآن ، أن نأتي بأكبر مقدار من الخيل نستطيع جلبه

- و كيف سنفعلها ؟

- بعد أن استجوبت أحد الأسرى من الحرّاس ، أخبرني عن موقع مرعى الخيل في القصر ، و هو في شمال القصر في الطابق الأرضي ، أيّ أنّنا نستطيع تحطيم الجدار الشمالي

و بذلك يقودنا مباشرة إلى المرعى ، لذا سأرسلك على رأس ثلاثمئة رجل ، لتأتوا بأكبر عدد من الخيل ، و احرصوا على عدم اكتشاف أمركم حتى تغادروا

- أنا طوع أمرك ، لكن متى سننفّذ هذه العملية

- الليلة

- الليلة ؟

- نعم ، الليل هو الأفضل للقيام بمثل هذه العلمية الخطيرة

فأنتم ستقتحمون القصر يا سلام ، فإذا ما تهافت عليكم الحرس فستكون مشكلة كبيرة ، فلا ندري شيئاً عن عددهم ، اجمع ثلاثمئة رجل كما أخبرتك و انطلق الآن و بسرعة

- حاضر سيدي

أسرعت بإيقاظ النائمين ، لأعدّ منهم ثلاثمئة مقاتل و آخذهم معي

في ظلمة الليل و سوداه ، و تحت النور الأبيض المتدفق من البدر في السماء ، الذي ينعكس ضوؤه على ذرّات الثلج المتلألئة بسكون ، كنّا نسير بسرعة ناحية القصر ، مراقبين بأعيننا ذلك القصر ، النائم ، فعدد قليل من الحرس كان مرئيّاً

و الباقون في الداخل

كان الظلام يحاوط المملكة ، بمدنها و خرابها ، بعدما قرّر الحاكم الظالم تدمير بلاده بيديه ، و الاستمتاع بحطامها و انهيارها ، و صرخات أهلها المساكين ، و بكاء أطفالها و نحيب نساءها

التففنا حول القصر إلى الجهة الشمالية ، حيث التزمنا بالهدوء و التروّي ، لأقصى درجة ممكنة ، هدوء مطبق على الجوّ العام للقصر ، لا صراخ و لا صوت وقع أقدام

أمرت رجالي ببدء تحطيم الجدار ، باستخدام بعض الأدوات الحديدية ، و أمرتهم بشدّة ، بحرصهم على عدم إصدار أدنى ضجّة ممكنة ، راحوا يضربون بفؤوسهم على حجارة الجدار كما أرسلت بعض الرجال لمراقبة أوضاع القصر ، و إبلاغنا في حال حدوث أيّ خطر أو تغيير في المكان

تابعنا على حركتنا تلك ، و استطعنا فتح فتحة ممتازة ، يعبر منها خيلان متجاوران

- ادخلوا بهدوء و سرعة ، و أخرجوا أكبر عدد من الخيل لنا

نفّذوا الأمر و دلفوا بين ألوف الأحصنة المتفاجئة ، و راحوا يُخرجون لنا حصاناً بعد آخر ، بينما يهتم باقي الرجال بمهمة تجميع الخيل و الحفاظ عليها

حتى اقترح أحدنا فكرة **السلسلة** ، و هي ربط الخيول بعضها ببعض بحبال قوية ثخينة ، و ما أن تسير المجموعة الأولى منهم ، حتى تسير التي تليها ، و التي تليها

إلى أن تتبعها كامل الخيول الأخرى ، خفت في البداية من عدم نجاحها و توريطنا بمشكلة كبيرة ، و على الرغم من الاعتراضات التي لاقتها تلك الفكرة ، إلا أنني وافقت عليها في النهاية

غدا عدد الخيول المسروقة حتى الآن ، قرابة الألف خيل

و هو عدد ممتاز في الواقع

كدنا أن نهمّ بالرحيل ، لولا أنّ أحد الرجال طمع بالمزيد

أجبته :

- لن نخاطر ، هيّا ، علينا الذهاب

- لا ، اسمع ، لو جلبنا المزيد ، سيسعد القائد و قد يكافئنا

- أرجوك ، كفاك طمعاً ، دعنا نرحل قبل أن يكتشفوا أمرنا

لم يصغي لكلامي ، و دلف إلى المرعى متجاهلاً الاعتراضات نظرنا إليه ، فإذ به يحاول ركوب إحدى الخيول :

- ماذا تفعل !! كفاك استهتاراً و تعال بسرعة

- انتظر و كفاك جبناً ، دعنا نتسلّى قليلاً

- نتسلّى ؟ أتظننا في لعبة ؟ تعال بسرعة قبل أن يخرج الوضع من أيـ

تجاهل حديثي و أكمل ما يفعله ، حتى هاج الحصان هياجاً شديداً ، و أسقطه من عليه ، بعد أن أطلق صوتاً صدح وسط هذا الهدوء و قطع أوصال الصمت ، صرخات حرّاس جاءت من القصر ، و مجموعة منهم رأتنا و انطلقت نحونا :

- انطلقوا بسرعة !!

صعدت على حصاني و انطلقت مسرعاً ، بجانب مجموعات الخيول المتسلسلة وراء بعضها البعض التي راحت تجري معنا

علينا عدم أخذهم إلى كهفنا ، فتلك ستكون مصيبة عظمى نظرت في المكان من حولنا ، فلم أجد سوى إرسال مئتي رجل منّا ، لقتال الحرّاس الذين تبعونا ، و مئة تحافظ على الخيول

و توصلها للكهف ، بهذا سنكون عقبة في طريق الحرس و لن يستطيعوا اللحاق ببقية رجالنا و معرفة موقع كهفنا

استدرت بخيلي ناحية الحرس المنطلقين إليّنا ، و أمرت الرجال بتطبيق الخطة الجديدة

كان عدد الحرس يُقدّر بخمسين حارس أو سبعين ، أيّ من المفترض أن نتفوق عليهم

تلاقى الجيشان و اصطدما ، كنت أقاتل بسرعة لعلّنا ننتهي قبل مجيء باقي الحرّس من القصر ، لا نريد أن يأتيهم دعم أو مدد

ديفيديوس

عاد من الرجال الثلاثمئة ، مئة فقط ، حينما رأيتهم بهذا العدد القليل فُجعت ، فسألتهم :

- أين المئتين ؟

- لقد توقفوا لقتال الحرس ، و جئنا نحن مع ألف من الخيل

هذا أمر من سلام

- ألف من الخيل ، هذا عدد جيّد

ثم فكّرت قليلاً ، ماذا حدث يا ترى معهم ، أمرتهم بإدخال

الخيل إلى الكهف ، فهناك قاعة أخرى كبيرة تتسع لهم ، انتظرت بضع دقائق ، حتى استحالت الدقائق لساعة ، و من ثم رأيتهم من بعيد آتين ، فرحت في الحقيقة ، لأنهم نجحوا

و بعدما جاء سلام ، أخبرني عن هزيمتهم للحرس ، و عن تصرفه السريع في تلك الحادثة ، حينما توقف ليقاتل الحرس مرسلاً مئة توصل الخيول ، أعجبتني سرعة بديهة سلام

طلع الصبح و أشرقت الشمس ملقية بحبال نورها على الثلوج و التلال و الأنهار ، و كان اليوم مختلفاً عن أيّ يوم آخر ، لا أدري ، لكن هناك شيء مختلف فيه عن باقي الأيام ، غنّت العصافير أغانيها و أنشدتها ككل صباح ، و جرَت السحب في السماء ، وراء بعضها بعضاً ، بمجموعات متفرقة ، كأنّها أسماك السماء ، تسبح فيها بسلام و أمان

خرجت مجموعة من العامّة لبدء تدريبها تحت تعليمات الرجال المكلّفين بهم ، و نهض أوليمبا من مرقده ، و تبعه نوح

قال نوح و هو يتثاءب :

- أين العاشقان الولهانان

- لم أرهما

نظر إلى الصباح من بوابة الكهف :

- لا أدري ما الذي يفعلانه كل يوم ، أستيقظ فلا أجدهم و من ثم يعودان بعد فترة

قال أوليمبا بينما افترش الأرض جالساً :

- و ما شأنك بهما يا نوح ، هذه حياتهما ، دعهما يستمتعان بها و يعيشانها كيفما أرادا

- ليتني أتزوج لأنهي هذا العذاب

قلت سائلاً :

- عن أيّ عذاب تتحدث

- عن أيّ عذاب !! أراهما كل يوم يتغازلان و يتحابّان ، يتشاجران و خلال بضعة دقائق يتصالحان ، و من ثم يعيدان المشاجرة و الصلح مراراً و تكراراً ، هذا هو الحب ، و أنا أغار منهما و أريد تجربة الحب مثلهما

قال صوت آخر :

- قد لا تستطيع يا أيها المسكين

التفتنا إلى بوابة الكهف ، فإذا بيونس يدلف إلينا ، و بجانبه أسيل تمسك بيده ، قال أوليمبا :

- لقد جاء العاشقان

تابع يونس كلامه :

- الحب لن يأتي بهذه السهولة كما تعتقد ، و أنا لحسن حظي

نظر إلى وجه أسيل مبتسماً و أردف :

- و أنا لحسن حظي ، جاءني الحب منذ الصغر ، و تمثّل لي على شكل هذه المخلوقة .. هذه البطريقة

قالت أسيل بضحكة :

- برج إيڤل

كان نوح على وشك الرد ، لولا أن جاء أحد الرجال و قال لاهثاً :

- سيدي ، سيدي !!

تقدّمت إليه بقلق :

- ماذا حدث ؟ ماذا هناك ؟

- لقد أصدر الحاكم أمراً بهجوم خمسمئة حارس ، على عشرين مدينة ، سيدمّر أكبر المدن لدينا !!

صرخت بصدمة :

- ماذا !!

قال أوليمبا وقد وقف :

- ماذا يفعل هذا المخبول !! أجنّ جنونه أم ماذا !!

صحت صوتاً صدح في الكهف ، و أيقظ النائمين :

- فليأتني ألف رجل بسرعة !!

قال أوليمبا :

- لن تذهب وحدك ، سآتي معك

- لا !! عليك الاعتناء بالبقية ، سأذهب بمفردي

ركبت على حصاني و انطلقت مسرعاً باتجاه أقرب مدينة على رأس ألف رجل ، وصلنا إحدى المدن التي كان الحراس يبطشون بها و بأهلها ، و يشعلون النار بمنازلها ، الموت كان يجري بعروقهم ، مع الدماء

ضربت رقبة كل أحد أقابله ، طاقة غريبة تتفجّر منّي ، لن أدع الحاكم يفعل ما يريد بهؤلاء الضعفاء ، كنت قد ضربت رقبة مئة منهم دون كلل و لا ملل ، و رجالي لم يهدؤوا حتى قضوا على أكثر الحرس ، و هرب الباقي منهم بعيداً

فور انتهاءنا من أول مدينة ، انتقلنا إلى المدينة التالية

و التي كانت مدينة " **آرلا** " كان الحرّاس يضربون الناس

و يطعنون الرجال و النساء سوية ، لا فرق بينهما الآن ، تدفّقنا إلى المدينة صارخين صرخات التمرّد و بدأنا القتل ، كانت كل مجموعة من الرجال ، تتكالب على حارس واحد ، و ذلك لكثرتنا مقابل عددهم

قابلت أحد القادة المعروفين ، و الذي كان يدعى

" **ڤينيسيوس** " له جسد ضخم كباقي الحرّاس ، و يرتدي دروعاً صلبة حمراء ، بشعر أسود طويل و خوذة حديدية ، بعيون حادّة بشعة ، يتجلّى فيها الشر و القتل و الدماء ، الخراب و الموت ، الكره و الحقد ، كل ما هو سيء تجده في تلك العينين ، حمراء ، حمراء هي كالنار ، نار تحرق الناس و منازلهم و مدنهم و العالم أجمع ، يعشق سفك الدماء ، يعشق تقطيع البشر ، يعشق سماع رنين صرخاتهم المعذّبة المتألّمة ، هو تجسيد الشر بنظرته الحاقدة تلك ، يحمل سيفاً تلوّنه الدماء و تتقطّر منه ، دماء بريئة ، لم تفعل شيئاً خاطئاً ، سوى الولادة في أرض الجحيم هذه

تلاقت عينيّ بعينيه ، و تأهَّبَت أعضاءنا و أرواحنا للقتال ، كرّرت في نفسي

" حتى و إن سقط القائد صريعاً ، سيستمر القادة أمثاله في الظهور ، و لن يذهب دمه المتدفق سدى ، سيتابع شجاعٌ غيره ما بدأه ، و سينتصر "

زفرت بهدوء ، و ترقّب ، و انطلقت نحوه ..

نوح

كنت جالساً مع أسيل أمام الجبل ، نراقب تدريبات العامّة ، كانت السماء صافية ، و قد تجرّدت من الغيوم ، الطقس قد غدا أبرد من ذي قبل ، قالت أسيل :

- يونس ، متى سننجب طفلاً ؟

- لا أدري ، فلا نعرف حتى الآن متى ستنتهي الحرب و نعود لأرضنا

- في الحقيقة ، أخاف أن أموت قبل إنجاب طفل منك

التفت إليها ، و أمسكت يديها ، و رحت أتأمّل عينيها البنيّتين الجميلتين ، ذوات اللهب البني الذي يحرق روحي ولهاً ، أسير بين يديها أنا ، منذ زمن ، و سنوات ، و أعوام ، و سأبقى ، كما قال رفعت اسماعيل في إحدى قصص ما رواء الطبيعة :

حتى تحترق النجوم وحتى .. تفنى العوالم ..

حتى تتصادم الكواكب، وتذبل الشموس ..

وحتى ينطفئ القمر، وتجف البِحار والأنهار ..

حتى أشيخ فتتآكل ذكرياتي..

حتى يعجز لساني عن لفظ اسمك..

حتى ينبض قلبي للمرة الأخيرة ..

قلت لها بصوت مُغرم :

- اسمعي ، و أنصتي جيّداً ، لن أدع خطراً يمسّكِ هنا ، سأكون معكِ دائماً ، سأنقذكِ **مهما حدث**

- أيعني هذا أنّك ستكون بطلي ؟

- نعم ، بالتأكيد

- إذاً ، بطريقتك تثق بك يا بطلي

ضحكنا سوياً ، حتى قاطع ضحكاتنا صوت جلبة كبيرة ، جلبة من نوع يُقبض القلب ، قالت أسيل و هي تلتفت حولها :

- أشعر بعدم الارتياح لسبب ما

قلت لها :

- صه ! هناك شيء ، دعيني أصغي

انتظرنا قليلاً ، حتى رأينا جيشاً من الفرسان يتّجه نحونا صرخت بأسيل : بينما أنهض مسرعاً :

- قومي بسرعة !!

نهضنا واقفين ، و لم نتحرك خطوتين حتى وجدنا أنفسنا محاصرين من بعض الفرسان ، بينما هاجم الباقون العامّة الذين يتدربون و صعد منهم إلى الكهف ، خبّأت أسيل وراء ظهري ، و أشهرت سيفي في وجوههم ، قال أحدهم :

- يا فتى !! أنزل سيفك هذا ، و إلا حطمته على رأسك

حاول أحدهم الاقتراب ، فضربته بالسيف على خوذته ، التي انقسمت نصفين و سقطت أرضاً ، اشتعل غضباً و قال بينما يمدّ يده نحوي :

- كيف تجرأ على ضربي أيّها القذر !!

كاد أن يضرب عنقي ، لولا أنّه لاحظ كيف أحاول حماية أسيل خلفي ، فتبسّم بخبث و قال مشيراً إليها :

- أهذه زوجتك ؟

و من ثم نظر إلى الفرسان الآخرين ، و تضاحكوا بينما أمسكوني بسرعة و قيّدوا حركتي ، و جرّ أحدهم أسيل معه بعد أن قيّدها ، قال الفارس الذي هاجمته :

- شكراً لك ، ستكون زوجتك جارية شهيّة

بعدها ضربني حتى أدماني و جعل يحفر بسكين معه على كتفي كلمة (عاجز) و من ثم بصق عليّ و رحل ..

صعدوا على خيلهم بينما أتلوى أرضاً بين دمائي أحاول فكّ حبال قيّدوني بها ، دمعت عيناي بينما أنظر إليهم يأخذونها

و أنا لا حول لي و لا قوة ، رحت أضرب رأسي أرضاً

و أصرخ : أسيييل !

قتل الفرسان من كان يتدرب و هاجموا الكهف ، و أغلب ظنّي أن حدثَت معركة في الداخل ، فقد خرجوا مسرعين يلحقون رفاقهم

استجمعت قواي بينما أنزف و قمت على قدميّ أمشي بصعوبة إلى الكهف ، وصلت إلى منتصف الطريق حتى جاءني أوليمبا عندما رآني و ساعدني ، وصلت إلى الكهف ، و جلست أرضاً بينما يساعدني أحد الأطبّاء ، و يضمّد جروحي

عشرات القتلى متناثرين هنا و هناك ، قلت لنوح الذي كان يتفحّص أحدهم :

- عدد رجالنا أكبر بكثير من عدد الفرسان الذين جاؤوا ، لمَ لم يخرج إلا القليل منهم ؟

ردّ نوح بهدوء :

- أنا الذي أمرتهم بعدم الخروج ، لكيلا يروا عدد رجالنا

نظرت مندهشاً إلى أوليمبا الذي كان مليئاً بالجروح ، و قال لي هامساً :

- لقد اختبأ مع الرجال في الأسفل

قلت لنوح بصراخ :

- هل تركت أوليمبا يقاتل بمفرده مع بضعة رجال ؟؟؟

قال نوح :

- هذا لمصلحتنا

قلت بينما وقفت :

- أيّ مصلحة هذه ؟؟ أن تترك رجالنا و صديقك يموتون ؟

التفت إليّ غاضباً ، و صرخ :

- في غياب ديفيديوس ، أنا القائد

قلت بدهشة :

- نوح !! ما الذي دهاك ؟

صمت متجاهلاً قولي ، فقلت له متذكراً :

- علينا إنقاذ أسيل بسرعة

- و ما شأني ؟

- سآخذ الجيش و ابقَ هنا أنت

صُدم و قام منتفضاً :

- هذا مستحيل !! لن أحرّك جيشاً لأجل فتاة !!

- هذه زوجتي !! ثم ، مَن نصّبك قائداً علينا ؟؟

- أنا نصّبت نفسي ، الأولوية لي ، فجدّي كان عبدالله اللورداني و بما أني حفيده فإني الأجدر بالقيادة

- لا يهمني من جدّك ، عليّ إنقاذ زوجتي مهما كلّف الأمر

- انسَ أمر زوجتك ، يمكنك الزواج بأربعة غيرها

- ماذا تقول أيها الـ..

قاطعني :

- كفاك محاولة ، لو أردت الذهاب لنجدة زوجتك ، فاذهب لوحدك ، أما الجيش فسيبقى هنا

- هذا آخر ما عندك ؟

- نعم ، هذا آخـ..

لم يستطع إكمال جملته ، لأنني أمسكت بصخرة و ضربته بها على رأسه ، سقط أرضاً فاقداً وعيه ، و من ثم هرعت إلى قاعة الكهف الرئيسة ، و صرخت بأعلى صوتي بالرجال :

- فليتبعني الجميع ، لقد بدأت الحرب !!

وقفت على بوابة الكهف أستعدّ للانطلاق ، فجاءتني آزكا قائلة :

- سأذهب معك

- عليكِ البقاء عند النساء ، فلا ندري ما القادم

جاء سلام معتلٍ حصانه ، و قال بعد أن نظر إلى نوح للحظات:

- ما به ؟

أجبته بينما أضرب حصاني للانطلاق :

- مسكين ، لقد نام مرهقاً من كثرة تعبه في القتال الأخير ..

خرجت على رأس خمسة آلاف رجل ، فعددنا الأصلي هو ستة آلاف بعدما جاءتنا دفعة كبيرة في الأيام الأخيرة ، لكن ديفيديوس اصطحب معه ألفاً فبقي لنا خمسة آلاف ... لم أكن أدري أكان صواباً ما أفعل أم لا ، لكنني وعدت زوجتي و سأفي بوعدي مهما تطلّب الأمر ، سأحطم القصر فوق رأس الحاكم حتى أستعيد أسيل ..

فجأة ظهر فارس ملثم يجري بحصانه بشكل يوازينا ، أبطأنا من سيرنا حتى توقف أمامي ، و كشف عن لثامه فإذا هو أوليمبا ، حيث أنّه لم يكن موجوداً حينما ضربت نوح ، فقد أخذه الطبيب بعيداً ليغسل له جرحه ، قلت له بحدّة :

- أستقفَ في وجهي يا أوليمبا ؟

- لديّ سؤال واحد فقط

- تفضل ؟

- أسترضى زوجتك أن نخسر الحرب بحركة طائشة من زوجها ؟ أسترضى زوجتك أن تكون السبب باستمرار معاناة الشعوب ؟

- إلى متى سنختبأ يا أوليمبا ؟ ألست أنت صديق عبدالله ؟ ألم تكن مهمتك مساعدتنا بحربنا ؟

- هذه الحرب ليست حربك يا يونس ، هذه حرب لوردا ، أنت من أرض أخرى و عالم مختلف

- منذ أن أسروا أسيل ، و انتشلوها مني ، أصبحت الحرب حربي ، و الأرض أرضي ، و الثأر ثأري

زفرت بعنف و أردفت :

- لذا ، كن معي ، أو ضدّي

نظر إليّ لوهلة ، و تحرّك بفرسه ليقف بجانبي ، قال بعد لحظات :

- لقد كنت معنا يا يونس ، في حربنا ، على الرغم أنّها لا تعنيك بشيء ، كان يمكنك الذهاب مع زوجتك و العودة لكنك آثرت ، و بقيت معنا ، لأنّك لا تريد أن تتركنا في

محنتنا هذه ، فها أنا أردّ جميلك ذاك ، و أقف في حرب لا تعنيني .. لذا ، انطلق يا يونس ، فإنّي معك ..

أسيل

رمى الحارس أمامي إحدى الجواري ، و أمسك رمحه ، قال لي:

- انظري إلى هذه ، سنتسلّى قليلاً بها ، قبل أن نتسلّى بكِ

كنّا في إحدى الغرف التي يعتنون فيها بالحمير و البغال ، الأرض كلّها قشّ و أعشاب مختلفة متيبّسة ، نافذة صغيرة في الجدار ، تدخل منها خيوط الشمس تنير ظلمتنا ، حارس بوجه مستفزّ ، ينظر إلى فتاة من الجواري ، ضعيفة ، نحيفة كعود الخشب ، ذليلة مذلولة ، تضع رأسها أرضاً لا ترفعه ، أما أنا فكنت مقيّدة ، بحبل ثخين ، جالسة أرتعد خوفاً في زاوية الغرفة

قال جملته تلك ، و ركلها على ظهرها ، صرخَت ألماً ، لكنّه أتبعها بركلة على وجهها ، سمعت معها تكسّر فكّها ، تساقطَت أسنانها أرضاً و سالت الدماء من فمها ، بينما راحَت المسكينة تتلوّى ..

انحنى الوحش و التقط بيده كومة من التراب ، و من ثم اقترب من الفتاة و حشى فمها بها ، و عندما حاولَت المقاومة ، ضربها بقبضته على فكّها السفلي ، فسقطَت برأسها و هي تجهش

بالبكاء و النحيب ، تتوسله بتركها و رحمتها ، لكنه أخذ رمحه و دار حولها مرّتين مبتسماً ، و قال لها :

- الجحيم ينتظركِ يا فتاة

رفع رمحه عالياً ، و غرسه بساقها ، و راح يدوّره في لحمها و يفتله ، جعلَت تضرب بيدها على الأرض و تصرخ حتى كادت تتقطّع حبال صوتها ، لكنّه مع ازدياد صراخها ، تزداد ضحكاته ، أخرج الرمح من ساقها ، و غرسه بسرعة بيدها

و أتبعها بظهرها ، صارت تضرب برأسها الأرض حتى أدمته و راحت تنتفض بجسدها بعنف صارخة : اقتلني **!!** اقتلني .. اقتلني **!!**

سحب الحارس رمحه من ظهرها ، و قال بسخرية :

- لدينا وقت طويل يا عزيزتي

و تلمّس جسدها بيده بقذارة ، و قال :

- هناك أشياء جميلة لم نفعلها بعد

لم أتحمل المزيد ، من رؤية هذا الجحيم ، فهتفت بحقد بأعلى صوتي :

- اتركها أيّها الخنزير !! اتركها يا وحش ، اتركها سأقتلع عينيك

فورما سمع كلماتي ، ضرب عنق الفتاة برمحه ، ففاضت روحها إلى بارئها ، و التفت إليّ بخبث ، و عينين تقدحان شرّاً:

- فكرة اقتلاع العيون ، جميلة جداً

وضع النتن يده على عيني و قال :

- علينا تجربتها

عضضت اصبعه بقسوة ، فسحب يده كاتماً صرخة في نفسه :

- ابتعد عنّي !! لا تلمسني أيّها الـ

سحب سيفه و الضغينة تتجلّى في حر، و وجّهه نحوي ، جعل يقرّبه من عينيّ رويداً رويداً :

- سنفعل ذلك ببطء ، لكيلا ينتهي الأمر سريعاً

دمعت عينيّ و صحت صارخة :

- يوووونننس !!!

- لا تصرخي ، لا تصرخي ، فصوتكِ مزعج يا هـ..

خُلع باب الغرفة و اقتحمه رجل بحصان أهوج ، و دفع الحارس بفرسه ليرتطم بالحائط و يسقط أرضاً ، قال بينما يفكّ لثامه :

- نعم يا بطريقتي ؟

ابتسمت له بعينين اغرورقتا بالدموع ، فترجّل عن حصانه

و نظر لحظة للفتاة الميّتة ، المعذّبة ، التي تسبح ببركة من دماءها ، فرفع رأسه بكره نحو الحارس

أمسك الرمح الراقد على الأرض ، و تأمّل رأس الرمح المغطّى بالدماء ، و من ثم غرسه بقسوة في ظهر الحارس صرخ الحارس بشدة ، ليقول يونس :

- هذه لأجل الفتاة

و سحبه ، فقال الحارس :

- أرجوك ، دعني فقط أشـ؟...

غرسه بعينه اليسرى التي تفجّرت دماً ، فصاح الحارس هلعاً و وجعاً .. فسحبه مرة أخرى :

- و هذه لأجل أسيل

قرّب رأس الرمح الحاد من عينه اليمنى ، و قال :

- سنفعلها ببطء ، لكيلا تنتهي اللعبة سريعاً

صاح الحارس بتوسّل و ترجّي بينما أجهش بالبكاء :

- أرجوك ، أرجوك أتوسل إليك ارحمني

قال يونس بحزم :

- **لا رحمة للوحوش**

و همَّ بغرس الرمح بعينه ، لكنني صرخت قبل أن يفعلها :

- يونس !! أرجوك ، لا تفعلها ، دعه سيلقى جزاءه بعد مماته ، لا تكن مثله أرجوك

توقف يونس للحظات ، و زفر بحنق ، ثم نظر إلى وجهي و الدمع لم يجفّ بعد ، عن خدّيّ ، و كاد أن يستدير ليبتعد عنه لكنه غرس الرمح في عين الحارس و من ثم أخرجه بسرعة و غرسه بفمه حتى خرج من الجهة الأخرى من رقبته ..

مشى نحوي و فكّ وثاقي ، قال و العرق يتقطّر من جبينه على الرغم من برودة الطقس :

- لن أسامح من كان سيلحق الأذى بكِ ، أنتِ الأهم لديّ يا أسيل

نظرتُ إلى الخارج لأرى رجالاً من رجالنا يهاجمون بعض الحرس ، و سألته بتعجّب :

- رجالنا في القصر ؟ كيف حدث هذا ؟ نحن لسنا مستعدّين للحرب بعد

انتهى من فكّ عقدة الحبل و نزعه عنّي ، و من ثم ساعدني على الوقوف ، و قال مبتسماً :

- **لقد حرّكت جيشاً كاملاً لأجلكِ**

أوليمبا

عشرات من الحرّاس يهاجمونني ، و قد تعرّفوا عليّ ، فكنت أداة للتسلية و تمضية الوقت لسنوات لهم ..

أسرع واحد منهم إليّ مشهراً سيفه في وجهي ، لأضرب يده بالسيف و أقطعها من الكوع ، تدفّق دمه بغزارة وسط صرخاته و هو يرى يده على الأرض جامدة ..

لا تشفق على هؤلاء القوم فهم وحوش يعذّبون المساجين كلّ يوم ، و حرقوا الكثير من المدن و دمّروها وسفكوا دماء أهلها ، يستحقون العذاب الأبدي ، و لا شيء غيره ، لذا سأفعل بهم ما يجب أن يُفعل ..

ضرب أحدهم ذراعي بعصا حديدية ، سبّبت لي ألماً مبرّحاً

و مع ذلك ، فإنّي لم أستسلم ، فأدخلت سيفي بأحشاءه متجاهلاً ألم ذراعي ، التفتُ للأخير ، لأجده قد تلقّى ضربة قاتلة من أحد رجالنا ، كدت أن أهمّ بالمغادرة ، لكنني لمحت شيئاً ، لمعَت له عيني ، بذكريات قريبة ، تمعّنت جيّداً ، بذلك القصير ، ذي الوجه المدوّر ، و عينيه الخبيثتين ، يختبأ بجبن في الحمام

لكنني أقف بزاوية أراه و لا يراني منها ، تقدّمت مسرعاً إليه و أمسكته من قميصه الخشن ، و قلت له بابتسامة بعد أن التفت إليّ و اتّسعَت عيناه :

- لقد أوصيتني حينما أتحرّر و أعود ، أن **أقتلع عينيك** ، أتذكر ؟؟

سلام

دفعت جثّة الحارس البدين عن جسدي ، التي سقطَت عليّ حينما ضربة صاحبها ضربة أردته قتيلاً

و نهضت لأضرب أحد الحرّاس الغير منتبه لي ، هويت بكوعي على رأسه الكبير ، و فقد وعيه بعد أن ترنّح ساقطاً أرضاً ، لكنني لم أكن لأدع واحداً من هذه المخلوقات حيّة

ما دمت أستطيع قتله ، فضربت عنقه بسرعة ، و أسرعت بالتوجه لمخادع الجواري ، بعد أن سمعت يونساً يصيح لي من بعيد :

- اذهب و حرّر الأسرى

خلعت الباب الخشبي المقفل ، و اقتحمت الغرفة الطويلة

و التي كانت فيها فتيات متّسخات ، تجلسن بخوف في مرعى للحمير !! ما هذا الذلّ !! قلت لهن بينما أكسّر الأسوار الخشبية بسرعة :

- اخرجن ، اخرجن من هنا ، هيّا بسرعة !! ألا تسمعنني

تدفّقَت الفتيات للخارج ، مسرعات ، متعثّرات ، و توجهتُ مباشرة لغرف العبيد ، و أخرجتهم ..

عشرات من المقاتلين يتساقطون تباعاً ، فأعداد مهولة من الحراس ظهرت من حيث لا ندري ..

صاح يونس بالانسحاب و المغادرة ، فسرنا مسرعين للبوابة بينما لحق بنا جيش من فرسان القصر ، خرج معظم رجالنا و بقيت مع يونس و أسيل و بعض الرجال ، نركض نحو البوابة ، لكن قبل أن نغادر القصر ، صدح صوتٌ قويّ حادّ في المكان قائلاً :

- **من أنتم ؟**

نظرنا إلى مصدر الصوت ، لنرى رجلاً يقف بعيداً على شرفة صغيرة بيضاء ، يرتدي دروعاً سوداء ، و خوذة تغطّي وجهه ، كان ذلك **الحاكم** ، أجابه يونس بينما أدار ظهره و أكمل مشيه :

- نحن **حماة لوردا**

نوح

فتحت عينيّ لأجدني ممدّداً على الأرض ، وحيداً في الكهف من الرجال ، فكثير من النساء في القاعة الكهفية ، عرفتهن من صوتهن الآتي من القاعة الكهفية ..

نهضت و نظرت نحو المدن ، ماذا حدث ؟ هل ضربني يونس ذلك المخبول على رأسي ؟ اتّسعت عيناي ، و أنا ألتفت حولي يمنة و شمالاً ، أأخذَ جميع الرجال من أجل زوجته ؟ يا للـ...

رأيته بعد ساعة عائداً على رأس الجيش ، الذي نقص كثيراً لقد أودى حبّه بحياة المئات

وصل إليّ و دخل الكهف ، لأسرع نحوه و أنقض عليه ، رميته أرضاً من على حصانه ، و رحت أضربه بعد أن استطعت تقييد حركته بيديّ ، جرى أوليمبا و سلام ليبعداني عنه ، لكنني دفعتهم ، حينها أفلتَت يداه من يدي التي تمسكهما و ضربني بقبضته على أنفي ، لتنزف منه الدماء نزفاً

و اعتدل بجلسته بسرعة ، ليضربني برأسه على وجهي فأسقط أرضاً أتلوّى ، ركضَت إليه زوجته ، لتطمأن عليه

و راحت تمسك به و تجذبه بعيداً ، قال بتحدٍّ :

- اقترب مرة أخرى ، و سأنهي صداقتنا بأذيّتك

قلت له صارخاً :

- كم واحداً قُتل من رجالنا بسببك ؟

- هذه حرب ، من الطبيعي أن يموت فيها البشر

- ليس من أجل زوجتك !!

تدخّل أوليمبا :

- تبقّى من الرجال أربعة آلاف ، أيّ قُتل ألف منّا

التفت إليه بصدمة :

- ألف !! ألف رجل يا ظالم !! ألا تخاف ربّك ؟؟

قال أوليمبا خارجاً عن هدوءه :

- هدّأ من روعك يا نوح !! لقد هاجمونا و أسروا زوجة صديقنا ، من الحقّ أن نردّ هجمتهم و نسترد زوجته

قال سلام :

- بالحديث عن هجومهم علينا ، كيف عرفوا مكان كهفنا ؟

قال يونس :

- عندما أرسلك ديفيديوس لمهمة الخيل ، ألم تقل أن واحداً منكم بقيَ هناك في المرعى ، بعدما أعماه طمعه بالمزيد من الخيل ؟

ردّ سلام :

- نعم ، هذا صحيح !! إذاً لقد استجوبوه و أخبرهم بموقعنا

آزكا ، التي جاءت من قاعة النساء :

- أهذا يعني أنّ موقعنا مكشوف لديهم ؟ و سيكررون هجومهم علينا ؟

أومأ أوليمبا ، فقلت متذكراً :

- انتظروا ، أين ديفيديوس !! لمَ لم يعد حتى الآن ؟؟

نظر الجميع إلى بعضهم بعضاً بتساؤل ، فقال سلام بقلق :

- أيعقل أنّه قد ...

قاطعه أوليمبا بحدّة :

- لا تكمل !! لا ، أنا أعرف ديفيديوس حقّ المعرفة ، سيعود

قال يونس :

- فليذهب أحد الرجال ليستطلع الأمر

وافقه أوليمبا و تبعته آزكا ، فأمر سلام أحد الرجال بالذهاب قلت بسرعة و قد وقفت على قدميّ :

- علينا جمع أكبر عدد من الناس لنضمّهم إلينا ، فأربعة آلاف لا تكفي ، أعداد فرسان الحاكم تقدّر بعشرات الآلاف

أوليمبا مخاطباً سلام :

- نظّم مجموعات من الرجال ، و أرسل كلّ مجموعة إلى مدينة مختلفة ، و أوصهم بالعودة بأكبر عدد من الرجال في أقرب وقت ، علينا حصد رجال المدن و ضمّهم لصفّنا قبل أن يضمّهم الموت لصفّه

وافقته آزكا قائلة :

- بالأخص ، مع عمليات الإبادة التي يرتكبها الحاكم

قلت :

- لمَ لا نغيّر مقرّنا ؟ فالكهف مكشوف و أصبح مكاناً خطيراً جداً ، سيتم الهجوم القادم في أيّ لحظة ، و قد يأتينا هذه

المرة بجيش يفوقنا قوة و عدداً عشرات المرات ، سيبيدنا نحن بدورنا ، كما يبيد سكّان المدن

قالت آزكا :

- كهف الجنوب هو أفضل مكان

تدخّل أوليمبا :

- بل جبل السماء ، فكهفكِ هذا ، قريب من القصر

قال سلام :

- عذراً ، لكن لا أنت و لا هي .. فجبل السماء تتساقط فيه الثلوج كثيراً و تكثر فيه الانهيارات الثلجية

قالت أسيل :

- و الحل ؟

أردف سلام :

- هناك كهف في وادٍ متوسط العمق ، جيّد ، كبير يتّسع لآلاف الرجال ، كما أنّه يبعد ثلاث ساعات عن القصر ، و هو أسفل جبال **الناراكويا**

قال أولمبيا :

- إذاً ، علينا الرحيل عن هنا في أسرع وقت ، كما يجب تأمين الطريق قبل الذهاب

قال يونس :

- سأذهب أمامكم مع أسيل ، و آخذ معي مئة رجل ، نمشي بعيداً عنكم ، و إن شعرت بخطر فسنرجع مباشرة لإخباركم

وافقته أسيل و قد وضعَت رأسها على كتفه كالعادة :

- رحلة رومانسية خطيرة .

الفصل الثاني عشر

يونس

انطلقنا مع انتصاف الليل ، خارجين من كهفنا ، متجهين نحو جبال **الناراكويا** ، أمتطي حصاناً أبيضاً ، تجلس أسيل ورائي

و يسير خلفي مئة رجل ، أمّا الباقون ، فيسيرون خلفنا على مسافة مئات الأمتار ، مع ما يقارب الأربعة آلاف رجل و آلافاً من النساء ..

كان البدر مكتملاً تلك الليلة ، و السماء صافية متجرّدة من سُحبها ، تتسرّب خيوط من أشعّة نور القمر ، و ترتسم على ذرّات الثلج ، لتبدو قمم التلال و الجبال ، كأنّها تضيء ، بفعل انعكاس النور على الثلج

قالت أسيل :

-هناك أضواء تقترب من بعيد

التفتُ لأرى ، أضواءً كأنّها تصدر من مشاعل كثيرة ، تقترب نحونا ، صحت بالرجال :

- تراجعوا تراجعوا !!

أسرعنا بالعودة إلى جيشنا ، ليستقبلنا أوليمبا بوجه متسائل

قال بتوجّس :

- أهناك خطب ؟

- هناك مشاعل تقترب من موقعنا

حوّل أولمبيا وجهه إلى سلام ، و قال آمراً :

- لنعد

أومأ سلام له ، و أسرع بتنفيذ الأوامر ، عدنا أدراجنا ، للكهف لنكتشف أن فرقة من الحرّاس كانت تقوم بعملية سرّية ليقوموا بمراقبتنا ، لكنهم فور أن رأونا ننظر إليهم من بعيد ، عادوا أدراجهم ، لننطلق مرة أخرى و نمرّ إلى الكهف الجديد بسلام

***

كان الكهف في وادٍ يتجمّع فيه الثلج ، أكواماً ، ذا بوابة كبيرة ..

تستقبلك قاعة واسعة تمتد عشرات الأمتار بشكل شبه مستقيم ثم تأتيك ممرّات متعرّجة تنتهي إلى قاعة كبيرة أخرى ، تتصل بممرّين يفضي كلٌّ منهما إلى قاعة متوسطة الحجم

كان الكهف ممتازاً ، على الرغم من الثلوج التي تملئ واديه بشكل أكثر من المعتاد ، مما يزيد من برودته ، و لا سيّما ليلاً

وقف أوليمبا شارداً ، و قال :

- لم يأتنا خبر عن ديفيديوس بعد

قالت آزكا :

- لقد تركنا رسالة في الكهف للرجل الذي أرسلناه لاستطلاع أمره ، غادر منذ الأمس للبحث ، لابدّ أن يعود قريباً

قال نوح مخاطباً سلام :

- بالمناسبة ، أين قلت لرجالك أن يخبروا أهل المدن بالتجمّع لنجلبهم إلينا ؟

سلام و هو يجلس أرضاً :

- إلى كهفنا هذا

نوح بصدمة :

- ماذا !! أأنت مجنون ، ماذا لو وصل موقعنا الجديد إلى الحرّاس !!

- لا تقلق ، لقد أوصيت كلّ مجموعة أن تجمع جميع مَن سينضمّ إلينا من المدينة التي دخلتها ، و أن ترافقهم إلينا مباشرة لكيلا نحتاج للطريقة القديمة : أن يتجمعوا في مكان و من ثم نرسل إليهم أحداً يأتي بهم

وافقاه على خطّته ، و قال أوليمبا مغيّراً الحديث :

- الأمور تتغيّر ، و المعركة الكبرى تقترب ، و بما أنّنا نجمع أعداداً كبيرة من الرجال ، فقد حان الوقت لتحرير **المتحولين**

تساءل يونس :

- المتحولين ؟

تابع أوليمبا ملتفتاً إليه :

- الثلاثمئة ، الذين تركهم عبدالله اللورداني ، يستطيعون التحوّل إلى شكل يشبه الوحوش ، حينما يريدون ذلك بفضل التعديل الذي فعله عبدالله على حمضهم النووي

قالت آزكا :

- كم يبعد مكانهم عن هنا ؟

- قرابة اليوم أو أكثر

نوح بسرعة :

- سأذهب معك

قلت لهم متدخّلاً :

- و سنذهب أنا و أسيل معكم

قال أوليمبا بينما يمتطي جواده :

- سننطلق الآن لكي نصل غداً ، فليس لدينا وقت نضيعه.

سلام

تُركت مع آزكا ، في كهفنا الجديد ، حيث ذهب أوليمبا برفقة نوح و يونس و زوجته ، لتحرير الرجال المتحولين ، على حسب كلام أوليمبا ، لن يعودوا قبل يومين على الأرجح ..

وصلَت إحدى المجموعات التي أرسلتها إلى مدينة

" **السماسل** " مع ألف من الرجال ، و ألف من النساء استقبلناهم بترحاب ، و قسمتهم إلى مجموعتين ، كل واحدة منها خمسمائة رجل ، و أوصيت على كل منها فرقة من الرجال لتقوم على تدريبها ، استمرّت التدريبات منذ أن أمر بها ديفيديوس ، و غدا لدينا معظم الرجال هنا جاهزين للمعارك

افترشت الأرض أمام جدار الكهف ، و جلست ملتقطاً أنفاسي زافراً هواء التعب و الجهد ، لأرى آزكا قد تقدّمَت نحوي بينما ناولتني آنية مملوءة بماء عذب بارد ، شربته حتى ارتوت عروقي و أعادَت نشاطي إلى قوّته و شبابه ، و ألقيت نظرة عليها حينما جلست بالقرب منّي ، قالت بعد هنيهة :

- كيف ستنتهي هذه الحرب برأيك يا سلام ؟

أطرقت مفكراً بجملتها تلك ، و أجبتها بشرود :

- عدد فرسان القصر ، يتراوح ما بين مئة ألف و مئتين أيّ أنّهم إن أرادوا القضاء علينا ، فسيفعلونها بسهولة تامّة فأعدادنا لن تبلغ ربع عددهم

قالت آزكا بتوجّس :

- أهذا يعني أننا سنخسر الحرب ؟

- ليس حقاً ، قد نفوز بمعجزة ، في الحقيقة لا أدري ، لكن بعد التفكير بالأمر ، ربما نموت قبل أن نعرف نهاية حربنا هذه

أومأت برأسها إيجاباً ، و همَّت بالإجابة لولا أن قاطعها دخول رجل على جواده بسرعة ، ليترجّل عن جواده على عجل ، كان ذلك الفارس الذي أرسلته ليستطلع أمر ديفيديوس ، قال بعد أن استجمع نفسه :

- **لقد قُتل القائد ديفيديوس ، يا سيدي !!**

أوليمبا

وصلنا أخيراً إلى وجهتنا ، بعد يوم كامل من المسير ، كان الصبح يطلع و الشمس تلقي بخيوط شعاعها يمنة و شمالاً على جبال و تلال هذه الأرض ، المغطاة بالثلج ، يكسوها جوّ بارد يستحيل إلى زمهرير حينما يهبط الليل

كنّا متعبين جائعين ، فلم نأكل سوى بعض الفاكهة التي جلبناها معنا ، كما أننا لم ننم إطلاقاً ، توقفنا أمام مستوٍ ثلجيّ ، ترجّلت عن جوادي و تقدّمت قليلاً مستطلعاً عن موقع المختبر ، لم يكن مغموراً بالثلج قبل ألف عام ، لكن على ما يبدو ، أن طبقات الثلج ازدادت خلال العصور الغابرة تلك ..

ركعت على ركبتيّ ، و مددت يدي أزيح كتلة من الثلج عن مكان أشكّ فيه ، و من ثم أخرجت أكواماً من الثلج بعد أن شعرت بوصولي إلى مقصدي ، حتى ظهر جزء من الباب الحديديّ ، ناديت على الرفاق ، ليأتوا و يساعدوني ، فكشفنا الثلوج عن الباب حتى أصبح ظاهراً بأكمله ، ليغدو لدينا حفرة علينا نزولها لنصل إلى الباب ، ففعلنا و من ثم حاولت فتح الباب ، لكنّه كان متجمّداً على ما يبدو ، فتعاوننا على شدّه

لكن دون جدوى ، حتى اقترح يونس إشعال شعلة من النار و تمريرها باستمرار على حواف الباب ، لعلّ الجليد يذوب أو يلين قليلاً ، فأخرج نوح إحدى المشاعل و أوقدنا فيها النار

و راح نوح يمرّرها كما اتفقنا على حواف الباب الحديديّ

حتى تقدّمت لأعاود المحاولة ، و من بعد أربع مرّات من الشدّ فُتح بصعوبة مصدراً صوتاً مزعجاً ، دلفنا إلى الداخل حاملين المشعل المضيء ، و اقترحت على يونس إغلاق الباب بشكل جزئيّ خلفنا ، لكيلا يتسلّل حيوان مفترس إليّنا ، فنقع في مأزق

تقدّمنا بدهليز طويل ذا حجارة قديمة ، و غبار يحتلّ المكان كافّة ، انتهينا إلى غرفة المختبر ، و التي كانت عبارة عن حجرة كبيرة بعض الشيء ، فيها بعض طاولات تستند إلى الحائط الأيمن ، تعلوها أدوات غريبة ، صدئة ، و لوحة تتوسط الحائط لرجل يلفّ عمامة سوداء حول رأسه ، و يرتدي جلباباً أسوداً يبدو عليه القِدم ، كان المكان يعيد إليّ ذكريات جميلة قديمة ، رثّة ، قبل أن أنام لألف عام !

تقدّمنا في الغرفة ، ليسأل نوح متأمّلاً اللوحة :

- مَن الذي في اللوحة هذه ؟

تبسّمت ، و قلت له بحنين :

- إنّه جدّك ، جدّك عبدالله اللورداني

دُهش حينما سمعني ، و راح يحملق فيها باهتمام ، مشى يونس برفقة أسيل إلى الجدار الأيسر ، و الذي كان يرقد أمامه جسم غريب ، لما يشبه الآلة ، تبدو عليها الحداثة ، على الرغم من طبقات الغبار التي غطّتها ، سأل يونس بينما يتلمّسها بأنامله :

- ما هذه ؟

- إنّها الآلة التي رقدتُ بداخلها لألف عام

اقتربت منها و فتحت الغطاء الزجاجي الشفّاف ، و قلت مشيراً إلى جوفها :

- هنا نمت ، و ارتفع سائل شفاف يشبه المياه ، غمرني حتى استيقظت ، أغلقتها مرّة أخرى ، و قلت :

- و هذه اللوحة الصغيرة التي تمكث هنا ، هي لوحة ضبط عدد الأعوام التي تريد إمضاءها في الآلة

- و كيف تعمل ؟ من أين ستأتي بكهرباء دائمة لتبقى على قيد العمل ؟

- لا تحتاج للكهرباء ، بل عبدالله اكتشف طاقة غريبة هنا تستطيع تشغيل الآلة للأبد دون أن يحتاج لتجديدها ، فلقد وضع هذه الطاقة داخل تجويف صغير فيها

- و ماذا لو أن حرباً قامت أثناء رقودك ، ماذا لو حطّمَت الآلة ؟ ألن تستيقظ أو تتأذى ؟

- لا ، لن يحدث هذا ، فهذه الآلة مصنوعة من معدن نادر من الأرض السادسة ، جلبه عبدالله أثناء رحلاته الاستكشافية ، أيّ أن تدميرها مستحيل ، مهما حصل ستبقى آمناً داخلها

قال يونس بدهشة :

- أيعني أن عبدالله وصل إلى الأرض السادسة !!

- بل وصل إلى السابعة أيضاً

قال نوح :

- لم أعرف هذا ، ظننته جاء للثانية و حسب ، أهناك أرض ثامنة ؟

أجبته:

- لا ، إن الأرض الأولى ، التي هي أرضكم ، هي الأرض الرئيسة في مجموعة الأراضي هذه ، لأن الأرض الثانية تحيط بها ، و من ثم تحيط بها الأرض الثانية فالثالثة و تليها الأرض الرابعة التي تحيط بالثالثة ، و هكذا إلى أن نصل للسابعة

سأل نوح :

- و ماذا يوجد بعد السابعة ؟

قلت :

- تنتهي كباقي الأراضي بجدار جليديّ ، لكن المميز فيه أن جليده الممتدّ لا ينتهي ، فلا ندري إن كان الجليد ممتداً إلى أرض أخرى ، أو عالم آخر ، أو أنّه ممتد لللانهاية فمهما حاول البشر تخطيه ، فشلت محاولاتهم

أكملنا سيرنا في الظلام ، الذي يبدّده نور الشعلة التي يحملها نوح ، حتى وصلنا إلى أنابيب زجاجية كبيرة ، تقف عاموديا ً بصفوف كثيرة وراء بعضها البعض ، يرقد بجوفها رجال عاديّون ، يغمرهم السائل الشفاف

قالت أسيل :

- أهؤلاء هم ؟

أجبتها بينما أتقدم إلى أحدهم :

- نعم

كانوا بحالة جيّدة ، ما عليّ لتحريرهم ، سوى وضع كفّي على لوحة بيضاء مثبّتة أمام أحد الأنابيب ، فقد وضع عبدالله نظاماً يُبطل عمل الآلات هذه ، بمجرد أن أضع يدي على هذا الشيء

جثوت عنده على الأرض ، و مددت كفّي لألصقها به

لحظات من الترقّب ، و لم يحدث شيء ، قال نوح بعد أن فقد الأمل :

- يبدو أنّها لن تعمل

أجبته و أنا أسحب كفّي :

- هناك خطب ما ، يجب على الرجال التحرّر

قال يونس :

- لمَ لا نحطّمها و ننتهي

- قلت لكم سابقاً أن تحطيمها مستحيل ، ثم إنّها مصنوعة بطريقة ، لا يمكن تحطيمها سوى من داخلها

فجأة ، صدر صوت من الأنابيب ، وجّهنا بصرنا إليها باهتمام لنرى السائل ينخفض عن الأجساد و يتسرّب من تجاويف صغيرة فُتحَت في قاعدة الأنابيب جميعاً ، بقيَت الأجساد ساكنة نائمة ، حتى فتح أحد الرجال عينيه و من ثم ضرب بيديه الزجاج ليحطّمه ، تبعه تحطّم باقي زجاج الأنابيب الأخرى

و تناثر شظايا الزجاج هنا و هناك ، حتى وقف أحد الرجال و نظر بعينيه الحادّتين إليّ و قال بصوت قويّ :

- إذاً ، لقد حان الوقت ...

سلام

تخشّبت في مكاني ، و جمد الدم في عروقي ، ماذا أسمع الآن ؟ أهذا يخبرني بمقتل ديفيديوس ؟ القائد ؟ تلفّتُ حولي بسرعة

و من ثم حوّلت وجهي إليه و أمسكته من تلابيبه هامساً بغضب:

- اسمع ، لو علمت أنك أطلعت أيّ مخلوق على الخبر هذا سأقتلع عنقك من عروقها ، أفهمت ؟

هزّ رأسه بخوف :

- حا .. حاضر سيدي

أفلتّه من بين يديّ ، و سألته و العرق يتصبّب منّي على الرغم من البرد القارس :

- كيف ؟ كيف يمكن لهذا أن يحصل ؟

- أخبرني أحد الذين هربوا من المعركة ، أن القائد الأعلى للقصر " ڤينيسيوس " هو من قام بقتله بعد صراع طويل دار بينهما ، كما قُتل كلّ من معه من رجالنا

- و كيف حدث هذا أيضاً !!

- وصل مدد من القصر ، فاق عدد رجالنا أضعافاً فحاصروهم و قتلوهم شرّ قتيلة

أمسكت رأسي بيديّ :

- يا إلهي ، يا لها من مصيبة

سألَت آزكا الفارس :

- و أين جثة ديفيديوس ؟

- لا أدري ، ربما قام أحد رجالنا الفارّين بأخذها و دفنها

حوّلَت آزكا وجهها إليّ :

- لمَ لا تريد أن يدري أحد بمقتل ديفيديوس ؟

و أنا أهمس بغضب و هلع :

- ستنشأ حالة من اليأس في قلوب الرجال ، و سينشقّ الجيش لمجموعات ، سنخسر الحرب حينها !

قامَت إليّ و قالت :

- هدّئ من روعك يا سلام !! اترك الأمر لأوليمبا حين عودته

أوليمبا

بعد يوم آخر من المشي ، وصلنا إلى الكهف بصحبة الثلاثمئة متحوّل ، كان ظاهرهم ، رجال طبيعيين ، لكن يحملون داخل أجسادهم ، قوى تجعل من واحدهم عن عشرة رجال ، كان القائد الذي عيّنوه عليهم ، اسمه **نافييكال** ، لم يكن يحمل شيئاً مميزاً عنهم ، سوى أنّه أكبر سناً ، إذ يصل عمره إلى بداية الأربعين ...

حينما وصلت إلى بوابة الكهف ، دهشت مما رأيت ، كان الرجال يتقاتلون فيما بينهم ، و يقتتلون ، كانت الدماء تجري

و تسيل على الأرض ، أما سلام فكان يحاول نصح الرجال بالتوقف ، لكنّهم كانوا يدفعونه بعيداً ، شعرت بالغضب يتفجّر منّي ، لأصرخ بصوت قويّ أفزعهم و أوقفهم عما كانوا فيه :

- **أنتم !!!**

التفتوا إليّ ، و رموا أسلحتهم ، تقدّمت نحوهم و أخرجت سيفي و أنا تتطاير شرارات الغضب من عينيّ الحمراوتين :

- أجننتم !! غبت عنكم يومين اثنين ، لأجدكم حين عودتي تقتلون بعضكم بعضاً ، عوضاً عن زيادة عددكم !! أتظنّون حربنا لعبة !!

أشهرت سيفي في وجه أحدهم و وضعته على رقبته :

- قل لي ، قل بسرعة ما سبب اقتتالكم هذا !!

صمت قليلاً ، و التقط أنفاسه ، و قال بخوف :

- انقسم الجيش إلى فيلقين ، بعد تسرّب خبر رحيل القائد ، فقسمٌ منّا يريد التفاوض مع الحاكم ، و قسم يريد إكمال الحرب

نظرت بتساؤل إلى سلام ، و قلت :

- رحيل القائد ؟ ما معنى هذا ؟ رحل إلى أين ؟

تقدّم سلام و ابتلع ريقه ، علمت من نظرته أن شيئاً سيئاً قد حدث ، فقال بعد هنيهة :

- لقد قُتل القائد على يد ڤينيسيوس ، و قُتل كلّ من معه

صُعقت ، كأن صاعقة من السماء ضربتني و نفضَت جسدي ألماً ، رعشة سرَت في بدني ، فسقط السيف منّي و أنا أحاول

استجماع نفسي ، ألم يتسرّب إلى دمي و يجري معه في الشرايين و الأوردة و عبرات تتلألأ في عينيّ و قد لمعَت فيهما ومضات ذكرى قديمة ، تسارعَت أنفاسي و نبضات قلبي

حتى صرت أسمع رنينها ، نظرت إلى سلام بانكسار :

- أمات ديفيديوس ؟

أشاح بوجهه عنّي ، لأسقط أرضاً باكياً ، سالت الدموع كشلّالات من مدمعيّ ، و اختلطت بحبّات التراب الباردة ..

أيعقل موت ديفيديوس ؟ لمَ ؟ لمَ لم يخطف الموت الحاكم ، لمَ اختطف بطلاً و انتشله من جيشه انتشالاً

إنّه كالشريان لو انتُزع ، تسرّبَت الدماء من الجسد حتى آخر قطرة

كيف سنفوز بحرب كهذه دونه ؟ لست برجاحة عقله و لا بقوة تحمّله و صبره ، لمَ ذهبت و تركتنا ، لمَ فعلتها يا صديقي

قاطع نحيبي ، صوت من الخارج كأنّه الصيحات ، ليدخل إلينا أحد الرجال يصرخ :

- **لقد جاؤوا ! لقد جاء جيش الحاكم**

رفعت نظري إليه بعينين اتسعتا ، كيف عرفوا موقعنا الجديد ؟ أخائن آخر ؟ ما بال الخائنين لا ينفذون !!

قمت و قد أمسكت سيفي ، و قلت بعد أن استجمعت نفسي :

- أقينيسيوس معهم ؟

أجابني الرجل :

- نعم يا سيدي ، هو من يقودهم

نظرت حولي للوجوه التي تراقبني ، و قلت بأعلى صوتي رافعاً سيفي :

- سننتقم !! سنفوز و ننتقم !!

أسرعت أمتطي جوادي ، و أنا أعطي الأوامر :

- أخرجوا أربعة آلاف من الجيش ، و ليبقى البقية هنا يحرسون الكهف و النساء

قال نافييكال :

- أنأتي نحن أيضاً ؟

لمعَت نظرة وحشية في عينيّ :

- نعم ، تعالوا جميعكم

خرجنا ، لنرى جيشاً بأعداد مهولة من الفرسان ، يُقدّر بعشرين ألف نفر ، لم يرهبني منظرهم ، بل اشتعلت غضباً حينما رأيت ڤينيسيوس يسير بمقدّمتهم ، أمرت أحد الرجال أن يأتيني بالحارس الأسير لدينا ، و تقدّمت الجيش و قلت صارخاً

عندما توقف جيشهم على بعد أمتار كثيرة من جيشنا :

- أيّها الجبناء **!!** أيّها الوحوش ، إن كنتم تظنون أنفسكم الأقوى لأنكم تجرّدتم من رحمتكم ، و غدوتم وحوشاً كاسرة ، و غدونا نحن لطلبنا السلام طرائداً لكم ، فإنكم مخطئون ، فنحن الآن ، نعلن أمام الجميع تجرّدنا من رحمتنا عليكم ، و لن نرأف بواحدكم ، بل سنحدث مجازراً بجيوشكم و نرسلكم إلى خالقكم لتلقوا عذابكم في جحيمه الأبدي ، و على الرغم من قلّة عددنا أمام أعدادكم إلا إنني لم أخرج جميع جيشي ، و سأحارب جحافلكم بأربعة آلاف و بضع مئات لا غير ، و سترون العجب العجاب ، لو بقيتم أحياء

تضاحك جيشهم و سرَت قهقهات بين صفوفهم ، و لا سيما قائدهم ، و لكنني أردفت بعدها مخاطباً إياه :

- و أنت ، يا ڤينيسيوس ، سأقاتلك وحدك من بين جميع جيشك ، ستكون الهدف الأوحد لي ، سأعاقبك جرّاء قتلك صديقي و قائدنا ، ديفيديوس ، سأجعل دماءك تجري على هذه الأرض أمامك ، و أقطع رأسك و أرسله لحاكمك الجبان ، الذي لا يخرج من قصره و لا يأتي لقتال ، و سأذهب إليه بنفسي لأجهز عليه هو الآخر ، سأهدم حكمكم الذي يقوم على اضطهاد الناس و الشعوب ، و تعذيب العبيد و الجواري ، سأجعل منكم عبرة تاريخية ، لكل من يأتي بعدكم

التفت من بعدها إلى الأسير الذي جاءني به الفارس ، و أمسكت بسيفي و صرخت :

- سيكون دم هذا النتن هو شارة بدء الحرب ، دمكم أول من يسيل و آخر من يسيل

و ضربت عنقه لتتفجّر نافورة من الدماء ، و يسقط جسده مقطوع الرأس أرضاً ، لأرفع سيفي و أنا أصيح بجيشي :

- فلننتقم للقائد !!

تدفّقت جحافل جيشنا بحماس يملئها نحو جيوش الأعداء ، تداخلت الصفوف و راحت الرؤوس تُنحر أعناقها و تنفرج دماؤها ، غبار ثلجيّ أبيض يتطاير إلى السماء ، و أرواح يُسرع ملك الموت باصطيادها ، صرخات فرسان تصدح

و أصوات سيوف تتردّد ، جثث تتناثر هنا و هناك ، و خيل تصيح متألمة وسط تعالي الأصوات ، راح الثلج يؤول إلى اللون الأحمر مع اختلاطه به ، و رائحة عرق نتن تفوح بقوة

وصلت أخيراً إلى ڤينيسيوس ، الذي تبسّم بخبث حينما رآني ، لأشهر سيفي و أضرب بكعب قدمي خصر حصاني ، و أنطلق نحوه مسرعاً ، فعل هو ذات الشيء و تصادم سيفانا ، عينانا تتبادل النظرات الحاقدة المتوعّدة ، و من ثم ألوّح مرة أخرى بسيفي إلى خصره لأضربه ، فيتصدّى لي بسيفه ..

كانت أعداد رجالنا تتناقص بسرعة ، فالمعركة قد غدَت لصالحهم ، على الأرجح ، لكن ، و فجأة من وسط آمال جيش الحاكم بالفوز ، سُمع صوت صراخٍ مرعب ، زعزع صفوف جيشهم ، صوت حيوان ثائر ، كاسر ، يُفزع الميّت لو سمعه

لتتبعها صرخات متماثلة كثيرة ، جعلَت ڤينيسيوس يتراجع عنّي و يحدّق حوله ليتبيّن الأمر ، و حينها ..

رأى رجال تستحيل أجسادهم إلى وحوش بفراء أزرق و أبيض

يزداد طولهم للمترين أو ثلاثة أمتار ، و تتضاخم أجسادهم لينقضّوا على حشد من جيشه و يقتلونهم بضربة واحدة تطيح بهم أرضاً ، و يطير بعض الفرسان بفعل الضربة إلى أمتار ..

راح جيش الحاكم يتراجع هارباً بينما يصرخ أفراده فزعين مولولين ، تلاحقهم الوحوش الكاسرة البيضاء ، هرب القائد ڤينيسيوس ، و استطاع الفرار ، على الرغم من محاولتي اللحاق به ، لكن جواده كان أسرع من جوادي

ابتعد جيشهم و عاد المتحولون لأشكالهم ، بينما غدا المنظر أمام كهفنا ، منظراً دموياً ، مليئاً بجثث القتلى .

نوح

انتهت المعركة بانتصارنا ، على الرغم من مقتل عدد كبير من رجالنا ، فكان عدد قتلانا ما يزيد عن ثلاثة آلاف رجل !! أيّ نجا ألف ، و كان لدينا في الكهف ألف ، لم يبقَ سوى ألفين ، يا إلهي !! علينا جلب المزيد ، لكن من أين ؟ فالمدن المتبقية بعيدة عنا ، و هناك الكثير من المدن التي رفض رجالها الحرب ، ما العمل الآن ؟

كان جميع الرفاق بسلام ، ما عدا يونس ، الذي تمدّد في حضن زوجته ، التي راحَت تضمّد جرحاً نازفاً من كتفه ، اقتربت منهما ببطء ، قالت له بتذمّر :

- آه منك يا يونس !! ما قصة كتفك هذا ، هذه ثاني مرة تُصاب به ، عليك الحذر ، تذكر أنّك متزوج !!

- أنا آسف ، لكنني لم أره ، لقد ضربني أحدهم غدراً

- المرة القادمة ابقَ هنا ، و إلا سأقتلك أنا حينما تعود

- أأبقى في الكهف آمناً ، و أترك الباقين يحاربون وحدهم !!

ضربَته على صدره :

- و من قال أن واحداً لو نقص منهم سيُحدث فرقاً ؟

- لكن ، لن أجلس في الكهف بلا عمل ، هذا عار !!

- و من قال أنّك لن تفعل شيئاً ؟

- و ما الذي سأقوم بفعله ؟

- ستحمي زوجتك يا هذا !!

تدخّلتُ بهدوء مخاطباً يونس ، بينما أخفض رأسي خجلاً :

- يونس ، أنا أعتذر ، لا أدري ما أصابني ، حينما منعتك من نجدة زوجتك و تشاجرت معك

- لا بأس ، أنت صديقي ، و لقد جئنا سوياً إلى هذه الأرض ، أتذكر ؟

أومأت له بشكر ، و لكنني تذكرت شيئاً كان عليّ إخبارهم به فناديت على آزكا و أوليمبا ليحضرا بسرعة ، و حينما جاءا

وقفت أمام يونس و أسيل و آزكا و أوليمبا ، و قلت :

- أعلم أنكم لن تصدقوني ، لكنني أقسم أن ما أقوله ليس مزحة و لا كذباً ، أنا واثق كل الثقة مما رأيت

قال أوليمبا بريبة :

- حسناً ، قل ، نحن نصدقك ، لكن قل بسرعة دون مقدّمات ، لا توترنا و تحرق أعصابنا

- حسناً حسناً ، اسمعوا ، حينما كنت في الحرب ، تبعت مجموعة من الفرسان لأجهز عليهم ، فوصلنا إلى مكان بعيد قليلاً عن ساحة المعركة ، و دخلنا إلى كهف آخر ، هناك ، كان الفرسان قد نصبوا لي فخّاً ، و أوقعوا بي حينما دخلت الكهف و حاصروني و أوقعوني أرضاً ، كادوا أن يقتلونني لولا أن ..

قال يونس :

- لولا أن ماذا ؟

تابعتُ :

- لولا أن ظهر رجل يرتدي لباساً أسوداً و عمامة سوداء و بارزهم بقوة حتى قتلهم جميعاً

قال أوليمبا :

- و ما الغريب في الأمر ؟

قلت :

- دعني أتابع و لا تقاطعني !!!

- حسناً حسناً ، أكمل لن نقاطعك

تابعت حديثي :

- الرجل حينما انتهى من قتلهم ، أدار وجهه إليّ ، نظر لي و ابتسم و من ثم غادر بسرعة ، تاركاً إياي بدهشتي متصلّباً

قال أوليمبا بينما يزوم بعينيه :

- من كان الرجل ؟

- لقد ، لقد كان الرجل ذاته الذي في لوحة المختبر ، إنه **عبدالله اللورداني .**

الفصل الثالث عشر

يونس

فُجعنا عندما أخبرنا نوح بأمر لم نصدقه ، لقد أخبرنا برؤيته جدّه عبدالله اللورداني الذي أنقذه أنقذه !!

قال أوليمبا :

- أنا لا أفهم ؟ كيف لهذا أن يحدث !

قال نوح :

- لا أدري ، فقد تخشّبت حينما رأيته

قالت آزكا :

- قد يكون رجلاً يشبهه

أجاب نوح :

- لاااا !! هذا مستحيل ، أنا متأكد منه ، ليس شبهاً إطلاقاً بل هذا هو

قلت :

- و ما الذي يجعلك متأكداً لهذه الدرجة من كونه هو بذاته ؟

أجابني نوح :

- لأنّه كان يرتدي لباسه الأسود ذاته **!!** و عمامته السوداء ذاتها التي رأيتها في اللوحة ، كيف لصدفة كهذه أن تحدث؟

شرد أوليمبا قليلاً ، و ابتسم فجأة و قال بصوت خفيض :

- هكذا إذن ...

التفتنا إليه بتساؤل ، فقال مردفاً :

- جدّك يا نوح ، غامض و عظيم أكثر مما ظننت

قال نوح متعجباً :

- لمَ ؟ ما الذي اكتشفته ؟

تابع أوليمبا :

- ألم تتساءلوا سابقاً ، كيف علم عبدالله بأمر الحرب و مجيء حفيده ؟ على الرغم أنّه كان قبل ألف عام من حربكم هذه ؟

وافقناه الرأي ، فتابع :

- يبدو أن جدّك ، وصل علمه ، إلى أن يكتشف طريقة **للسفر عبر الزمن** ، و سافر من قبل ألف عام إلى هذا العصر ، فعلم بأمر الحرب ، و كما أنّه رآك هناك يا نوح و علم بطريقة ما أنّك من نسله ، فأنقذك

تجمّدنا ، و لم يتفوّه أحدنا بكلمة ، أردف أوليمبا :

- كما أنّني الآن ، عرفت سرّ اختفاءه ، فإنه بعدما عاد إلى أرضه ، عاد مرة أخرى إلى أرضنا هذه ، و في هذه المرة عدّل على جينات هؤلاء الرجال

و أشار إلى المتحولين :

- و أخبرني بحرب ستأتي بعد ألف من الأعوام و أن حفيداً له سيكون هناك ، و هو علامتها ، و أن عليّ الرقود بآلة لأحرّر الرجال المتحولين حينما يحين الوقت المناسب هذا يعني أنّه كان في ذلك الوقت قد سافر إلى عصرنا هذا و رأى ما رآه ، و عاد ليفعل شيئاً لمساعدتنا ، و من ثم عندما استيقظت أنا بعد الألف عام ، لم أجد له قبراً و لا جثماناً ، و أنتم أخبرتموني في إحدى المرات أن جد نوح

حدّثه عن اختفاء جدّه عبدالله فجأة ، للمرة الثانية ، و عدم معرفة أحد إلى أين رحل

فقال نوح :

- و ماذا يعني هذا ؟

قال أوليمبا :

- عدم وجود قبر له في أرضنا ، و في أرضكم ، لا يعني سوى أنّه سافر عبر الزمن ، و من بعد العجائب التي رأيتها منه ، فأنا لا أعجب لو أنّه ما زال حيّاً بفعل سفره بين الأزمان حتى الآن

قال نوح :

- أيّ أن جدّي .. قد يكون في إحدى الأزمان الآن ؟

- نعم ، بالضبط ، و قد يكون هنا أيضاً في هذه اللحظة ، يراقب حفيده و صديقه أوليمبا

آزكا

أشعلت فكرة سفر عبدالله اللورداني عبر الأزمان ، روح التعجب من هذا الإنسان ، فعلى الرغم من تواجده في عصر لا يعرف للتطور وسيلة ، إلا أنّه استطاع فعل المستحيل ..

تبادلنا آراءنا بشأن عبدالله اللورداني و من ثم انتقل حديثنا للحرب ، حتى قال يونس بينما يضع رأسه في حجر زوجته :

- لاحظت شيئاً بالمتحولين حينما استحالوا لشكلهم الغريب ذاك

قال نوح :

- و ما هو ؟

يونس و هو ينظر إلى أسيل ثم إلينا :

- إنهم يشبهون مخلوقات أسطورية في أرضنا تسمّى

" **اليتي** " و هي مخلوقات ذات فراء أبيض ، لها قوام الإنسان تمشي على قدميها الاثنتين ، بطول يزيد عن طول الإنسان الطبيعي ، و تعيش في الجبال الثلجية ، و هي أسطورية بالطبع لم يستطع إنسان إثبات وجودها

قال أوليمبا :

- معك حق ، هم يشبهونها بشكل كبير ، فلدينا نحن أيضاً حكايات قديمة عن مخلوقات كهذه ، و تعيش في أرضنا بحسب الأسطورة ، لكننا لا نؤمن بها و نعدّها من نسج الخيال ، لأننا نعيش في هذه الأرض و جلناها بجميع أجزاءها ، و لم نرَ دليلاً على وجودها

لم ننتهِ من حديثنا ، حتى قاطعنا سلام حينما جاء مسرعاً ، تبدو على ملامحه حدوث مصيبة عظيمة ، و قال بعد أن التقط أنفاسه :

- جاءتنا إخبارية ، بغضب الحاكم بعدما هُزم جيشه بمعركته الأخيرة ، و أمر بجيش آخر و معركة أخرى ، تكون هي **المعركة الأخيرة**

قال يونس متذمراً :

- لمَ تأتِ المصائب وراء بعضها بعضاً ؟ أليس هنالك فاصل بينها !

سأل أوليمبا :

- و كم عدد جيشه الجديد ؟

ابتلع سلام ريقه و أجاب :

- **مئة و خمسون ألفاً** ، و قد انطلقوا من قصرهم ، منذ نصف ساعة متجهين إلينا

شحبَت وجوهنا حينما سمعنا المصيبة الآتية ، و قال أوليمبا بأسف :

- إنّها **النهاية** ...

أوليمبا

بُهت لوني حينما سمعت الخبر ، فقال نوح :

- لنهرب

قال سلام :

- لكن ، إلى أين ؟

رد نوح :

- تعالوا معنا إلى أرضنا

أجاب يونس :

- لا ، لن تسمح دول أرضنا لأحد منكم بالدخول ، قد يقدمون على قتلكم

قال نوح :

- ليس أمامنا خيار آخر ، علينا محاولة تهريبهم معنا إلى أرضنا

يونس :

- و ماذا عن لونهم ؟ ماذا سيحدث عندما يرونهم الناس ؟

نوح :

- سيستخدمون أقنعة أو ملوّناً ، يغيّرون به لون بشرتهم

قاطعت نقاشهم :

- لن نهرب ، سنقاتل حتى آخر نفس

هتف سلام :

- لكن أعدادهم تفوق أعدادنا ، أضعافاً مضعّفة !! سيقومون بإبادتنا !!

نظرت إليهم :

- و ما أدراكم ؟ ألم يرسلني عبدالله اللورداني إلى هنا ، لكي أساعدكم ؟ بعد أن سافر بنفسه ليرى الحرب ؟ هذا يعني أنّه رأى فوزنا لو ساعدنا هؤلاء الثلاثمئة ، لن يرسلني إلى هنا لكي أخسر

ساد صمت ، كأنّ كلامي أقنعهم ، قال سلام :

- لكن ، يا سيدي ، هذا مستحيل ، فوزنا مستحيل في ظلّ هذه الظروف ، عددنا ألفيّ مقاتل !! و عددهم مئة و خمسون ألفاً !!

أمسكت سيفي و رددت بحزم :

- إما أن نحيا بكرامة ، و إما أن نموت بشرف ..

يونس

جاء الأمر الأكيد ، بموتنا جميعاً ، و لم يكن خيار أمامي سوى المشاركة ، لست بالجبان الهارب

كنت في غرفة صغيرة في الكهف ، ليس فيها أحد سواي أرتدي دروعاً قديمة للحرب ، حتى سمعت صوت خطوات تقترب ، و من ثم دخلت إليّ أسيل بوجهها الخائف و ملامحها الحزينة ، عانقتني بقوة لم تعانقني بمثلها سابقاً ، كأنّه عناق الوداع ، **عناق الموت**

قالت و قد شعرت بدموعها تتابع من عينيها ، و تسيل على خدّيها ، و من ثم تبلّل ثيابي :

- لمَ ؟ لمَ ستتركني و ترحل

ابتعدَت عنّي ، و نظرت في عينيّ ، و راحت تثبّت بصرها عليّ بعينيها الدامعتين ، كأنّها تحفظ أكبر قدر من ملامحي قبل أن أختفي و أتلاشى من العالم ، و مم ثم راحت تهزّني من قميصي صارخة بصوت يخالطه نحيب الوداع :

- لمَ عليك الذهاب ؟؟ لمَ جئنا إلى هذا المكان أصلاً ؟؟

أمسكت بوجهها ، و مسحت بأناملي دموع عينيها الساحرتين و من ثم قلت لها و أنا أتأمّل محيّاها :

- اسمعي يا أسيل ، لم أُرد في حياتي كلها أن تكون نهايتنا كهذه النهاية ، لكنّها الحقيقة ، لا خيار أمامي ، لا سبيل سوى الحرب ، لذا .. لذا .. فإن عليكِ ..

ترقرقَت دموع في مدمعيّ و من ثم سالت على خدّيّ :

- لذا فإن عليكِ الهرب بعيداً ما أن تشعري باقتراب خسارتنا

كادت أن تتكلم مفجوعة و لكنني قاطعتها و أنا أهزّها و أصرخ:

- عليكِ أن تهربي حينها و تعودي إلى الأرض الأولى أتسمعينني !! عليكِ العودة لأرضنا ، أنا الذي أمضيت حياتي أبحث و أتقصى في أمر الأرض و سرّها ، و أنا الذي كنت السبب بمجيئنا و تورطنا هنا ، لذا فإنّي أرجوكِ يا أسيل ، لا ذنب لكِ أن تلقي حتفكِ مع متهور مثلي لا يفكر بعواقب الأفعال قبل فعلها ، أرجوكِ أن تهربي حينما يحين الوقت ، أرجوكِ .. دعيني أموت مرتاح الضمير دعيني أموت و أنا أعرف أنكِ لن تموتي هنا بسببي

لم تستطع الرد بسبب دموعها التي غمرت وجهها ، فقبّلتها قبلة أخيرة ، لا قبلة بعدها ، و لا كلمة بعد كلماتي تلك ، و لا لقاء بعد هذا ، بل موت محتم ، موت أكيد ، و رحيل و فراق ..

ابتعدت عنها بعد دقائق و مشيت حتى وقفت أمام باب الممر

و قلت لها دون أن أنظر إليها بينما أضع خوذتي على رأسي :

- **لا تنسيني**

مشيت منطلقاً بينما سمعت نحيبها قد ازداد ، كان قلبي يتفطّر ألماً حينها ، لم أستطع فعل شيء و لا ردع فراقنا ، لقد حتّم القدر عليّ الموت ، فها أنا أتوجه إلى معركتي ، و أنفاسي الأخيرة ..

نوح

كنت قد حسمت أمري على مشاركتي بالمعركة الحاسمة ، على الرغم من معرفتي بقرارة نفسي ، أننا سنلقى فشلاً ذريعاً

و سنموت عن آخرنا فرداً فرداً ، إلا أنني لم أتكلم و لم أفكر بالأمر ، سأخوض الحرب ، و سأكمل ما بدأناه ..

كنت في قاعة الكهف الأولى ، حينما جاءت آزكا و قد جلست على صخرة من الصخور ، شاردة في عوالم ذكرياتها

تقدّمت منها ، و قلت لها :

- بالأمس التقينا ، و اليوم نفترق

رفعَت بصرها إليّ و ثبّتَت عينيها على عينيّ ، و لم تقل شيئاً فلم أحتمل تلك النظرة حتى قلت :

- لم أعتقد أنني سأقولها اليوم و لا حتى غداً ، بل ربما ظننتها بعيدة جداً ، و أن الأوان لم يحن بعد ، و لكن .. كما ترين ، ليس بعد هذا الأوان أوان ، و ليس بعد هذا اللقاء لقاء و لا كلام

لذا سأختصر مقدّمتي الطويلة و أقولها لكِ الآن و بكل جرأة ، لأنّني لم أعد أملك الكثير من الوقت :

" أنا أحبّكِ يا آزكا "

منذ اليوم الأول رأيت حولكِ فراشات الحب تطير و ترفرف بأجنحتها الملوّنة ، و وروداً تزهو و تتكاثر في روحي ، حينما تبتسمين بتلك الابتسامة التي يستمدّ البدر من نور ثناياها ، بارقة الثغر ، جميلة الوجه و الروح

تليقين بي و أكاد لا أليق بكِ من باهر سحركِ ، و بارع جمالكِ ، لكِ انحنى الفؤاد على ركبتيه و أقسم القسم المقدّس على طاعتكِ حتى الممات .. حتى يموت الشجر و ينصهر القمر ، و يغفو نور الشمس من كرتها و تنطفئ النجوم و يتلاشى العالم و تختفي الكواكب و تتصادم ، و يتوقف ماء الجدول عن جريانه ، و تكتم الطيور أناشيدها الصباحية ، و يصمت الديك عن صياحه في الفجر ..

حتى تذبل الحياة ، بنباتها و خضرتها ، و تسيل السماء كالدهان على الكون ، و تنقطع دماء جسدي عن سيرها في الشرايين و الأوردة ، و يخبو ضوء عينيّ و يختفي ..

حتى تفيض روحي إلى بارئها و تهمد أنفاسي و تموت .

رحت ألتقط أنفاسي لاهثاً من توتري و كثرة الكلام الذي ألقيته و هي أمامي جامدة الملامح لا تعطي ردة فعل ..

وقفَت على قدميها ، و أمسكَت يدي ، و قرّبت ثغرها من أذني و همسَت : و أنا أحبّك يا نوح

امتلئَت روحي بهجة و تطايرت مخاوفي و نسيت أمر الحرب برمّته ، و قلت لها بحزم :

- إذا عدت سالماً بمعجزة ما ، **سنتزوج** ..

أوليمبا

أقف خارج الوادي ، ممتطياً جوادي الأبيض ، يقف خلفي ألفا مقاتل ، و ثلاثمئة متحول ، وزّعتهم على فئات ، و نثرتهم بين أفراد الجيش ..

بجانبي سلام ، و نوح الذي وضعته في الميمنة ، أما يونس فعلى الميسرة ، تنفّست هوائي الأخير ، و أنا أناظر ساحة الحرب التي ستؤول إلى بحر من الدماء و الجثث بعدما تنتهي المعركة

لسبب ما ، لم أكن أشعر بالخوف ، فليس هناك ما سأخسره على أيّ حال ، فلا أهل ولا زوجة ولا أولاد ولا مال

إحساس غريب أن تقف منتظراً موتك ، كأنّك مجنون ، أو هذا ما يُخيّل إليّ ..

حقاً إني أتساءل ، ما الجدوى من تحريري هؤلاء المتحولين ما دمنا سنخسر الحرب ؟ أين أنت يا عبدالله لتخبرني !

كنت تستطيع جلب عدد أكبر من الرجال ، لمَ اكتفيت بثلاثمئة

و حسب ؟ لمَ ليس أربعمئة أو خمسمئة أو ألف مثلاً ؟

صمت قليلاً ، حتى ضحكت ، أضحك على حالنا ، على ثقتنا و شجاعتنا الزائدة ، ألفين ضد مئة و خمسين ألفاً ، جميل جميل ، سيصنعون منّا سلطة بإذن الإله ..

و هنا ، أمام ناظريّ ، ظهر من بعيد صف طويل من الفرسان و تبعه صف و من ثم صف و صفوف كثيرة ، كانت تظهر وراء بعضها بعضاً ، حتى ظنّنا ألا نهاية لها

صوت أقدام الجيش و هو يمشي ، أشعر به يهزّ الأرض و يزلزلها من تحت أقدامنا ، عدد ضخم من الجيش يزحف تجاهنا

كانوا كثراً ، كثراً جداً ، لا ترى نهايتهم إطلاقاً ..

توقفوا عن السير ، و تقدّمهم القائد ڤينيسيوس ، بوجهه الساخر الذي راح يقهقه ضاحكاً من عددنا الضئيل ، في الحقيقة معه حق و كل الحق ، فأنا قائد هذا الجيش ، ضحكت عليه ، فكيف لا يضحك هو ؟

قال صائحاً بصوته الجشع :

- لقد تمرّدتم على أسيادكم ، أيها العبيد ، و عندما يتمرد العبد على سيده ، يلقى حتفه ، و ها أنتم ترون الموت بأعينكم ، أنا ملاك الموت أيها الحمقى !! أنا جامع

و حاصد أرواحكم فرداً فرداً ، أنا قاتلكم و مهدر دماءكم اليوم اليوم ، الآن الآن ، ستلقون حتفكم ستلقونه

صمت قليلاً ، حتى قال بابتسامة خبيثة :

- لذا .. إنني أعطيكم فرصة أخيرة ، استمعوا لعقولكم و اعرفوا تقرير مصيركم : أنا الآن أقبل أيّ فرد منكم يتخلى عن جيشه و تمرّده ، و يأتي إلى صفنا ، سنتركه حرّاً طليقاً بعد المعركة ، بشرط أن يحارب معنا

سرَت همهمات بين أفراد جيشي ، لكن ڤينيسيوس تابع كلامه :

- مالكم تتناقشون ؟ أتظنون بكون لديكم فرصة للفوز علينا ؟ انظروا حولكم أيها الأغبياء !! أنتم في معركة و ليس في مسابقة أو لعبة !! أنتم في الحرب ، و الحرب موت أو حياة ، و لكي تعرفوا الموت انظروا إلى جيشكم !! الضعيف ، القليل ، الخاسر ، و انظروا إلى جيشنا ، القوي ، الجبار ، الفائز ، كلكم تقرّون بخسارتكم و تقرّون بفوزنا فأنقذوا عوائلكم و أحبابكم من الموت ، و اخرجوا و انضمّوا إليّ ، و عيشوا ما تبقى من سنوات حياتكم بين أحضان أرضكم و اشربوا من ماءها و كلوا من طعامها و نباتها و ثمار أشجارها ..

ساد صمت تخترقه همهمات أعلى و همسات متزايدة ، حتى تقدّم أول فارس منّا و مشى بجواده حتى وصل إلى جيش الحاكم ، تبعه فارس آخر ، و فارس ثالث ، و رابع و خامس

و راحت تخرج مجموعات من الفرسان من جيشنا لتقف في صف جيش الحاكم ، كان قلبي يشتعل غضباً من الخونة أتتركون أصدقاءكم و جيش مقاومتكم و تذهبون إلى الأعداء ؟!

نظرت حولي لأحصي عدد الباقين من الجيش ، لأرى ما يقارب الألف فارس ، أيّ أن نصف الجيش قد انسحب

نظر ڤينيسيوس إليّ بشماتة ، و قال :

- أنتم ! أيها الباقون هناك ، راضين بالموت ، لقد كنتم ضعفاء ، خاسرين بكل تأكيد ، حينما كنتم ألفين ، و الآن حينما أصبحتم ألفاً ، أفتفوزون ؟
أستحلفكم بالإله ، أألف ، ضد مئة و خمسين ضعف ؟
أتدركون ما أقول أم أن الصمم قد أصابكم ؟
أعطيكم فرصة أخيرة ، لا فرصة بعدها ، من أراد الحياة فليخرج إلينا ، و من أراد مماته فليبقى

و كما هو متوقع ، خرج اثنان من الفرسان إليه فور انتهاءه من حديثه ، و تبعه فارس ، فمجموعة ، فمجموعة ، فمجموعات

حتى عدت بنظري لأحصي كم تبقى منّا بألم ، لأرى خمسين فرداً ، مع ثلاثمئة متحول ، و ليتهم بقوا ، و كانوا أوفياء

فحتى المتحولون قد تقدّموا واحد وراء الآخر ، حتى لم يبقى منهم أحد ، وسط دهشتي و صدمتي ، و من ثم بعد لحظات خرج الخمسون الباقون إلى جيش الحاكم ، و بقيت أنا مع سلام و نوح و يونس ، فقط لا غير ، أربعة ضد جيش من مئة

و خمسين ألفاً و قد زاد أيضاً ، مع ثلاثمئة متحول

قال نوح :

- لقد انتهى أمرنا

و قال يونس :

- وداعاً أسيل

أما سلام ، فقال :

- جيشنا قد خاننا !

قال ڤينيسيوس بعد أن قهقه كثيراً :

- أوليمبا !! لمَ لم تأتِ مع جيشكِ أيضاً ؟ يبدو أن لا جيش لك ما رأيك أن نعطيك بعض الفرسان منّا لتستطيع المقاومة

لبعض الوقت ؟؟ فلو كنت ستحاربنا هكذا ، فإن الجيش ليس عليه أن يحرك ساكناً حتى ، نرميكم بسهام قليلة لتموتوا من فوركم خلال ثوانٍ معدودة

صمتُ ، و لم أتكلم ، بينما ترقرقت دموع في عينيّ ، لكنّي أخفيتها ، و قلت :

- سنحاربكم لآخر نفس

ضحك مرة أخرى ، و قال ساخراً :

- أريد بعض التسلية ، لا أريد الانتهاء منكم بسرعة ، لذا فإنّني سأجعل كل واحد منكم ، يقاتل واحداً من أقوى فرساني ، و من بعدها _ لو بقي أحدكم على قيد الحياة طبعاً _ سنبدأ المعركة و نقوم بتحطيمه

قلت له بهدوء ، مغلوب على أمري :

- أخرج لنا ، أحد فرسانك بسرعة ، فإني أشتهي قتل أحدكم بنصل سيفي هذا

فقال سلام هامساً إليّ :

- دعني أكون أول من يقاتل

نظرت إليه ، و من ثم أومأت له موافقاً على طلبه

تقدّم سلام و ترجّل عن جواده ، و سحب سيفه من غمده و رمى الغمد أرضاً

قال ڤينيسيوس :

- تعجبني الثقة الزائدة بالنفس

و من ثم صاح :

- هيّا يا **نيفار** ، أرهم قوتك

خرج لنا من بين صفوف جيش الحاكم ، فارس ذا خوذة حديدية و جسد نحيل ، قليلاً ، وقف على بعد خطوات من سلام و نزع عنه خوذته و رماها أرضاً ، لينسدل شعره الأسود الطويل على كتفيه ، و يظهر وجهه ، الذي لو رأيته عدة مرات ، لن تتذكره لسبب لا أعرفه ، و قال لسلام بصوت قبيح لا يتناسب مع مظهره :

- أرني ما لديك يا حشرة

غضب سلام ، و هجم عليه مباشرة ، و وجّه له ضربة بسيفه على ركبته ، لكن **نيفار** صدّها بسيفه و من ثم ضربه بقدمه على ساقه ، ليسقط سلام أرضاً

رفع نيفار سيفه عالياً ليضربه ، لكن سلام ضربه بسيفه على قدمه و بترها ، وسط صرخات نيفار المتألمة ، نهض سلام على قدميه و قال له ساخراً :

- لم أعرف أن الحشرات يمكنها جعلك تصرخ ألماً بهذا الشكل

على الرغم من بتر قدم نيفار ، إلا أنه و بسرعة قصوى ، وجّه لسلام ضربة نحو ذراعه ، لكن سلام تجنّبها في اللحظة الأخيرة قلت في نفسي : إذاً يحاول بتر طرف من أطرافه !

أسرع نيفار بالهجوم على سلام و ضربه بقبضته على وجهه لينزف سلام دمه من أنفه ، و من ثم أعاد نيفار محاولة توجيه ضربة أخرى بقبضته إلى وجهه ، إلا أن سلام ، طعنه ببطنه هذه المرة بحركة سريعة ، فلم ينتبه نيفار أن خصمه كان قد أعدّ السيف منتظراً لحظة هجومه و تقدّمه نحوه ليطعنه بقوة ..

سقط نيفار أرضاً و الدماء تخرج من فمه و تجري على ذقنه و رقبته ، ليتقدم سلام منه و يضربه على عنقه ، فيسقط جسد نيفار مقطوع الرأس قتيلاً

طار رأس نيفار حتى سقط أسفل ناظريّ ڤينيسيوس ، الذي كان يضمر غيظاً في نفسه ، لكنه كتمه و صاح :

- **سانزاد** ، عليك بالتالي

خرج فارس ، دون خوذة و دون دروع من بين صفوف الجيش ضخم الجسد ، مفتول العضلات بشكل مبالغ فيه ، إلى حد مقرف في الواقع ، بدين مع طوله و ضخامته ، و رأس حليق الشعر أصلع ، أسود البشرة ، على الرغم من البرد القارس هنا و بشع المظهر

قال يونس و قد تقدّم :

- هذا دوري

قلت له بغضب :

- ألا ترى **!** ، هذا مصيبة ، إنه وحش ، كما أن ليس من العدل أن تقاتل شخصاً يُقدّر وزنه بعشرة أضعاف وزنك**!!**

ابتسم و قد حزم أمره :

- إن علمت أنها النهاية ، فمت شجاعاً ، لا جباناً

أومأت له و قد زفرت بحنق ، إن نجا سلام ، فلن ينجو يونس من هذا الوحش الضخم الذي سيقاتله ، أشحت بنظري إلى الخلف ، لأنني شعرت بأحد يراقبنا ، لأنتبه بعد لحظات ، على وجه يُطلّ من وراء صخرة في الكهف ، يراقب أحداث المعركة

كانت هذه **أسيل** زوجة يونس ، يا إلهي ، سترى مصرع زوجها بعينيها !

نحن أربعة ضد جيش ، يا للسخرية ، أسيذكر التاريخ عن هذه المعركة شيئاً يا ترى ؟ أم سينسى الجميع ذكرنا و تضحيتنا بعد خذلان جيشنا لنا ؟

وقف يونس وجهاً لوجه مع العملاق **سانزاد** ، و حرّر سيفه من غمده ، فقال له **سانزاد** :

- أنت الآن حقاً كالحشرة أمامي

و راح يقهقه بصوت مقرف ، و من ثم أخرج سيفه ، الذي صُدمت كما صُدم يونس حين مرآه ..

لقد كان سيفاً ضخماً ، عريضاً طويلاً ، يحتاج لحمله ثلاثة رجال ، من ثقل وزنه ، كيف سيستطيع يونس التغلّب على هذا؟ كيف سيصدّ ضربات سيفه ؟؟

استجمع يونس نفسه و رباطة جأشه ، و قال له :

- متى كانت تحمل الغوريلات السيوف ؟

لم يرد العملاق ، بل عقد حاجبيه و رفع سيفه و سدّد أولى ضرباته ، التي قطعت أرجل حصان يونس ، فلم يكن قد ترجّل

عنه لكي يستطيع استغلاله بالتحرك ، لكن الحصان قد قُضي عليه الآن ..

ارتمى يونس أرضاً و نهض بسرعة و راح يدور حول سانزاد و من ثم حينما أصبح وراء ظهره ، أسرع إليه قبل أن يلتفت

و وجّه ضربة إلى ظهره ، لكن العملاق استدار بسرعة و ضرب يونس بيده ، ليدفع يونس بعيداً عنه بأمتار و يسقط

نهض يونس واقفاً بسرعة ، لكنه تلقى ضربة أخرى من يد العملاق جعلته يسقط مرة أخرى ، و من ثم تقدم العملاق منه و ضربه بقبضة يده على بطنه ، و راح يضربه و يضربه حتى كاد جسد يونس يُسحق بالأرض

كدت أن أتدخل ، لولا سلام الذي أوقفني قائلاً :

- كل واحد فينا ، إما أن يموت في قتاله ، أو يقتل خصمه ، فوز أو خسارة ، لا تتدخل

أرجعت نظري إلى يونس ، الذي تورّط بمأزق حين وافق الدخول مع هذا الوحش بالقتال ، و هنا .. التقط العملاق سيف يونس المرمي على الأرض ، و قال ساخراً :

- هذا كدبّوس ، لكنه يفي بالغرض

و قرّب السيف ، و تأهّب ، ليبقرَ يونساً في بطنه ، كانت الدماء تخرج منه و تسيل ، حتى تشكلت حوله بركة من الدم

سمعت صوت نواح نسائيّ يصدح في الخلف ، فعرفت أن زوجته قد علمت بكون روح زوجها ، ستفيض إلى بارئها بعد ثوان قليلة ..

سحب العملاق السيف من بطنه ، و راح يقهقه ، و قال :

- سأعذبك ، و أقتلك بسيفك هذا ببطء ، ما رأيك أن أقطّع أطرافك أولاً واحداً تلو الآخر ؟

لم يكن يونس يقدر على النهوض ، لكن ، و عندما قرّب العملاق السيف ليقطع ساقه اليسرى ، كان يونس قد أمسك سابقاً بحفنة من الثلج في كلتا يديه ، و من ثم رمى الحفنتان في وجه العملاق فجأة

لتدخل الثلوج في عينيه ، و يصيح سانزاد ألماً ، و من ثم ضربه يونس بقدمه بين ساقيه ، ليزيد سانزاد من حدة صرخاته و يقع على مؤخرته ، ممسكاً وجهه بيديه

نهض يونس بتثاقل ، واضعاً إحدى يديه على جرح بطنه

و قد أمسك سيفه و مشى مسرعاً نحو العملاق

الذي كان يعتصر ألماً جرّاء ضربة يونس الأخيرة

جمع يونس ما تبقى من قواه و ضرب عنقه بسيفه ، ليخرج طرفه بشكل بسيط من الجانب الآخر لعنق العملاق

راح العملاق يختنق و يتدفق الدم من فمه بعد أن تمدّد على الأرض ، ثم خرجت نفسه إلى السماء

هرع نوح إلى يونس و ساعده على المشي ، حتى وصل إلينا فسقط يونس أرضاً يمسك بمكان جرحه النازف

فما هي إلا ثوان حتى وجدنا أسيل تركض من مخبئها و تهرع باتجاه يونس ، حتى وصلت إليه و وضعت رأسه في حجرها و أخذَت تضمّد جرحه بعينين تكاد تغمرهما الدموع ، لولا أنّها تماسكَت كيلا تزيد من ألم زوجها و حزنه ، قالت أسيل مخاطبة يونس :

- اسمع ، علينا الرحيل من هنا ، لم تعد قادراً على القتال

قال يونس معانداً :

- لا ، لا ، لن نهرب ..

راحت تهزّه صارخة :

- حتى في وضعك هذا تريد معاندتي ، أيها الأحمق !!

نظرتُ إلى ڤينيسيوس الذي كانت عيناه قد حصدت من الكره و الحقد ما حصدت ، لأتقدّم إلى الأمام بحزم نافخاً صدري ، وأقول له بعد لحظات من الترقب :

- أنا التالي ، لكنني سأقاتلك أنت يا ابن الـ...

قاطعني صوت غريب ، صوت قوي ، يأتي من بعيد ، لم أتبين مصدره في البداية ، لكنني بعد لحظات ، شعرت بمصدره يقترب من الجهة اليسرى ..

نظرت لأجد غباراً ثلجياً يصعد إلى السماء ، غبار ثلجيّ كثيف و كبير ، نظرت إلى نوح و سلام ، و التفت إلى ڤينيسيوس المتسائل ، و من ثم ، حوّلت وجهي إلى اليسار مرة أخرى

لأرى جيشاً كبيراً ، جيشاً ضخم العدد ، قادم من بعيد ، لم يكن جيشاً عادياً ، فقد كان أفراده بطول مترين أو ثلاثة أو يزيدون بفراء أبيض أو أزرق ، قال سلام :

- أليسوا هؤلاء من المتحولين ؟

قال نوح متأمّلاً منظرهم :

- كيف لهذا أن يحصل ؟ ألم يترك جدّي ثلاثمئة متحول فقط؟ فمن أين جاء هذا العدد الهائل

قلت لهم :

- هؤلاء ليسوا متحولين

التفتوا إلي بنظرة متسائلة ، فأردفت :

- **بل " يتي "**

اقشعرت أجسادهم و أسرعوا بالنظر مرة أخرى بتعجب و اهتمام ..

كان هناك رجل يتقدّمهم على حصان ، لم يكن من اليتي بل كان إنساناً ، أمعنت النظر مع اقترابهم رويداً رويداً

حتى بانت ملامحه .. اتسعت عيناي و زادت نبضات قلبي و اشتعل قلبي برؤية محيّاه ، كان ثغره يبتسم ، لقد درى برؤيتي إياه ، لم يكن هذا سوى " **ديفيديوس**" ...

قبل أيام ...

ديفيديوس

بعد أن بدأت المبارزة بيني و بين القائد ڤينيسيوس ، كنت المنتصر بكل تأكيد و المعركة لصالحنا ، لكن فجأة ، جاء لجيش الأعداء مدد ، مدد كبير العدد ..

انقلبَت موازين المعركة لصالحهم ، و قُتل معظم أفراد جيشي ما أشعل روح الحماسة في نفس ڤينيسيوس ، فتمكن مني و طعنني برمح في صدري و من ثم وقعت أرضاً ، و فقدت وعيي...

فتحت عينيّ بصعوبة ، على سقف غرفة خشبيّ ، حاولت الاعتدال بجلستي ، لكن وجعاً حارقاً صعقني في صدري ، كنت في غرفة صغيرة ، يضيئها نور مشعل مثبّت على الحائط ..

أشعر بجسدي محطّم ، متعب ، و شعور غريب آخر لا أفهمه ممدّد على سرير قديم ، دلف إلى الغرفة رجل طاعن في السن و نظر إلي للحظات و من ثم اقترب منّي و قال :

- إذاً لقد استيقظت

حدّقت فيه بعدم فهم لثواني ، و من ثم قلت :

- لا أذكر سوى أنني تلقيت طعنة من ڤينيسيوس ، ثم ، من أنت ؟

جلس على كرسي و أراح جسده ، جمع كلماته و قال بعد فترة :

- بعد أن سقطت أرضاً ، رحل جيش الحاكم ، فرحت أمشي بين الجثث بعد أن غادرت بيتي ، الذي لم يمسّه ضرر ، للإله الحمد ، و من ثم رأيتك بصدر يعلو و يهبط لكن فاقد للوعي ، فجررت جسدك بصعوبة إلى هنا ، و عالجت جرح صدرك .. بالمناسبة ، لقد كان جرحاً قاتلاً

سألته :

- شكراً و لك جزيل الشكر ، لكن من أنت ؟

- أنا حكيم بطب الأعشاب ، منذ خمسين سنة

تأملت تجاعيد وجهه الكثيرة ، و شعره الأصلع الذي تتناثر فوقه بضع شعرات يلوّنها الشيب ، و عينيه الصغيرتين ، اللتان تخفيان ذكريات مفجعة ، قد طوى على ذكرها الزمن ، و انحناء ظهره العجوز ..

سألته :

- كم بقيت فاقداً وعيي ؟ يوم ؟ أم بضع ساعات ؟

- أيام معدودة

- أيام !!!

- لم تخبرني يا ولد ، من أنت ؟ و ما اسمك

- أنا ديفيديوس قائد جيش حماة لوردا ، الذي يقاتل جيش الحاكم

بدَت على عينيّ الحكيم الدهشة ، و من ثم قال :

- سمعت بمهاجمة جيش الحاكم لكهفكم

اتسعت عيناي بفزع ، و سألته أن أكمل بنظرة متسائلة ، فأردف:

- انتقل جيشك بعد هذه الحادثة بواسطة قائدهم الجديد أوليمبا إلى كهف آخر ، قد كُشف مرة أخرى

ابتسمت حينما سمعت اسم أوليمبا ، بشكل لا إرادي ، و من ثم سألته أن يكمل :

- انطلق جيش الحاكم منذ قليل ، إلى كهفكم

- كم تعداد الجيش ؟

- أذكر أنه ما يزيد عن مئة ألف

- مئة ألف !!!!

وضعت كفّيّ على وجهي ، بائساً ، لم يكن أمامي حل ، ماذا سأفعل ؟ من أين أجلب رجالاً ؟ كيف لي أن أهرّبهم ؟ لقد وقعوا في ورطة مميتة ، قلت له بحزن :

- لقد ترك لنا شخص ، منذ القِدم ، ثلاثمئة رجل ذوو قوة شديدة و حفظهم بإحدى الطرق إلى زمننا هذا ، يشبهون اليتي ، هذا أقرب وصف أخبرني به صديقي ، أنا متأكد أنه حررهم ، فلا سبيل غيرهم ، و على الرغم من هذا ، سنخسر الحرب

- كم عددكم ؟

- أعتقد خمسة أو ستة آلاف

و من ثم قلت بيأس :

- لقد انتهينا

نظر إلي الحكيم دقائقاً معدودة ، ريثما يعدّ لكلمات ستحدث فارقاً في نفسي و آمالها ، قال :

- ما رأيك أن أساعدك ؟

رفعت رأسي بسرعة ، و سألته :

- كيف ؟

- اليتي

- ماذا ؟؟

- اطلب مساعدتهم

- أرجوك ، لا تسخر مني ، أنا في وضع حرج و ..

قاطعني بحدّة :

- حينما كنت في العشرين من عمري ، كنت أحب تسلّق الجبال الجليدية المغطاة بالثلج مع والدي ، و تصادفت بإحدى هذه المخلوقات الرائعة ، أو المخيفة لنقل ، لذا ، فهم آخر آمالك

- لو أردت تصديقك ، و الإيمان بكونك لست خرفاً ، أين أستطيع إيجادهم ؟

- اذهب إلى " **جبال تيتارا** " الجنوبية و ابحث عنهم

- أتمزح معي ؟! هذه الجبال ضخمة جداً ، أين سأبحث عنهم هناك ؟

- اتجه إلى السلسلة الرئيسية فيهم ، و اصعد إلى كهوف الضياع هناك يعيشون على الأرجح

- كهوف الضياع لم يدخلها أحد و خرج

- هذا لأنهم عندما يرون اليتي ، يفزعون و يصرخون ، و اليتي بطبيعتهم لا يحبّون البشر و لا الصراخ و الضجيج ، لذا يتم قتل كل من يخاف لو رآهم ، لذا القاعدة الوحيدة لو استطعت الوصول إليهم ، هي ألا تخف

- حسناً ، و ماذا عن جرح صدري ؟ ما زال يؤلمني

- سيستمر ألمه لبضعة أيام ، فالجرح كان عميقاً و لن يُشفى بسرعة ، لذا عليك تجاهله و الذهاب لإنقاذ أصدقائك قبل فوات الأوان

نهضت بسرعة ، و كدت أرتدي دروعي الراقدة على الأرض لكنه قال :

- لا ترتديها ، ستثقل على جسدك ، فهو متعب كثيراً من معركته الأخيرة ، اذهب بثيابك و كفاك مماطلة

سمعت لكلامه و فتحت الباب ، و قبل أن أهمّ بالخروج ، قال من داخل الغرفة :

- هناك حصان مربوط إلى جذع شجرة بجانب أحد البيوت التي مات كل من فيها ، خذه و انطلق به

أومأت له برأسي ، و قلت مع ابتسامة شاكرة :

- لن أنسى لك معروفك

بحثت بعدها عن الحصان ذاك ، و انطلقت به بأقصى سرعة إلى جبال التيتارا ، فهي جبال بعيدة قليلاً عن هنا ، سأحتاج ما يقارب الساعة للوصول ، أتمنى أن أستطيع مساعدة جيشي في الوقت المناسب

***

وصلت بعد ساعة و عشر دقائق إلى الجبال ، لأنكز خاصرة حصاني بكعب قدمي للذهاب يساراً ..

مشيت أمامها حتى وصلت إلى سلسلة الجبال الرئيسية

و صعدتها بحذر ، حتى أصبح الطريق قاس و صعب على الحصان ، فترجّلت عنه و أكملت طريقي صاعداً بصعوبة

حتى لاحت لي كهوف الضياع ، و التي كانت كهوفاً جليدية بامتياز ، كانت واسعة كما تظهر لي ، و لا شيء غريباً فيها أو مميزاً ..

وصلت إلى بوابتها ، و ألقيت نظرة إلى الداخل ، لكن لم أرَ شيئاً ، تقدّمت بحذر شديد ، و ببطء ..

كان الطريق قد بدأ ينحدر نزولاً ، الأرض جليدية ، و قد أتعثر أو تنزلق قدمي بسهولـ..

لم أكد أكمل جملتي ، حتى انزلقت قدمي ، و أطلقت صرخة مكتومة ، بينما ينزلق جسدي بسرعة إلى الأسفل ، كنت أرتطم بصخور كبيرة و أتألم ، حبست جميع صرخاتي من الخروج كيلا أثير ضجة ، هذا لو بقيت على قيد الحياة ..

انتهيت إلى الأرض التي راح جسدي يسير عليها بتأثير التسارع و الجليد ، حتى توقفت

نظرت حولي ، لأرى نفسي في قاعة كهفية باردة ، جليدية ، و نوازل كهف من الجليد أيضاً ، حدّقت أمامي باهتمام ، لأرى جزءاً من رأس شيء يختبئ خلف صخرة كبيرة

لم أتبين ملامحه بسبب بعده ، لكنني قلت بحذر و ريبة :

- من هناك ؟

لم يجبني ، فقلت و قد زدت من ارتفاع صوتي :

- من هناك ؟

تحرّك ذلك الشيء حركة بسيطة ، و أطلّ برأسه كاملاً ، لأُفجع حينما رأيت رأساً كبيراً ، مغطى بالفراء و الشعر ، الأبيض

يشوبه بعض الازرقاق ، بعينين مخيفتين ، أو غريبتين بعض الشيء ..

كدت أهرب ، من خوفي الذي شعرت به ينتشر في جسدي لكنني تذكرت كلام الحكيم ، و استجمعت نفسي ، و وقفت على قدميّ ، و تقدّمت منه شيئاً فشيئاً ، حتى غدوت بجانبه ، كان طويلاً ، أقدّر طوله بثلاثة أمتار ، ينظر إليّ بتعجب ، أو هكذا ظننت

قلت له :

- أريد طلب مساعدتكم

صمت و لم يتكلم ، فكرّرت عليه جملتي ، و لم يجب أيضاً ..

فهمت حينها أنّه قد يكون لا يفهم لغتي ، لكنّه بعد هنيهة مشى أمامي متقدّماً في الممرات ، تبعته ، و لم أدرِ لو كان عليّ اتباعه ، لكنني لم أكن لأضيّع المزيد من الوقت ...

مشيت وراءه حتى .. حتى اتسعت عيناي من منظر ، لم أتخيل في حياتي رؤيته : كنّا قد وصلنا إلى قاعة كهفية ضخمة

ضخمة بمعنى الكلمة ، أو لنقل عملاقة ، تتناثر فيها ما يشبه البيوت الصغيرة التي تأخذ شكل مثلثات ، هنا و هناك

و الكثير الكثير من اليتي يمشون فيها ، إذاً ، لقد وصلت إلى موطنهم ..

مشيت وراءه بين تلك البيوت الصغيرة ، بين العيون المتلصّصة ، و الوجوه التي تتأمّلني و تحدّق بي ، كنت خائفاً و هذه حقيقة لا أستطيع إنكارها ، لكنني تابعت

وصلنا إلى منزل كبير ، ليس كباقي المنازل هنا ، فهو محفور بالجليد ، يشبه القصر من كبر حجمه ، دخلته وراء ذلك اليتي حتى وصلنا إلى قاعة ، تتوسطها طاولة حجرية ، و بعض أصناف الطعام الغريب ، و يتي يقفون بشكل منتظم كأنّهم حرّاس ، مع ثريا بلورية معلّقة بالسقف ، مررنا منها إلى دهليز طويل يتشعّب إلى عدّة طرق و ممرات ، لو تُركت فيه لتهت

انتهى إلى درجات قليلة من الثلج ، أو ما يشبه الثلج ، صعدناها و فتحنا باباً خشبياً اعترض طريقنا

حتى وصلنا أخيراً إلى قاعة أكبر من الأولى ، تنتهي بعرش يعتليه يتي ضخم ذا لحية طويلة ، يبدو من الحرّاس الذين يقفون بجانبه أنّه الملك هنا ، لن أصف القاعة ، فكل ما أراه أمامي من الجليد ، و يأخذ شكلاً غريباً ..

قال اليتي للملك شيئاً بلغة غريبة لم أفهمها ، بعد أن انحنى له و انصرف ، و من ثم وجّه الملك بصره إليّ ، فقلت له :

- أتفهم لغتي ؟

حدّق بي لبعض الوقت ، لا أدري في الواقع لمَ هم بطيؤون هنا في كل شيء ، في حركتهم ، في طريقة كلامهم ، في ردود أفعالهم ، لكن ما كان عليّ سوى الصبر ...

قال لي بصوت غريب و ثخين :

- من أنت ؟

أجبته بينما ابتهجت من فهمه لغتي :

- أنا القائد ديفيديوس ، جئت طلباً للمساعدة

- نحن لا نساعد جيش الحاكم

- لست من جيش الحاكم ، بل أنا قائد جيش ثائر عليه

- إذاً ، لا نساعد البشر

- أرجوك ، أرجوك ساعدنا و سأعطيك ما تريد ، أحتاج لمدد الآن ، فجيش ضخم من الحاكم في طريقه إلى رجالي

- منذ القديم ، غدر جنسك بنا ، و احتلوا أرضنا و فعلوا المجازر بأبناء جنسنا ، فهربنا إلى الجبال و بنينا موطننا المعزول عنكم ، لذا ، لا ، لن نساعد البشر و لن نتعامل مع خونة

أخفضت رأسي بيأس ، لكن خطر لي خاطر سريع ، قلت بسرعة له بعدما ظن انتهاء النقاش :

- لو ساعدتني ، أعدك بأرض لك و لأبناء شعبك ، تبنون موطنكم و نساعدكم لبنائه ، و نعقد صفقة سلم و تعايش اقبل فقط مساعدتي

كاد أن يهمّ بالرفض ، لولا أن وزيراً من وزراءه قال بعد أن استأذن بالحديث :

- جلالة الملك ، عددنا يزداد بشكل غير مسبوق ، و هذه الكهوف ما عادت تتحمّل الحفر ، لن نستطيع زيادة مساحتها ، كما أن هناك نبوءة من بعض مهندسينا ، تزعم بانهيار هذه الكهوف بعد قرن من الزمان ، فلا حاجة لنا بالبقاء فيها ، بل ننقذ أنفسنا و ننقذ بني جنسنا من الفناء

وافقه حشد من الوزراء ، الآخرين ، فصمت الملك ، و لم يتكلم حتى رجوته قائلاً :

- أرجوك ، جيش الحاكم في طريقه الآن إلينا ، قد لا نستطيع اللحاق به إن لم ننطلق الآن

أومأ الحاكم برأسه ، و قال لأحد جنوده بحزم :

- اجمع جيوشنا و اخرج بها مع هذا الإنسيّ ، و لا تعودوا قبل تحقيقكم النصر .

الفصل الرابع عشر

أوليمبا

لم أكد أصدق عينيّ حينما رأيته ، لاحت على وجهه ابتسامة ارتسمَت على ثغره و شفتيه ، و قد وصل بجيش ضخم من اليتي ، عدده يُقدّر بمئتي ألف !!

وصل إليّ ، لأترجّل عن جوادي و أرتمي عليه أعانقه كما يعانق الحبيب حبيبه بعد فراق ، نظرت إليه ، لأتأمّل وجهه الذي لم يتغير ، قلت له :

- لقد اشتقت لك يا رجل !!
- و أنا كذلك يا أوليمبا

قلت له متعجباً :

- كيف حدث هذا ؟؟ أنا لا أفهم ، و كيف أتيت باليتي !!
- قصة طويلة

قال جملته و ألقى نظرة خلفي ، ليرى نوحاً و يونس الجريح و سلام ، فقال متسائلاً :

- أين بقية الجيش ؟

أشرت إليه بعينيّ إلى جيش الحاكم ، لينظر بغضب :
- الخونة !!
و من ثم صاح بأسيل :
- خذي يونس إلى الكهف ، هيّا بسرعة !!
نفّذَت ما قاله ، و زفر حنقاً ، تقدّم ڤينيسيوس المصدوم :
- لقد قتلتك بيديّ هاتين ، كيف عدت للحياة يا هذا !!
مشى ديفيديوس بجواده إليه :
- خسئت أن تقتلني أنت !! سترى المعركة الحقيقية الآن
و من ثم صرخ بجيش اليتي :
- لقد بدأت المعركة !!
ركضَت جحافل جيوش اليتي نحو جيش الحاكم ، كانت ضربات أرجلهم بالأرض تشعرك بها تهتزّ من تحت أقدامك ..
معظم جيش الحاكم كان خائفاً فزعاً من اليتي ، لذا فإن قتلهم قد غدا سهلاً جداً و يسيراً عليهم
انطلقت أبحث عن ڤينيسيوس الذي اختفى فجأة ، وسط صرخات الموت الخائفة ، و صرخات اليتي المفزعة ..

بينما كنت أضرب رقاب من يعترض طريقي ، شاهدت متحولاً يهاجم أحد اليتي ، لأفاجئ بضربة واحدة من اليتي

جعلَت المتحول يسقط على بعد أمتار ، ليسرع اليتي إليه و يدوسه بقدميه ، حتى تجري دماءه أرضاً و تفيض روحه ، قوة هذه المخلوقات أقوى مما ظننت ..
غبار ثلجيّ يتدفق نحو السماء ، حتى أن بعضه قد أعماني عن رؤية بعض الجيش و الفرسان ..
تقدّمت باحثاً عن قائدهم الأحمق ، فعلى الرغم من كون ديفيديوس قد بقي على قيد الحياة ، إلا أنني أريد قتل ذلك القذر بيديّ ، لن أخرج من هذه المعركة دون رأسه ..

تصادفت بفرسان من جيش الحاكم قد تكالبوا على أحد اليتي ، و تمكنوا من طعنه طعنات كثيرة بصعوبة ، ليجثو على ركبتيه و يسقط ميتاً ، إذاً ، نقطة ضعفهم هي الجماعة .. أرجو ألا يعرف الباقون ذلك

التفت لأرى شيئاً ، لم أحسب له حساباً : مجموعة من المجانيق ، تقترب من بعيد ، لم ينتبه أحد من الجيش إليها سواي ، لذا رحت أصيح بأعلى صوتي :
- مجانيق ، مجانيق ، احذروها !!
فإذا بكتلة كبيرة مشتعلة النار تضرب و تسحق مجموعة من الجيش :

- كرات مشتعلة ؟
قرّبت نظري منها ، لأجدها كتلة كبيرة من مادة صلبة بعض الشيء ، قابلة للاحتراق ، لم أتبينها ، لكنها كانت ثقيلة على ما يبدو ، إذاً ، هذا ما سيقذفوننا به ..

استمرّت المجانيق بقذف الكرات الملتهبة ، حتى سقطت إحداها فجأة ، لنتبين مجموعة من اليتي قد راحت تحطّمها و تسقطها ، هذا جيد ، أحسنتم **!!**
لكن ، و قبل أن آخذ مأخذي من البهجة ، شعرت بظل كبيرة يسير على الأرض أمامي مقترباً مني ، لأرفع نظري إلى السماء ، و أرى إحدى الكرات المشتعلة الكبيرة ، تهبط نحوي ...

يونس

انتهَت أسيل من تضميد جرحي ، في جوف الكهف المرتجّ

كانت أشياء ترتطم فيه و تحطمه ، حتى بدأت النساء و الأطفال يلوذون بالفرار منه ، قالت أسيل صارخة :

- يونس !! علينا الإسراع بالهرب ، و إلا سنموت أسفل حطام هذا المكان

وافقتها ، فساعدتني على النهوض ، و اعتلاء أحد الخيول لتجلس خلفي ... نكزت خاصرة الحصان لينطلق مسرعاً نحو الخارج

بينما عبرَت كرة كبيرة من جانبنا إلى صخور الكهف لتسدّ بوابته بعد أن انهارَت بعض الصخور الكبيرة على البوابة ، قالت أسيل بعد أن ألقت نظرة إلى الوراء :

- الحمد لله أننا خرجنا بسرعة ، كنّا سنعلق هناك

مشيت بالخيل وسط الجثث و الدماء و الرؤوس المتطايرة و صرخات مختلفة تتهافت على مسامعنا

عندما خرجنا تقريباً من حدود المعركة ، انتبه لنا بعض الفرسان و المتحولين ، فلحقوا بنا

قلت بينما أنكز الحصان بقوة أكبر ليزيد من سرعته :

- هذا ما كان ينقصنا

أسرعت بالحصان مبتعداً بقدر ما أستطيع عن ذلك المكان ، فقالت أسيل صارخة :

- ما زالوا يتبعوننا !!

قلت :

- نحن من الأشخاص المهمّين بالنسبة لهم ، فمن جهة ، نكون أصدقاء ديفيديوس و أوليمبا ، و من جهة أخرى جئنا من الأرض الأولى ، لا أظنّهم سيتخلون عن لحاقنا

ردت أسيل و هي تضرب رأسها بظهري :

- أخبرتك من البداية أن علينا الهروب

صرخت متألماً متذمراً :

- انتبهي يا فتاة !! أنت تضربين رأسكِ على جسد زوجكِ الجريح !!

- آسفة آسفة ، لكن زد من سرعة هذا الحيوان

- احترميه لو سمحتِ ، قليلاً من الاحترام فقط ، هذا الكائن يُسمّى (الحصان)

- حسناً كفاك فلسفة ، زد من سرعة السيد حصان لو سمحت

- هذا أسرع ما لديه

كادت أن تتفوّه بالمزيد ، فقاطعتها :

- أرجوكِ اصمتي قليلاً ، كفاكِ ثرثرة **!!** وراءنا مَن سيقتلنا لو نسيتِ ...

أوليمبا

سقطت على الأرض و أنا أرى الكرة تقترب و تقترب حتى أصبحت أشاهدها تهبط فوقي و تكاد أن تلمس بي ، فأغمضت عينيّ و ...

لم أشعر بشيء ، لا بالاصطدام و لا بالألم ، ماذا حدث يا ترى؟ أمتُ ؟ أم أن الكرة لم تصبنِ بمعجزة ما

فتحت عينيّ ليرتعش جسدي حينما رأيت ديفيديوس يقف بصعوبة ، رافعاً يديه إلى الأعلى و يحمل الكرة الثقيلة ، الكرة المشتعلة بلهب و نار قوية ..

كان يضغط على أسنانه و على نفسه ، ليستطيع حمل الكرة ، احمرّ وجهه و راحت يداه تحترق و يذوب جلده و ينكشف عظم يديه الصامدتين ، قال بأنفاس متقطعة ثقيلة :

- **اهرب ، اهرب يا أوليمبا**

لم أكد أنطق ، فأجبته بملامح امتلأت شجناً :

- لا ، لا يا ديفيديوس ، ليس الآن ، لقد عدت للحياة منذ قليل لا يمكنك الرحيل بهذه السرعة ، لا تفعلها يا ديفيديوس

قال و هو يجاهد لحمل الكرة و عدم تركها تسقط عليّ :

- أنا أشعر بعظامي قد بدأت تذوب ، اهـ.. ، اهرب يا أوليمبا اهرب و انتصر و لا تجعل تضحيتي تذهب سدى

نهضت و أسرعت بجسدي المرتجف إلى حصاني ، و نظرت إليه نظرة أخيرة ، و من ثم نكزت حصاني بأقوى ما عندي ليصيح منطلقاً بسرعة ..

سمعت صرخة من ورائي و صوت اصطدام ، تدفّقَت حينها الدموع بغزارة من عينيّ ، لقد مات محترقاً مسحوقاً بالكرة

مات و انقطعت أنفاسه الآن ، لم يعد ديفيديوس موجوداً على الأرض ، بل انتقل ليعيش في السماء ، انتقل ليراقبني من هناك من بعيد

وسط حزني و شجني ، غضبت ، غضبت غضباً جمّاً و اشتعلت بنيران لا تنطفئ ، اشتعلت بنيران الحقد و الكره و الضغينة ، حينما لمحت ڤينيسيوس يركض بحصانه من بعيد

رحت أتجه إليه بأقصى سرعة بالخيل ، و حينما رآني

و رأى لمحة الحزن على وجهي ، مع غضبي العارم ، انطلق فارّاً ناحية الجبال ، و تبعته حتى صار يصعدها بحصانه

صرخت و أنا أتبعه صعوداً بملء شدقيّ :

- توقف عندك أيّها الجبان !! توقف و قاتلني !!

لكنّه تجاهل كلماتي و أكمل صعوده ، صعدنا إلى ارتفاع شاهق لم نتوقف سوى حينما اعترضته حافة تطلّ على هاوية عميقة مظلمة يخبّئها الضباب ، لا طريق آخر ، إما أن يلقي بنفسه ليموت ، و إما أن يدخل في نزال معي

استدار و نظر نحوي و فجأة ، راحت تتساقط حبّات ثلوج غزيرة ، من السماء ، و اشتدّ البرد ، و اشتدّت معه الرياح ليُخلق ضباب كثيف يحاوطنا ، قال لي أخيراً بعد أن جرّد سيفه من غمده :

- أنا أو أنت ، أحدنا اليوم لن يعود موجوداً

أجبته و الريح تلعب بشعري :

- لقد كنتَ السبب بقتل ديفيديوس ، اليوم ستموت على يدي

قهقه ساخراً :

- إذاً ؟ لقد مات ، لا أشكّ أن إحدى كراتي سقطت عليه ، مات مسحوقاً ..

لم أتمالك نفسي بعد جملته الأخيرة ، و أسرعت بالحصان نحوه مشهراً سيفي عالياً ، ليتنحّى بحركة سريعة و تظهر الحافة أمامي ، حاولت إيقاف الحصان لكنّه لم يستطع ، فقفزت عن ظهره في آخر لحظة ، ليسقط الخيل وحده و قد صاح صوتاً صدح في أرجاء الهاوية و تردّد صداه ، قال بابتسامة خبيثة :

- كدت أنال منك

أسرعت إليه و أنا أقول :

- خسئت !!

و بحركة سريعة حاول تجنّبها ، ضربت رأس فرسه

و انفجرت نافورة دماء في وجهي ، لتتلطّخ ملامحي بها

و أبصق ما تسرّب منها من فمي ..

سقط ڤينيسيوس على الأرض ، و طار سيفه بعيداً عنه ، و من ثم حاول الزحف إليه ، لكنني وضعت قدمي على يده ، و قلت له بعينين تغليان حقداً :

- سأقطّع جسدك و أطرافك إلى قطع صغيرة ، سأرسلك إلى الجحيم على شكل كومة من اللحم

رفعت سفي ، و قطعت يده اليسرى ، صاح ألماً و راح يضرب رأسه بالأرض ، فابتعدت عنه و ركلت سيفه بقدمي ، ليصل إليه ، و قلت متحدّياً :

- حاربني فيما تبقى من جسدك

قام غاضباً و الدماء تتدفّق من ذراعه المقطوعة ، و قال بضغينة كبرى :

- لا أحتاج سيفاً

و ركض باتجاهي ، للحظة ، كنت أريد استعمال خدعته الأولى أيّ أدعه حتى يصبح قريباً مني ، و أتنحى بحركة سريعة لأدعه يسقط ، لكنني ، وجدت نفسي أركض تجاهه ، رامياً سيفي ..

اصطدم جسدانا ، و رحنا نتصارع باليدين ، ضربني كثيراً بقبضته على وجهي و بطني ، لينزف أنفي دماً كثيراً

و ضربته بالمقابل على أنفه لأكسره ، الثلج يتساقط علينا بهدوء ، و رويّة ، و الرياح تزداد حدّة ، و الضباب يشتدّ كثافة

أدرته بصعوبة ليصبح ظهره مقابلاً للحافة ، و رحت أدفعه قليلاً قليلاً ، بينما يحاول المقاومة ، لكنه ضربني بين ساقيّ بعد

أن أخرج خنجراً كان يخفيه و طعنني في بطني ، و من ثم دفعني بعيداً عنه ، بدأت الدماء تسيل و تسيل ، و بدأت أشعر بقرب النهاية ، خارت قواي ، شيئاً فشيئاً ، و تلاشى عزمي

جثوت على ركبتي و أنا ألتقط أنفاسي ممسكاً جرحي النازف

و نظرت إليه ، إلى ڤينيسيوس الواقف ، مشاهداً موتي ببطء مع ابتسامة ساخرة :

- اذهب إلى صديقك الضعيف ديفيديوس ، يا له من أحمق مات مسحـ..

لم يكمل جملته ، ليُفاجئ بي أقوم و أستجمع ما بقي لي من قوة و أركض بكل سرعة تجاهه ، بعدم مراعاة وجود الحافة

نظر إليّ بعينيه المذهولتين ، و حاول الهرب أو الابتعاد

لكنني لم أعطه فرصة أو وقتاً كافياً ، اصطدم جسدي بجسده

و حاوطته بيديّ ، بشدّة ، لنسقط عن الحافة و نفارقها سوياً ، نحو الهاوية الظلماء ، كنّا نقع و نقع ، ابتسمت حينها ، و قلت في نفسي :

- **لقد أتممت مهمتي يا عبدالله اللورداني على أكمل وجه**

و ها أنا الآن أنـهي رحلتي ، و أما أنت يا ديفيديوس ، فصديقك قد انتقم لك ...

اختفى الجسدان بين سحابات الضباب الأبيض الكثيف

و تلاشى وجود **أوليمبا** عن العالم ... ليرحل بسلام ...

يونس

مضت ساعات ، و ما زال الفرسان و المتحولون يلاحقوننا قلت لأسيل :

- يا إلهي ، لقد تعبنا ، ألا يتعبون أبداً ؟

- علينا إيجاد حل أو مخبأ يا يونس

- و أين سنجد شيئاً كهذا ، ألا ترين الصحراء الثلجية التي نحن فيها

- أريد أن أعيش معك و العودة إلى الأرض الأولى ، لا أريد الموت هنا بين أنياب هذه الوحوش !!

- أسيل ، من المستحيل أن أدع أحداً يلمسك منهم ، أقتلك أنا و لا أدع نفراً منهم يفعلها

- و من قال أني سأدعك بمفردك لهم ؟

- و ماذا ستفعلين ؟ أستتحولين إلى بطريقة متوحشة ؟

أسيل و هي تنكزني بيدها :

- بطريقتك متوحشة منذ زمن ، ألم تجرّب وحشيتها من قبل ؟

- بلى ، لقد جرّبتها حينما أتيتِ إليّ و رفعت يدكِ كالمخالب و حاولت تقليد صوت و حركات النمر

- ألا زلت تذكرها !!

صحت :

- أسيل ! انظري هناك

نظرَت ، لترى الحفرة التي تنتهي إلى مختبر عبدالله اللورداني قالت :

- لكن كيف وصلنا إلى هنا !؟ احتجنا يوماً كاملاً سابقاً

- يبدو أننا سلكنا طريقاً مختصراً دون أن ندري

أوقفت الحصان هناك و ترجّلنا عنه بسرعة ، لنلقي بأنفسنا في الحفرة و أحاول فتح الباب :

- لقد تجمّد مرة أخرى !!

تقدّمت أسيل :

- انتظر ، سأحاول معك

بقينا لدقيقة ، على حالنا و نحن نسمع أصوات الأعداء تقترب منّا ، حتى فُتح أخيراً

وصل إلينا الحرّاس و المتحولون و هبطوا الحفرة إلينا لندخل بسرعة إلى المختبر و نغلق الباب في آخر لحظة ، أقفلت الباب من الداخل :

- لن يحتمل هذا الباب ضرباتهم ، سينخلع قريباً

عبرنا الممر ، و أدرنا نظرنا في الغرفة ، حتى وقعت أعيننا على خزانة حديدية ، لنجرّها إلى مدخل الممر و نغلقه بها

و ما هي إلا ثوان حتى سمعنا صوت خلع الباب و اقتحامهم المكان ، و راحوا يضربون الخزانة الصلبة ، التي كادت أن تقع ، لولا أننا ألصقنا ظهورنا عليها و بدأنا ندفعها

نظرت إليّ أسيل بحزن :

- كنت أريد تمضية المزيد من السنوات برفقتك

أجبتها وسط الصرخات و الضربات :

- في الجنة إن شاء الله ، في الجنة

دمعت عيناها ، و قال بصوت يغلب عليه البكاء :

- أليس هناك مهرب من هنا ، أو طريقة للنجاة

- أتعلمين أنّكِ أجمل شيء حدث في حياتي بأسرها ؟ .. أتدرين كم أحمل لكِ من الحب في هذا القلب الصغير ؟

على الرغم من قصر طولكِ ، إلا أنك تمثلين العالم بالنسبة لي ، أرى الكون في عينيكِ الجميلتين هاتين ، أرى النجوم المتلألئة و الكواكب بأفلاكها ، و الشمس ببريقها ، و القمر بنوره ، الليل بهدوئه ، و النهار ببهجته و نشاطه ، و الشتاء ببرده

و الصيف بحرّه ، الربيع بزهوره و وروده ، و الخريف بدفئه الباهت ، أرى انعكاس السماء الزرقاء بغيومها ، و أشجار الكرز اليابانية ، أرى القبة السماوية و بحر السماء

أرى العشق الأبديّ و نبض الهيام الأزليّ و حور من الفردوس الأعلى تسكن عينيكِ ، و من الثغر أتذوّق عسلاً طبيعياً له طعم من أشهى الطعوم ، بين شفتيكِ انطوى العالم ، من بين أنامل يديكِ يتقطّر حنان شهيّ ممزوج بالأمان ، راحة عظمى حينما يتلامس جسدي بجسدك ، حينما تتناهى همساتكِ الدافئة

حينما أستنشق رائحة عرقكِ الفوّاح برائحة مسكيّة ، رحيق ورود و زهور ، كأنّها الياسمين ، ما أنتِ يا فتاة ؟ ما أنتَ يا ملاك ؟ ما أنتِ يا حوريتي ؟ **أنتِ الكون**

تدافعت دموعها بغزارة ، حزينة ، و قد تأثّرت :

- أرجوكِ لا تبكي ، لا أريد أن يكون آخر ما أراه هو دمعكِ

راحت تمسح دموعها بأناملها مرددة :

- أنا لا ، أنا لا أبكي ، لا أبكي

- دعينا ننظر بتمعّن لعلنا نجد مخرجاً

أدرنا بصرنا في الغرفة بيأس ، يمنة و شمالاً ، خطر لي في البداية أن نحاربهم بسلاح ما ، لكن لا سلاح ، أو أن نحكم إغلاق الباب ، لكن لا حل أيضاً ، فالخزانة ستتحطّم علينا بعد قليل ..

استمررنا باقتراح الحلول على أنفسنا حتى .. حتى وقعَت عيوننا في ذات الوقت على آلة الحفظ ، التي جاء بها أوليمبا إلى زمننا هذا ، رفعنا نظرنا إلى بعضنا ، و أومأنا بالفهم ...

نوح

حينما جاءنا المدد من اليتي ، لم أبقى في المعركة سوى لبضع دقائق ، و من ثم تساءلت بيني و بين نفسي : أين الحاكم ؟

إن لم يأتِ ، فلن نستطيع إنهاء الحرب كاملة ، بل سيكون لدينا معارك أخرى ، و أنا قد مللت المعارك و ما عاد لي من الصبر شيء ، لذا ، قررت الذهاب إلى القصر لإنهاء كل شيء

سأفصل رأس الحاكم عن جسده ، و أكون سبب النصر ، فلم أفكر كثيراً بالأمر ، حتى نكزت خاصرة جوادي بكعب قدمي ليتحرك بسرعة ، و أخذت معي بعض اليتي .. ليس بالكثير لكنني أريد إلهاء الحراس بهم ، لأستطيع الوصول للحاكم ..

خرجنا ، و ابتعدنا عن أرض المعركة و وصلنا إلى القصر الكبير .. بعد ساعة تقريباً ، و قبل أن نهمّ بدخوله ، خطرت لي فكرة

لأزحف بجيشي الصغير نحو كهف الجزاء و نبحث عن حفرة ما ، لنتوصل إليها ، و ندخلها ..

تذكرت اعتراف الحارس الأسير الثالث ، حينما استجوبه ديفيديوس و أطلعه عن نفق يصل القصر بهذا الكهف ، فعبرنا سرداباً طويلاً ترابياً ، كان ضيّقاً بعض الشيء على اليتي

فراحوا يزحفون زحفاً ، حتى وصلنا إلى نقطة مسدودة

علمت حينها بأننا وصلنا إلى فتحة النهاية ، و أن ما يسدّها هو ظهر العرش ، فدفعت العرش بقوة لأزيحه عن فتحة النفق لنخرج بسرعة مقتحمين القاعة اقتحاماً ، لا تسلسلاً و لا خلسة

و بدأنا نقاتل ما يعترضنا من الحراس ، كان الكثير منهم يفزعون من اليتي فيهربون ، لذا تركت اليتي يقاتلون فيلقاً صغيراً و رحت أبحث بعينيّ عن الحاكم الذي لم أجده على عرشه و لا في القاعة ، فجريت نحو بابها الكبير و خرجت منه بحثاً عنه ..

دخلت غرفاً كثيرة و دهاليز كثيرة ، لكن دون أن أجد له أثراً أيعقل هروبه ؟ أتمنى عدم حدوث ذلك ..

بدأت بصعود السلالم الطويلة التي تأخذني إلى سطح القصر على ما أظن ، حتى خلعت باب السطح الحديديّ و ألقيت نظرة

لأرى الحاكم هناك ، كان بدرعه الحديديّ الأسود و خوذته التي تغطّي جميع أجزاء وجهه بقناع حديديّ ، لا تظهر لي سوى عينيه ، يقف هناك ينظر نحوي .. تقدّمت دون خوف مجرّداً نصل سيفي من غمده :

- **لقد آن أوان قتلك جلالة الملك**

لم يتكلم و لم يفعل شيئاً سوى أن أخرج سيفه ، و رفعه بحركة تدعوني للقتال ، فركضت نحوه ضارباً السيف بالسيف ، لأبدأ ضربات كثيرة و سريعة ، محاولاً طعنه في إحدى أجزاء جسده لكنه كان يصدّ جميع ضرباتي باحترافية شديدة ، ابتعدت عنه لاهثاً :

- من أنت ؟

لم يرد ، بل هاجمني بسيفه و كاد أن يصيبني في ساقي ، لكنني تجنّبتها بأعجوبة ، فراح يضربني بقبضته الحديدية ، حتى أصاب وجهي و عظم القص و معدتي

لأسقط أرضاً أعتصر من الألم ، إنّه أقوى مما ظننت ، اقترب مني ببطء ، و أمسك سيفه كإمساك الرمح ، أيّ أنّه يريد رميه على جسدي رمياً ..

لكنني ضربته بقوة ليتعثر و يسقط ، و قبل سقوطه بلحظات أمسكت سيفي مستغلاً الموقف و ضربت رأسه به بكل ما أوتيت من قوة ...

نهضت بسرعة و أنا أنظر إليه ، فإذا به يرفع رأسه للحظات

و خطّ متعرّج ارتسم متوسطاً الخوذة و القناع ، و من ثم ... انفلقت الخوذة بقناعها إلى فلقتين و سقطتا أرضاً ، حينما رأيت ملامحه

تجمّدت أرضاً ، ناظراً إليه ، بشعره الأسود القصير

و ملامحه التي ظهرت فيها تجاعيد بسيطة ، و لحيته المحلوقة و ذقنه المذبّب ، و عينيه السوداويتين ، كان ذلك :

- **والدي !!!**

صرخت بها بصدمة اعتلت وجهي و ملامحي ، أحقاً ما أرى ؟ أهذا هو ؟ دقّقت فيه بتمعّن أكثر ، لأتأكد من الشامة الصغيرة على أذنه اليمنى ، إنه هو بذاته ، رأيت هذه الملامح مراراً

و تكراراً داخل ألبوم صور عائلي تحتفظ به أمي في خزانتها

قال و قد فهم بابتسامة :

- إذاً ؟ أنت ابني نوح ، أتعلم ، لقد كبرت ، كنت في العاشرة حينما رأيتك آخر مرة

تداخلت مشاعري ، و لم أتفوّه بكلمة ، فلا أعرف ما أقول

أوالدي كان طيلة هذه السنوات ، جبّاراً سفّاحاً ظالماً على شعوب أرض بريئة ؟ كيف وصل إلى هذا المنصب أصلاً ؟

- أعرف أنّك مصدوم ، لكن هذه هي الحقيقة ، فعندما عرفت بحقيقة الأرض ، حزمت أمري على المجيء إلى هنا و قد فعلتها بعد تخطيط و ...

قاطعته بحدّة :

- كيف وصلت إلى هذا المنصب ؟

- حينما وصلت إلى هنا ، كانت ثورة كبيرة ضد الحاكم تنشأ فقد كان ملكاً ظالماً

- مثلك تماماً

ابتسم بخبث و أردف :

- فقُدت الثورة ، و قتلت الحاكم ، ليكافئني الشعب و يجعلني ملكاً عليه

كاد أن يقوم من مكانه ليقف ، لكنني منعته ، حينما وجّهت السيف لعنقه ، قال ضاحكاً :

- أستقتلك أبيك يا ولد ؟

سألته بعبوس كبير يجتاحه صوت حزين :

- لمَ ؟ لمَ لم تعد

- السلطة كالسحر ، صدقني حينما جلست على العرش و علمت أن مصير الشعوب تلك جميعها قد صار بين يديّ ، لم أحتمل ..

و جرى في دمي شيء لم أفهمه و لم أعهده ، جعلني أعشق تعذيبهم و حرمانهم من متع الحياة ، أصبحت أجلب رجلاً بريئاً من الشارع و آمر بجلده أمامي ، لأستمتع بصوت صرخاته المتألمة ، هي .. هي أشبه بالموسيقى ، حتى أنني لغنّيت كثيراً على لحنها ، بالأخص ألحان صرخات النساء ، جميلة جداً حينما تصرخ باكية : لدي أطفال ، لدي أم مريضة

و راح يقهقه بقبح :

- أو عندما كنت أريد الضحك و التسلية ، آمر بتعذيب طفل أو شيِّه ، أو رميه من مكان مرتفع ، أو حتى إغراقه ، لقد كانت لحظات جميلة ، مليئة بالحيوية ، و الروعة أشعر يا بنيّ ، حينما أعذّب إنساناً ، بشيء من الفن ، أيّ أنني أتأمّل جسده الدامي ، كلوحة فنيّة أنا راسمها ..

قلت له بصوت مشمئز :

- أنت لست إنسان ، بل **شيطان**

- مَن يحب تعذيب البشر ، ليس منهم .. لذا أنا أتقبّل كوني شيطاناً ، فالشياطين لا تُعذّب و لا تغدو ضحية لشيطان آخر

صمت قليلاً ، و بحركة مفاجئة ، غرست سيفي بساقه ، صرخ لكن صرخته اختلطت بضحكة هازئة :

- **حتى أنت تحب الدماء ، تحب التعذيب ، أنت مثل والدك ، دمائي تجري في عروقك يا نوح**

سحبت السيف و غرسته مرة أخرى ، ببطنه :

- مَن يحبّ تعذيب البشر ، ليس منهم ، و مَن يحب تعذيب الشياطين ، ليس منهم أيضاً ...

صرخ ضاحكاً باصقاً دماءه من فمه :

- **دمائي تجري في عروقك و شرايينك و أوردتك ، أنت كأبيك ، أنت أنا ، سأعود للحياة لكن بشكلك أنت ، أنت نسخة مني يا نوح ، نسخة من والـ...**

غرست السيف في فمه ، ليخرج من الجهة الأخرى :

- اخرس ، اخرس إلى الأبد ، أيّها المهووس بالقتل و التعذيب ، أيّها السفاح ، أيّها المجرم ، انتقل إلى الجحيم و عش هناك مع الشياطين أمثالك ، و لا تعد ، ابقى هناك عند الإله ليعذّبك هو ، الإله الوحيد مَن يجوز له التعذيب و ليس أنت .. لست إلهاً يا .. يا والدي ، لست سوى من شياطين الإنس لا أكثر و لا أقل .

سلام

انتصرنا بالحرب أخيراً ، رغم اختفاء أوليمبا و يونس و أسيل كما أن نوح استطاع قتل والده الحاكم ، و تخليص البلاد منه

وجدنا جثة القائد ديفيديوس ، كان ميّتاً أسفل كرة نارية ، لولاه ما استطعنا الفوز ، و كنّا الآن من عداد الأموات ، فدفنّاه في قبر في القصر ، دفناً يليق به و بجنازة كبرى لم تُقام لأحد شارك بها جميع شعب لوردا و مدنها

و أما اليتي ، فأعطيناهم أرضاً كبيرة ، يستطيعون العيش عليها ، و بناء مملكتهم بسلام ، و وقّعنا معهم حلفاً و وعداً بعدم شنّ الحروب بيننا

***

بحثنا كثيراً عن يونس و أسيل و أوليمبا ، فلم نجد الأخير

لكننا بعد بحث طويل ، توصلنا للزوجين ، الذين صُدمنا مما قاما به :

دخل نوح برفقتي إلى مختبر عبدالله اللورداني ، لنرى جسديّ أسيل و نوح يرقدان متعانقين في جوف الآلة ، و سائل شفاف يملئها

قال نوح مبتسماً :

- حتى هنا ؟ حتى هنا رقدا متعانقين متحابّين ؟
لم يجدا سوى هذا المهرب للحياة ، يا لهما من زوجين

نظرت إلى لوحة الآلة الصغيرة ، لأجدهما قد ضبطا فتحها بعد مئة سنة ، قال نوح :

- لن يخرجا للدنيا مرة أخرى ، قبل قرن من الزمان ، أيّ بعد أن نموت أنا و أنت و جميع من يعرفهم و يعرفونه

كان يونس يسند ذقنه إلى رأس أسيل ، و يحيطها بيديه

و يحيط ساقيه بقدميها ، تتراقص خصلات شعرهما وسط الفقاعات المتصاعدة ، بينما ينامان بهدوء و سكينة ...

بعد قرن من الزمان ..

بعد قرن من الزمان ، تسرّب السائل الشفاف من فتحة صغيرة في الآلة ، و من ثم فُتح غطاءها ببطء ، و استيقظ زوج من العيون ، و أول ما رأى صاحبيها ، هو وجوه بعضهما ..

حدّق كلّ منهما بعدم فهم بعينيّ زوجه ، و من ثم قاما

و ساعدا بعضهما على الخروج من الآلة

قالت أسيل التي راحت تفرك عينيها بيديها بتعب شديد :

- ماذا حدث ؟

أجابها يونس بتثاؤب ، الذي جلس على الأرض و لا زالت آثار النوم بادية عليه :

- هربنا من الوحوش

قالت له بعدما عادت إليها ذاكرتها :

- أيّ أننا الآن بعد مئة سنة من الحادثة ؟

أومأ برأسه ، و من ثم قال :

- بالمناسبة ، لم تكن الأمور كما كنّا نظن

سألت بتساؤل :

- ما قصدك ؟

- لو بقينا مع أصدقاءنا ، لكنّا قد هلكنا

- نعم ، هذا صحيح ، كان من الممكن أن نصاب بالمعركة أو ..

قاطعها :

- بل بعد المعركة

- بعد المعركة ؟

- أتذكرين حينما قرأنا فصل البداية من الكتاب المقدس للوردا ؟

- نعم ، أذكر ذلك الفصل

- في الحقيقة ، لاحظت سطراً إضافياً كان مكتوباً في الصفحة التالية ، فبعدما قال آلاه (أي عبدالله اللورداني) :

" و قُبيل صعودهِ قال : أتركُ شجعاناً لكم ، يحرّرهمُ من قيدهم مَن جاءَ من آلاه أنا حينما تأتيكم الحادثةُ و يتحققُ النبأ و الوعد"

فلو قرأنا السطر الإضافي و تابعنا :

" و يتحققُ النبأ و الوعد ، و بعد نهايةِ الحربِ ، يتولّى عليكمُ المُلكَ حفيدي من نسلي المباركِ ، فهذا المجدُ لي و لنسلي و هذهِ غايتي الأولى "

قالت أسيل مفكّرة :

- ما معنى النص ؟

- معنى النص ، أن عبدالله أوصى بالحكم لحفيده نوح

- و ما الخطأ في ذلك ؟

- الخطأ ، أنني وجدت سابقاً في إحدى الكتب ، عندما كنّا في الأرض الأولى ، أن عبدالله اللورداني كان جشعاً مهووساً بالسلطة ، يفعل أيّ شيء لأجلها ، كما أنه حاول كثيراً في عصره الثورة على الحاكم و إعطاء الحكم لنسله ، لكنّه لم ينجح

قال أسيل بعد أن فهمت :

- لذا سافر إلى الأرض الثانية و اكتشف حينها بطريقة ما السفر عبر الزمن ، لذا استخدمه لأجل إعطاء نسله فرصة للاستيلاء على الحكم !!

- بالضبط ، لم يكن عبدالله اللورداني سوى أنانيّ طامع بالحكم و السلطة ، و هذا ما ذكره معترفاً به حينما قال **" فهذا المجدُ لي و لنسلي ، و هذهِ غايتي الأولى "**

قالت أسيل :

- و لكن .. لمَ قلت أننا لو بقينا هناك ، كنّا سنهلك و نموت

قام يونس من مجلسه ، و نظر إلى الخزانة الحديدية المحطّمة و إلى الباب الحديديّ الأول المغلق ، و تقدّم ممسكاً بيد أسيل

و فتح الباب :

- لنعد إلى أرضنا ..

قالت أسيل :

- و ماذا عن سؤالي الذي لم تجب عليه ؟

قال و هو يخرج برفقتها :

- **اسمعي يا أسيل : الأنانية و الشر ، يتسرّبان إلى دم الأحفاد و النسل ، فالجد كالأب ، و الأب كالابن ، و الابن كالحفيد ، كلّهم سواسية ...**

بعد المعركة ..

نوح

بدأ الاحتفال ، و راحت الراقصات ترقص وسط قاعة القصر و الموسيقيّون يعزفون ألحانهم و فرقة من المغنّين تنشد أغانيها

جماهير من الشعب يقفون مصفقين فرحين ، حتى خبا ضجيج الدنيا حينما تقدّم سلام قائلاً بصوت مرتفع :

- أيّها الجماهير ، يا شعوب لوردا العظمى ، اليوم ، قُتل الحاكم الشرير ، الظالم ، و تجرّدت لوردا من لباس الظلم و العبودية ، و انقشع ظلام الشرّ عن أرضنا ، و ظهر لنا حفيد من نسل آلاه ، و تحققت نبوءته ..

و رفع صوته أكثر :

- فيا أهالي لوردا ، يا شعوبها العظيمة ، علينا كما تعلمون تنصيب حاكم جديد ، حاكم مستحق للمُلك ، ليحكم مملكتنا و يعيد تشكيل قوانينها بعدل و إنصاف .. لنبني جنّتنا من جديد ، لنبني فردوساً على الأرض ، و تكون أرضنا من أجمل الأراضي ، و عالمنا من أجمل العوالم ، و نحرّر

العبيد ، و الجواري ، و يسود العدل و الجمال جميع بقاع مدننا بـقراها و بساتينها و جبالها و وديانها ..

هتف الشعب بصوت ارتجَت له القاعة :

- لوردا ، لوردا ، لوردا ، لوردا

انتظر سلام حتى هدأ هتافهم ، و قال رافعاً يديه :

- لذا ، بما أن نوح هو من خلّصنا من ذلك الوحش ، لا أرى أمامي أحد سواه يستحق الحكم و المُلك ، إنّه البطل بطل مملكتنا ، و حفيد آلاه ، الذي أخبر عنه منذ القِدم و أخبر بقدومه ، هو مفتاح الحرب التي أذهبَت عنّا ظلامنا و حرّرتنا ، لذا : **أُعلن تنصيب نوح ، كملك علينا و على مملكتنا لوردا العظمى**

ضجّ القصر بتصفيق الجماهير ، لأقوم من مكاني ، و أمشي مع سلام ، و أقف أمام العرش الذهبيّ ، ليقول سلام :

- اجلس عليه جلالتك

جلست بهدوء ، ليزداد الهتاف و التصفيق ، و لتتقدم آزكا و تجلس على عرش أصغر بجانبي على اليمين

فقد تزوجتها و غدَت الملكة الآن ، قال سلام :

- هذا ملكنا ، و ليس ذاك ، و هذه ملكتنا ، آزكا من هنا يسود العدل و من هنا نبدأ مملكتنا من جديد

شعرت حينما جلست على العرش ، و رأيت الشعب كيف قد فرح لأجلي فرحاً عظيماً ، بشيء ، لم أعهده في نفسي ..

حينما أدرك أنني المسيطر على حياة هؤلاء البشر ، و قوانين هذه المملكة ، أشعر بإحساس بالتعالي ، لا أدري أهو طبيعيّ أم لا ، لكنّه شعور جامح ، لم أشعر به بهذه القوة سابقاً

قال سلام :

- اليوم ، سنجدّد قوانيننا ، و نعيد صياغتها ، لتغدو قوانين مملكة حقيقية ، و أرض أخرى غير تلك الأرض الظلماء

الإحساس يزداد ، كأنّنـ .. كأنّني أريد فعل شيء ما ، أو أن هناك أحد في نفسي يخبرني بشيء عليّ فعله ، شيء محتوم

لا مفرّ منه ، بدأت أدرك حقيقة ما ..

أمر سلام أحد الحرّاس بالوقوف أمامي ، يحمل بيده ورقة و ريشة ، قال سلام :

- جلالة الملك ، أعلن لنا القوانين الجديدة لنقوم بتسجيلها فوراً

لحظات من الصمت ، وسط هتاف قوي من الشعب و وسط رقصات نساءهم ، و فرح أولادهم ..

قلت آمراً الحرّاس بصوت حازم مخيف لم أعهده في نفسي :

- **ألقوا بسلام داخل وعاء كبير من الزيت المغليّ ، هيّا بسرعة**

تجمّد الشعب ، و سكنَت أصواتهم ، و تخشّب سلام ناظراً بوجه شاحب ، لم يتحرّك الحرّاس من أماكنهم ، لصدمتهم ، لكنني قلت متذمراً :

- ما بكم ؟ ألا تسمعون كلامي ؟ نفّذوا ما أقول **!!** هيّا

أمسكوا بسلام و راحوا يجرّونه ، بينما يقاوم و يصرخ :

- أيّها القذر **!!** ماذا تفعل **!!** نوح ، اتركني ، نوح ، ماذا حدث لك

قالت آزكا بصوت مرتعش مرتجف :

- ما الذي يحصل هنـ..

لم تنهي جملتها ، حتى وجدت سيفي قد مزّق رقبتها ، لتموت بعد أن اختناق استمر للحظات ..

كان الشعب مصدوماً أشدّ الصدمة ، شاحباً ، خرِساً ، مبهوتاً ..

لقد أدركت ، حقيقة كلام والدي الأخير ، دمه يجري في عروقي

في شراييني و أوردتي ، سيعود للحياة ، سيعود بجسدي ، أنا نسخة منه ، **أنا هو** ، و قد عاد غاضباً ساخطاً على الشعب ..

قلت للحارس الذي يحمل الورقة و الريشة :

- **سجّلوا القوانين الجديدة للمملكة**

و قلت صارخاً :

- **حرّموا الحبّ**

حرّموا الزواج

حرّموا الحمل و الإنجاب

حرّموا الكلام

حرّموا الطعام

حرّموا الماء

حرّموا الحياة

حرّموا العيش

حرّموا النظر

حرّموا السمع

حرّموا النَفَس ...

« تمّت بحمد الله »